

الصدفة ، والعقل ، والعالم

د. فؤاد زكريا

يثير البحث فى فلسفة العلوم ، فى بلادنا ، مشكلات معقدة · ذلك لأن هذا البحث يجرى عادة فى أقسام الفلسفة بالكليات الجامعية ، ويقوم به أساتذة لم يتوفر للأغلبية الساحقة منهم أساس علمى كاف يتيح لهم الخوض فى هذا الميدان · وحتى لو توافر لأحدهم مثل هذا الأساس ، فان الطلاب الذين يخاطبهم هؤلاء الأساتذة ، وينقلون اليهم خلاصة أبحاثهم ، هم أعجز ما يكونون عن فهم مدلول الموضوعات التى تقدم اليهم ضمن نطاق هذه الدراسة ، اذ أن حصيلتهم من العلم لا تتعدى تلك المقدمات البسيطة التى درسوها حتى أوائل المرحلة الثانوية ، ونسوهامنذ ذلك الحين ·

والمشكلة الكبرى فى هذا الصدد هى أن فلسفة العلوم تمثل القمة العليا فى فهم العلم ذاته ، وفى القدرة على ادراك تياراته الكبرى من وراء التفاصيل الجزئية المعقدة السريعة التطور · وهذه القدرة قد لا تتأتى لمن ينهمك فى الجزئيات ويغرق فى المشكلات التفصيلية ، وهى ـ بالأحرى ـ تستعصى تماما على من اقتصرت معرفته على قشور العلم · وأخشى أن أقول أن الجانب الأكبر من المشتغلين بالفلسفة فى بلادنا ، أساتذة وطلابا ، هم من هذه الفئة الأخيرة ، وأن أعظمهم اجتهادا من أجل تحصيل معرفة علمية بجهده الخاص لا يستطيع تجاوز معرفة القشور الا بمسافة قصيرة لا تعطيه الحق فى خوض ميدان عظيم التعقيد كفلسفة العلوم · انه سيظل ، ولاشك ، يتحدث عن ميكانيكا الكم ، وعن علاقات اللاتعين ، وعن النظرية الجسيمية والتموجية فى الضوء ، وعن النسبية ، ولكن كل ما يعرفه من هذه المفاهيم التى يكثر من استخدامها لا يزيد عما تعرضه كتب تبسيط العلوم ، وهى كتب يعترض كثير من

---

* تعليق على كتاب « فلسفة المصادفة » · تأليف الاستاذ محمود أمين العالم ، (دار المعارف ١٩٧٠) ·

العلماء الحقيقيين على فكرة اصدارها من حيث المبدأ ، كما أنها لا تكفى ، على أية حال ، لكشف الدلاله الحقيقيه لهذه المفاهيم ـ تلك الدلالة التى يدركها العالم المتخصص ، والتى يستحيل نقلها الى الغير فى عبارات موجزة ملخصه مبسطة • أما تلك الحالات القليله التى يستطيع فيها دارس الفلسفة أن يدلى بدلوه فى هذا الميدان ، ويكون لما يسهم به قيمة ، فهى حالات يعمل فيها المتفلسف على نقل المشكلات الى ميدانه الخاص ، ميدان الفلسفه ، ويبتعد بها عن المجال العملى قدر استطاعته • وفيما عدا ذلك من الحالات فهو لا يملك الا ترديد أحكام وألفاظ يغيب عن ذهنه ، فى معظم الأحيان ، مدلولها الكامل •

ولعل أجمل مافى الكتاب الذى أقدمه الى القارىء فى هذا المقال ، هو طرحه لهذه المشكلة فى صراحة وأمانة تدعو الى الاعجاب • فهاهو ذا مشتغل بالفلسفة كرس من حياته سنوات طوالا لموضوع ينتمى الى ميدان فلسفة العلوم ، وبذل من الجهد ، فى سبيل تعميق الثقافة العلمية ، أقصى ما يستطيع باحث فى مثل ظروفه أن يبذله ، ومع ذلك يعترف صراحة بضخامة الصعوبات التى واجهته ، ولا يجد غضاضة فى أن يبوح للقارىء بأنه أحس ازاء الفيزياء الحديثة « بالعرى والدون كيشوتية » ، وفى أن يقول دون مواربة ، ودون أية مسحة من ذلك الادعاء الذى نألفه لدى كثير من كتاب الفلسفة حين يعرضون للموضوعات العلمية المعقدة : « كنت أتوقف أياما ، لا أنتظر وحيا أو فكرة خلاقة ، بل فهما ، مجرد فهم بسيط لتجربة علمية أو صياغة » •

مثل هذا الاعتراف ، حين يصدر عن صاحب بحث من أهم الابحاث التى ظهرت بالعربية فى فلسفة العلوم ، يستدعى ـ الى جانب امتداح تواضعه وصراحته ـ تفكيرا عميقا فى مصير هذا الفرع من الدراسات اذا ترك فى أيدى مشتغلين بالفلسفة ليس لهم من المعرفة العلمية المتعمقة نصيب ، وان كانوا قد اعتادوا اصدار أعم الأحكام على أخطر المسائل بجراة وبساطة شديدة ، أكسبتهم اياها طبيعة الدراسة الفلسفية ذاتها •

وعلى أية حال فان مؤلف الكتاب قد أبرأ ذمته من أمثال هذه الادعاءات براءة مزدوجة : حين اعترف فى « مدخل » البحث بالحدود التى لم يستطع أن يتعداها عند معالجته للموضوع ، وبالصعوبات التى لم يستطع التغلب عليها الا بمشقة كبيرة ، وحين وصف بحثه هذا ذاته فى « التمهيد » الذى كتبه فى وقت لاحق ، بأنه لم يكن يخلو من « شطحات هيجلية » • والحق أن المقدمات التى صدر بها الأستاذ العالم كتابه هذا ، بما تضمنته من وقائع صريحة عن نوايا الكاتب وما استطاع أن يحققه منها وما لم يستطع ، وعن ذلك التطور الفكرى الحاسم الذى طرأ عليه خلال كتابته لهذا البحث ، والذى كان موضوع البحث ذاته عاملا من عوامل التعجيل به ، هى نموذج بديع للاعتراف الذاتى فى ميدان الفلسفة ، يكشف بجلاء عن طاقة فكرية عظيمة لم تتح لها الظروف ـ تارة من فرط ما هى معاكسة ، وتارة أخرى من فرط ما هى مواتية ـ أن تسير على الدوام فى الطريق الذى كانت قد اختطته لنفسها ، والذى هى أصلح ما تكون له دون غيره •

* * *

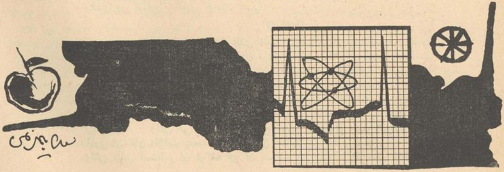
ولو تساءل المرء عن المنهج الذى اتبعه المؤلف فى ترتيب فصول الكتاب ، وهل هو منهج تاريخى يتتبع تطور المشكلة ، أم مذهبى يناقش جوانبها المختلفة ، لتملكته الحيرة ، ولكن قليلا من التفكير يكشف لنا عن تلك الصفة الفريدة فى معالجة المؤلف لموضوعه : فهو يتتبع الموضوع تاريخيا ، ولكن التطور التاريخى الذى يكشف عنه هو ذاته التطور الموضوعى للمشكلة ، والمراحل الزمنية المختلفة التى مر بها الموضوع يكشف كل منها عن وجه جديد من أوجه المشكلة ، يستوعب الأوجه السابقة ويتجاوزها • **ولعل فى هذه الطريقة فى تقديم الموضوع سمة هيجلية أخرى لست أدرى ان كان المؤلف يقصدها أم لا حين تحدث عن تأثره بهيجل فى هذا البحث ، ولكن الذى أستطيع أن أؤكده هو أن هذا الترتيب لم يكن على الاطلاق من قبيل**

« الشطحات » ، بل ان المرء لا يشعر فيه بأدنى تكلف حين تتكشف له المراحل التاريخية للبحث فى المصادفة بوصفها جوانب متباينة تنتمى الى صميم المشكلة ذاتها.

وهكذا ينتقل بنا الكتاب من عرض للموقف البدائى ، الذى لم يكن للمصادفة فيه مجال ، اذ لم يكن الكون اصلا قابلا لأن يعرف ـ وهو شرط لا غناء عنه من أجل ظهور فكرة المصادفة ـ الى مناقشة تفصيلية لتطور مفهوم المصادفة عند الطفل . ويتتبع المؤلف نظريات اليونانيين فى المصادفة ، مع ابداء اهتمام خاص بآراء ديمقريطس ولوكريتيوس من ناحية ، وأرسطو من ناحية أخرى ، ويبين كيف فهمها أرسطو فى ضوء نظرته الغائية الى العالم ، بحيث جعل المصادفة حادثا عرضيا يبدو كما لو كان مقصودا ، أى كما لو كان يستهدف غاية انسانية معينة .

ويعالج الكتاب تطور فكرة المصادفة عند فلاسفة العصر الحديث ، مثل ديكارت وهيوم ، ويقدم فى صدد هذا الأخير فهما سليما الى أبعد حد لفكرة العلية (ص٩٥ـ٩٧) ، يرد فيه على معظم التفسيرات الشائعة لدلالة هذه الفكرة عند ذلك الفيلسوف الانجليزى الكبير . وعند لابلاس تصل النزعة الميكانيكية فى فهم العالم الى قمتها ، وتبدو المصادفة بوصفها حدا لجهلنا بالعالم ، بحيث تختفى تماما لو قدر لمعرفتنا أن تحيط بالوقائع جميعا . ثم تظهر النظريات الموضوعية فى المصادفة عند كورنو وعند بيرس ، وان لم تكن عناصرها قد اكتملت نظرا الى أنها كانت لا تزال متأثرة بالنظرة الميكانيكية الى العالم .

ويقترب الكتاب من هدفه حين يعالج المصادفة بوصفها تعبيرا عن الاحتمال الرياضى ، فيقدم صفحات عميقة يعرض بها النظريات المختلفة فى طبيعة الاحتمال ، وبعد مناقشة تفصيلية لهذه النظريات ، يؤكد أن الموضوعية الكاملة للمصادفة لا تكتمل فى حساب الاحتمالات ، الذى هو على أية حال رياضة ذهنية أولا وأخيرا ، ومن ثم ينتقل الى الجزء الاخير ، والحاسم ، من بحثه ، أى الى الفيزياء المعاصرة ، حيث تتحقق المصادفة موضوعيا : فعلى حين أن الفيزياء التقليدية كانت ذات طابع ارتدادى (قابل للانعكاس) ، نتيجة لاتباعها المنهج الميكانيكى ، فان الفيزياء المعاصرة تخلت عن هذا الطابع الارتدادى ، وأكدت مبدأ عدم التعين ، وكشفت عن استحالة تحديد سرعة أى جزىء وموضعه فى آن واحد ، بحيث يكون الجزىء الفردى غير قابل للتحديد ، وان كان هذا التحديد ممكنا على مستوى المجموعات الكبيرة من الجزيئات ، وبالاستعانة بحساب الاحتمالات . وبذلك تدخل المصادفة بوصفها عنصرا أساسيا فى الفيزياء الحديثة ، لا نتيجة لقصور الأساليب التى نستخدمها فى قياس الظواهر، أو لعجزنا عن فهم هذه الظواهر والاحاطة بها على نحو شامل ، **بل لأن الواقع الموضوعى**



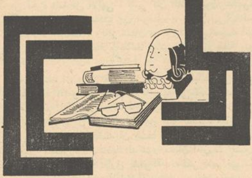
نفسه ، فى مجال الفيزياء ، يتسم بعدم قابلية التحدد على المستوى الفردى ، وبعدم قابلية الارتداد ، وبالجدلية (التى وجد المؤلف نفسه مضطرا الى أن يطلق عليها اسم « التكميلية » ، وذلك لظروف خاصة بطبيعة المرحلة التى كتب فيها بحثه » •

وهكذا تتم آخر مراحل تلك الرحلة الطويلة ، التى بدأت فيها المصادفة معنى ذاتيا يعبر عن نتائج الحوادث بالنسبة الينا ، أى عن شعورنا بالدهشة أو الجهل ازاء حوادث تخرج عن النمط الضرورى او المألوف ، وانتهى بها المطاف مفهوما موضوعيا يعبر عن تداخل الظواهر الطبيعية وتعقدها واعتمادها المتبادل • ومع ذلك فان هذا الفهم الموضوعى لم يستقر نهائيا فى أذهان المفكرين ، اذ أن المؤلف يسلم بأن المعنى الذاتى لا يزال هو الغالب عند المعاصرين (ص ١٨٩ – ١٩١) ، ومن هنا كان وصوله الى المعنى الموضوعى تعبيرا عن تفسير خاص لاتجاهات العلم الحديث ، وعن موقف معين يؤيده المؤلف بكل قوة ، ولكنه ليس انعكاسا لحقيقة مقررة معترف بها من الجميع •

***

ومنذ الصفحات الأولى للكتاب يبدو واضحا أن المؤلف ينحاز بحماسة شديدة للتفسير الموضوعى للمصادفة ، ويسعى بنفس الحماسة الى تفنيد تفسيرها الذاتى • ويكاد هذا الانحياز يتخذ فى بعض الاحيان طابع « الفكرة المسبقة » التى تؤدى به الى اتخاذ الموضوعية مقياسا يحدد على أساسه ما يوافق عليه وما لا يوافق عليه من النظريات • ومن الواضح أن هناك عنصرا أيديولوجيا يتحكم فى ايثار الرأى الموضوعى على الرأى الذاتى فى المصادفة : اذ أن فكرة الموضوعية ، والتفسير الموضوعى للظواهر، جزءلا يتجزأ من الأيديولوجية العقلانية التقدمية •

على أننا نود ، بادىء ذى بدء ، أن نشير الى حقيقة بسيطة ، وأساسية ، فى هذا الصدد ، هى أن الموقف العقلانى التقدمى لا يحتم بالضرورة الأخذ بالتفسير الموضوعى بالنسبة الى « كل » الظواهر • فهناك ظواهر معينة يكون اتخاذ الموقف الذاتى ازاءها هو علامة التقدمية • مثال ذلك أن أفلاطون ، فى العالم القديم ، قد جعل للخير وجودا موضوعيا ، وسارت معظم المذاهب اللاهوتيــة فى طريقه • وكانت فكرة الوجود الموضوعى للخير – أعنى اتجاه حوادث الكون بأسرها نحو تحقيق الخير – مظهرا من مظاهر سيادة الغائية على المستوى الكونى ذاته • وكان من الطبيعى ، والحال كذلك ، أن يكون الفكر العقلانى التقدمى أميل الى القول بأن الخير قيمة ذاتية ، والى انكار أى وجود موضوعى لهذه القيمة ، يتحكم فى مجرى الحوادث الكونية ذاتها • وبالفعل



كان من أهم المعارك التى خاضها العلم الحديث فى بداية عهده ، تلك المعركة التى أكد فيها أن أحداث الطبيعه تخضع لقوانين منتظمه محايدة ، لا لغايات أو قيم من نوع بشرى . وهكذا فان النظرة العلميه ، العقلانيه ، تقتضى فى بعض الأحيان الاخد بالتفسير الذاتى بالنسبة الى مفاهيم معينة ، أى أن القول بالموضوعيه ليس فى كل الأحوال شرطا لا غناء عنه لاثبات علمية التفكير وتقدميته . وكل ما اود أن أنبه اليه ، فى الاونة الراهنة ، هو أنه كان من الواجب البدء ببحث المصـــادفة بتلك الروح المتفتحه التى لا تفترض مقدما أن الظاهرة موضوع البحث يجب أن تفسر على أنهـا ظاهرة لها وجود فى العـالم الموضـــوعى لكى يكون البحث علميا وعقلانيا بالمعنى الصحيح . **ومن هنا فان الافتراض المسبق ، الكامن من وراء هذا البحث من أوله الى آخره ، والذى يقاس فيه ماهو مقبول من نظريات المصـــادفة وما هو غير مقبول على أساس مدى اقترابه او ابتعاده عن القول بموضوعيتها ــ هذا الافتراض يمكن الاعتراض عليه من حيث المبدأ .**

ولعل من القرائن التى تؤيد وجهة النظر هذه أن البحث يدرج فى صف القائلين بموضوعيه المصادفه فلاسفه يتصف موقفهم الفلسفى العـام بأنه اقرب الى الذاتية . فالفيلسوف الامريكى « **بيرس** » يدرج ضمن أصحاب الرأى الموضوعى ، لانه ينظر الى الرأى القائل بأن المصادفة ترجع الى جهلنا (وهو الرأى الذاتى) على انه أضعف الآراء ، ويرد المصادفة الى ما تتسم به الطبيعه من تنوع وتعقد شديدين ، مما يجعل الطبيعة غير قابلة لان تخضع بصفة مطلقة للصياغة المحددة الدقيقة التى تضعها للقوانين العلمية . ومذا الرأى على أنه « توجد .. مصـــادفة حقيقية فى الواقع الخارجى عند بيرس » (ص ١٦٢) . ومع ذلك فنحن نعلم أن بيرس هو أبو البرجماتيه الأمريكيه ، وهى مذهب فلسفى يعد موقفه العام ــ بمقاييس الايديولوجية العقلانية ــ ذاتيا ، اذ ينكر أن يكون للحقيقه معنى موضوعى خارج عن نطاق سعى الانسان الى النجاح العملى . وهكذا يمكن الجمع بين التفسير الموضوعى للمصادفة وبين موقف فلسفى عام يتسم بالذاتية .

ومن جهة أخرى فان المذهب الميكانيكى التقليدى ، الذى ساد الفكر والعلم الحديث فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ايام ديكارت وجاليليو ونيوتن ، يصدر عليه فى الكتاب حكم فيه شىء من الجور : اذ يتم التقريب بينه وبين التفكير اللاهوتى ، لمجرد أن كلا منهما ليس فيه مكان للمصادفة ، ومع ذلك ففى رأيى أن المذهب الميكانيكى ، برغم تأكيده ذاتيه المصادفة ، (وربما بسبب تأكيده هذا) ، كان فى اتجاهه العـــام خطوة عظيمة الأهمية فى طريق بناء العلم الموضوعى . ومن الظلم ، فى اعتقادى ، أن يتهم بأن تفكيره مشابه للتفكير اللاهوتى ، على أساس أن قوانين الميكانيكا عنده لا تترك صغيرة ولا كبيرة الا وتفسرها ، مثلما ان القدرة الالهية الشاملة لا تترك بدورها مجالا لأى غموض أو مصادفة فى الكون . **ذلك لان بين الحالتين فارقا هائلا ، يتمثل فى أن المذهب الميكانيكى قد ظهر أصلا بوصفه وسيلة لتاكيد المسار الآلى للحوادث الطبيعية ، وللحد من فكرة التدخل الالهى ، التى كان اللاهوتيون يقحمونها قسرا فى مجال العلم .** صحيح أن هناك تشابها شكليا بين الموقفين ، يتمثل فى أن العالم يسير فى كلتا الحالتين بدقة وانتظام لا يتخلف ، ولكن شتان ما بين انتظام تحكمه آلية دقيقة لا تقتضى الا أقل تدخل خارجى ، وآخر يستلزم تدخلا مباشرا فى كل لحظة ، وينهار فيه كل شىء بدون هذا التدخل .

لذلك أعتقد أن هناك قدرا غير قليل من المبالغة فى حكم مثل : « ان علماء القرن السابع عشر قد أقاموا فيزياءهم الميكانيكية على أسس دينية خالصة دون أن يتعارض ذلك مع مذهبهم الميكانيكى ، فديكارت يجعل الله العلة الأولى للحركة التى هى أساس الميكانيكا ، بل يرى أن قوانين الظواهر انما تستمد مباشرة من كمال الله وثباته . » (ص ١٠١) . وانى لأعتقـد أن هـذا التفسـير لموقف ديكارت هو ــ اذا جاز لى أن أستعير تعبيرا مشهورا لأستاذنا الدكتور عثمان أمين ــ تفسير « **برانى** » . صحيح أن الله عند ديكارت هو العلة الأولى للحركة ، ولكن المهم فى مذهبه هو أن مسار الكون يصبح ، بعد الدفعة الأولى ، آليا لا يحتاج الى تدخل . ومن ناحية فان استمداد قوانين



ديكارت

الظواهر من ثبات الله كان وسيلة بارعة لقطع الطريق على اللاهوتيين الذين لا يؤمنون بثبات القوانين الطبيعيـة ، ويريدونها متغيرة على الدوام تبعا للمشيـئة الالهيـة ٠

أى أن ديكارت حين يؤكد ـ فى عصر كانت فيه المفاهيم اللاهوتية لا تزال هى السائدة ، وكانت عقلية العصور الوسطى لا تزال لها سطوتها ـ أن الله ثابت ، ومن ثم فان القوانين التي يضعها للطبيعة ثابتة ، فانه يكون بذلك قد سدد ، من الوجهـة الموضوعية ، ضربة قاصمة الى اللاهوتيين ، وان كان يبدو « شكليا » أنه متفق معهم ٠

لقد كان ديكارت ونيوتن يتحدثان حقا عن الله من حيث هو أساس لثبات القوانين، أو علة أولى للحركة ، ولكن السؤال الحاسم هو : عن أى اله كانا يتحدثان ؟ ان ما كان فى ذهنهما هو **اله هندسى** يضمن للعالم الآلى الانتظام فى مساره، ويحفظ لقوانين الطبيعة ثباتها ، فى مقابل اله اللاهوتيين الذى يتدخل عشوائيا فى مسار العالم كلما أراد اثبات قدرته ٠ ومن هنا كان المذهب الميكانيكى فى حقيقته خطوة كبرى فى طريق تقدم العلم ومحاربة الغائية اللاهوتية ، وكان الدليل العملى القاطع على ذلك هو أن اللاهوتيين حاربوا المذهب الجديد بكل قواهم ، فبثوا الخوف فى نفس ديكارت، واضطهدهم جاليليو، وأعلنوا حربا مقدسة على اسبينوزا ـ كل ذلك على الرغم من تلك « **الأسس الدينية** » التى يقال ان هؤلاء الفلاسفة والعلماء قد بنوا عليها نظرتهم الى العالم ٠

هذا ، اذن ، مثل واضح لحالة كان فيها الاتجـاه الفكرى العام موضـوعيا فى صميمه ، ولكنه اقترن بنظرة ذاتية الى المصادفة ٠ وفى اعتقادى أن هذا المثل ، الى جانب المثل الذى ضربناه من قبل للفيلسوف الأمريكى « بيرس » ، يثبت أن الدفاع عن الموضوعية ، من حيث هى موقف فكرى عام ، لا يحتم بالضرورة تأكيد موضوعيه كل منهوم نصادفه ، أو مهاجمة كل من يقول بتفسير ذاتى لهذا المفهوم ، اذ قد يكون من صميم الموضوعية فى بعض الأحيان أن نؤكد ذاتية مفاهيم معينة ٠

وعلى الرغم من أن فكرتى الموضـــوعية والذاتية هما المحور الذى تدور حوله المناقشة فى هذا الكتاب ، فانى لم أجد فيه تحديدا قاطعا للمعنى الذى استخدم به المؤلف هاتين الفكرتين ، بل يبدو أنه افترض أن معناهما مفهوم ومتفق عليه ، فتركهما بلا تحديد ٠ ومع ذلك فان من الممكن أن ينشأ قدر من اللبس نتيجة لافتقار معنى هذين اللفظين الى التحديد ٠

فلنتساءل أولا : ما المقصود بالذاتية ؟ يبدو ، فى مواضع معينة ، أن المقصود بالذاتية هو الخضوع « للهوى الشخصى » (ص ١٧٧) ٠ وعلى ذلك فان النظرية التى تتخذ وجهة النظر الذاتية تجعل المصادفة فكرة تتوقف على مشيئة كل شخص على حدة ، ومن ثم كان من الضرورى رفض هذه الطريقة فى فهم المصادفة ٠ ولكن الواقع أن الكتاب يكشف ضمنا عن معنى آخر للذاتية يختلف عن المعنى السابق كل الاختلاف ٠ **فالقائلون بأن المصادفة ترتبط بمدى جهلنا بالظواهر ، لا يقصدون فى معظم الأحيان جهل هذا الفرد أو ذاك ، وانما يقصدون الجهل المرتبط بمستوى معين للمعرفة سائد**

فى العصر كله ، أى بالمستوى العلمى فى مرحلة معينة من مراحل التاريخ • وهذا الرأى الثانى يعد ، اذا حكمنا عليه فى ضوء المعنى الفردى للذاتية ، رأيا موضوعيا ، لأنه يربط المصادفة بشىء يعلو على الهوى الشخصى أو الحكم الفردى • وبالفعل نستطيع أن نقول أن الربط بين المصادفة وبين مستوى العلم فى عصر معين هو ــ بمعنى ما ــ موقف موضوعى ، لأنه يتجاوز نطاق الفرد •

ومن ناحية أخرى فان معنى الموضوعية يحتاج بدوره الى مزيد من التحديد • ذلك لأن الموضوعى يمكن أن يكون :

(أ) ما يخضع لتحديد قانونى دقيق •

(ب) ما ينتمى الى صميم الواقع الخارجى •

وصحيح أن هناك تداخلا بين هذين المعنيين ، ولكنهما لا يتداخلان بالضرورة ، اذ أن دقة الصياغة القانونية هى التى ينصب عليها الاهتمام فى الحالة الاولى ، على حين أن معنى « الخارجية » هو محور الاهتمام فى الحالة الثانية •

وفى اعتقادى أن عدم تحديد المقصود بالذاتيه والموضوعية تحديدا دقيقا يمكن أن يؤدى بالمرء الى تغيير وجهة نظره فى الحكم على النظريات المختلفة التى يعرضها المؤلف دون ان يترتب على ذلك أى تناقض • وسأضرب فيما يلى بعض الأمثلة للاختلاف الممكن فى الحكم على النظريات بالموضوعيه أو الذاتية •

ان نظريه « **كورنو** » فى المصادفة تقدم بوصفها أنموذجا للتصور الموضوعى للمصادفة • ذلك لأن المصادفة عنده هى التقاء بين سلاسل « مستقلة » من الوقائع ، كل سلسلة منها تتسم فى داخلها بحتمية تامه ، وبذلك يختفى التعارض بين المصادفة والعلية (وهو التعارض الذى أكدته النظريات الذاتية القديمة) ، وتصبح المصادفة منتمية الى صميم بناء الحوادث ذاتها • ومن أشهر الأمثلة التى تضرب لايضاح رأى كورنو ، مثال الرجل الذى يسير فى الطريق فيسقط على رأسه حجر : اذ أن سير الرجل فى هذا الطريق تعبير عن سلسلة معينة من الوقائع ترتبط فيما بينها ارتباطا عليا ، كرغبة الرجل فى الذهاب الى عمله فى ساعة معينة ، ومروره بهذه الطريق الذى يقوده الى مكان العمل ، الخ • كما أن سقوط الحجر يعبر عن سلسلة أخرى من العلل : مثل ثقل الحجر وعدم تثبيته فى موضعه وحدوث اهتزاز يؤدى الى سقوطه ، الخ • وتحدث المصادفة عندما تلتقى السلسلتان اللتان تستقل كل منهما عن الأخرى ، أى عندما تلتقى حتميتان تنتميان الى مجالين مستقلين •

ولكن هل هذا التصور موضوعى حقا ؟ ان من الممكن القول ، بمعنى معين ، ان العنصر الذاتى يحتل أهمية كبرى فى تصور المصادفه عند كورنو • صحيح أن المصادفه لن تكون فى هذه الحاله مرتبطه بجهلنا ، ولكنها تفترض مقدما نوعا من الربط بين السلاسل لا يتم الا فى المجال الانسانى ، ولا يحدث الا من وجهة نظر معينه • **ذلك لأن الالتقاء بين السلسلتين لا يعنى شيئا ، ولا يدل على مصادفة ، الا بالنسبة الى انسان يؤدى تلاقيهما الى وقوع حادث يعنى فى حياته شيئا ، ولولا ذلك لما أطلقنا عليها اسم « المصادفة » ، بل لمرت هذه الواقعه كما تمر ألوف غيرها من الوقائع التى تتلاقى فيها سلاسل مستقلة من الحوادث دون أن يؤكد أحد أن ثمة « مصادفة » قد حدثت •** فلابد اذن من ذهن انسانى ، أولا لكى يتحقق الجمع بين السلسلتين المستقلتين ، والربط بينهما فى مركب واحد ، وثانيا من أجل وجود معنى معين لالتقاء السلسلتين ، معنى مفهوم للانسان بالذات (اصابة الشخص بجرح ، عدم ذهابه الى عمله نتيجة للاصابة ، الخ) • ومجمل القول ان مجرد تلاقى السلاسل المستقلة لا يشكل فى ذاته مصادفة الا اذا وجد ذهن يعنى هذا التلاقى بالنسبة اليه شيئا معينا • والأمر الذى يوجد موضوعيا ، حسب نظرية كورنو ، ليس هو « المصادفة » ذاتها ، وانما هو شرط حدوثها ، أى التقاء السلاسل المستقلة ، وهذا الشرط لايفهم على أنه مصادفة الا بالنسبة الى ذهننا نحن • **وهكذا يمكن أن تعد نظرية كورنو ، بمعنى معين ، تعبيرا عن الاتجاه الذاتى ، لا الموضوعى ، فى فهم المصادفة •**



هيوم

ويصدق هذا أيضـــا على رأى بيرس ، الذى يوصف بأنه موضوعى لأنه يجعل المصادفة راجعة الى التنوع والتعقد الشديد فى الطبيعة • ذلك لأن ما يوصف هنا بأنه مصادفة تنتمى الى الواقع الخارجى هو فى حقيقة الأمر تلك العلاقة التى تقام بين طرفين: أحدهما ذهن انسانى يتصور ضرورة خضوع الظواهر لقوانين حتمية مطلقة ، والآخر ظواهر الطبيعة الشديدة التعقيد ، والتى تستعصى على مثل هذه الصياغة الدقيقة فى قوانين • فالذهن الذى يطالب بان تكون الطبيعة معروفة وخاضعة تماما لقوانينه ، أو الذى كان فيما مضى يتصور الطبيعة خاضعة على هذا النحو ، هو وحده الذى يصل الى فكرة المصادفة حين يجد أن مطلبه هذا لم يتحقق لأن الطبيعة أشد تعقدا من أن تحققه• وعلى حين أن المصادفة كانت فى النظريات القديمة ترجع الى « **جهلنا** » ، وتعد لهـذا السبب ذاتية ، فانها فى هذه النظرية ترجع الى « **علمنا** » ، أى ترتد أيضا الى الذات • أما ما يوجد فى الطبيعة فهو وقائعها المعقدة ، التى تهيىء الشروط اللازمة لادراك الذهن الانسانى فكرة المصادفة •

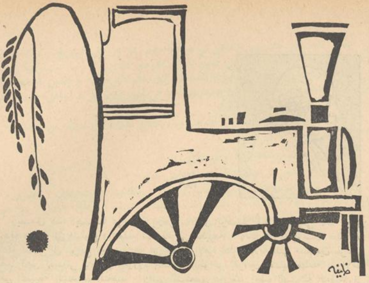
بل ان المصادفة المبنية على حساب الاحتمالات يمكن أن تعـد بدورها ذاتية : فالاحتمال يوصف بأنه علاقة بين القضايا ، وهو شىء لا تتصف به أية قضية فى ذاتها، بل تتصف به عندما ترتبط بقضايا أخرى فحسب • ومجرد كون الاحتمال علاقة بين قضايا ، يضفى عليه عنصرا ذاتيا ، لأنه يصبح عندئذ معتمدا أساسا على العقل المدرك للعلاقات •

ففى هذه الحالات كلها نستطيع أن نهتدى الى عناصر ذاتية فى صميم النظريات التى توصف بأنها موضوعية بحتة • **ومن الجائز أن هذا الافتقار الى الاستقرار كان يمكن تجنبه لو حدد معنى الذاتية والموضوعية تحديدا دقيقا يلتزم به الكتاب من بدايته الى نهايته • ولكن من الجائز أيضا أن مثل هذا التحديد الدقيق كان سيؤدى الى اثبات استحالة وجود معنى موضـــوعى خالص ، لا تشـوبه شائبة من الذاتيـة ، لفكرة المصـادفة •**

***

على أن الأمر الذى أختلف فيه مع الأستاذ العالم اختلافا أعتقد أنه أساسى ، هو تمسكه بتحديد معنى واحد للمصادفة فى جميع المجالات ، واعتقاده أن المعانى الجديدة التى يكتشفها العلم تؤدى الى استبعاد المعانى القديمة حتى من تلك المجالات التى ظهرت تلك المعانى أصلا فى اطارها •

ان المؤلف يرد المصادفة الى الواقع الموضوعى الذى يدرسه عالم الفيزياء ، ويضرب أمثلة متعددة للفهم الصحيح للمصادفة ، ذلك الفهم الذى لا تظهر فيه المصادفة « نتيجة لقصور فى المنهج أو اغفـال فى تحديد جوانب الواقع • (بل ترجع الى) ظواهر لا سبيل الى تحديد كتلها ومواضعها الأصلية تحديدا مطلقا ••• لا لعجز فى مناهجنا القياسية ، بل لطبيعتها هى المتشابكة المتغيرة المتداخلة المتطورة أبدا • « ص ٢٦٤ — ٢٦٥) • ولو سلمنا بأننا استطعنا فعلا أن نصل الى المصادفة متحققة موضوعيا فى



مجال الفيزياء الذرية ، فسيظل من حقنا أن نتساءل : **وما علاقة حركة جزيئات المادة أو موجاتها بتلك المصادفة التى نقول انها حدثت حين يسقط حجر على رأس رجل مار فى الطريق ؟** أليس من الواجب أن نقول اننا هنا ازاء نوعين من المصادفة ، أو على الأصح ازاء مجالين متباينين يكون للمصادفة معنى خاص فى كل منهما ؟ أيكون من الصواب أن نعتقد أن المعنى الجديد للمصادفة يستبعد المعنى القديم ويحل محله لأن الجديد موضوعى بينما القديم ذاتى ، أم أن الأصح هو القول بأن المعنى الجديد ينطبق على مجاله الخاص ، مجال الفيزياء الذرية مثلا ، على حين أن المعنى القديم يظل صحيحا فى مجال الحياة اليومية للانسان ، أى فى مجال « **الموقف الطبيعى** » الذى نتعامل فيه مع عالم مرئى ملموس بحواسنا المعتادة ؟

ان الأمر المؤكد فى نظرى هو أن فهم طبيعة المصادفة على المستوى الذرى لن يحل مشكلة المصادفة على مستوى الحياة اليوميه · ولا يمكن أن يعد الفهم الأول هو « الفهم الصحيح » الذى يحل محل جميع المعانى التقليدية · وليست العلاقة بين هذه المعانى المختلفة للمصادفة علاقة استبعاد متبادل ، كما جاء فى الكتاب ، وانما هى علاقة كشف متدرج لمجالات جديدة يسرى على كل منها معنى خاص للمصادفة ، بحيث ينبغى أن تظل المعانى القديمة صحيحة فى مجالاتها الخاصة ·

ان المؤلف ينقد فى مواضع كثيرة التصور الميكانيكى التقليدى عند نيوتن ، وهو التصور الذى استبعد المصادفة دفاعا عن العلية والحتمية ، ويريد أن يستعيض عن هذا التصور بفهم جديد آخر يجعل للمصادفة وجودا فى الموضوعات والوقائع ذاتها ، يتمثل فى خروج هذه الوقائع عن الطابع الفردى ، الارتدادى الآلى · **ولكن الامر الذى أود أن أؤكده هو أن المقارنة بين التصورين غير جائزة ، وأن المسألة ليست مسألة نقد الأول لحساب الثانى · ذلك لان التصور الأول ، الذى لم يكن للمصادفة فيه وجود فى الواقع الموضوعى ذاته ، كان متفقا تماما مع المجال الذى ينطبق عليه ، اذ لم تكن قد اكتشفت فى ذلك الحين ظواهر فيزياء الكم ، ولم يكن أحد قد عرف سلوك الجزيئات غير القابل للتنبؤ · وعندما تحقق هذا الاكتشاف كان كل ما أدى اليه هو أنه أضاف بعدا جديدا الى العلم ، ولكن لا يصح القول انه قد حل محل المفاهيم الميكانيكية التى تصدق على العالم بأبعاده الكبيرة ، والأقل من ذلك صحة أن نتصور أن مفاهيمه تحل محل المفاهيم التى نستخدمها على مستوى الحياة اليومية المعتادة ·**

فالكتاب اذن كان فى حاجة الى أن يصور العلاقة بين المفاهيم المتعددة للمصادفة ، التى عرضها بدقة وعمق يستحقان الاعجاب ، على أنها علاقة بين مفاهيم يسرى كل منها على مجال خاص ، لا على أنها علاقة استبعاد تفضى فى نهاية الأمر الى الاعتراف بالصحة

الشاملة لمفهوم واحد فقط ، هو المفهوم العلمى على مستوى الفيزياء الذرية ، الذى يصور وكأنه يغنينا عن كل ما عداه من المفاهيم ·

بل ان المفهوم العلمى الأخير ذاته ربما لم يكن فيه مجال للمصادفة ، وربما كان استخدام لفظ « المصادفة » فى هذا المجال ادخالا لمعنى انسانى ، تشبيهى ، على العالم الذرى أو دون الذرى · وربما كان أقصى ما يمكننا أن نقوله عن هذا العالم هو أن الظواهر فيه لا تقبل التحديد الكمى بالمعنى الميكانيكى التقليدى ، وأنها تحتاج الى نوع آخر من التحديد · فمن الحقائق الموضوعية أن هناك ظواهر تنتمى الى التركيب الداخلى للمادة ، لا تعالج الا على أساس احصائى يتناول مجموعاتها الكبيرة ، ويعجز عن تحديد حالة أى فرد بعينه داخل هذه المجموعات · هذا صحيح ، ولكن أين المصادفة فيه ؟ ولماذا نطلق اسم المصادفة على ظاهرة كهذه ؟ **ان مجرد اطلاقنا هذا الاسم يدل على أن هناك مقارنة ضمنية يقوم بها الذهن بين النظرية الجديدة وبين النظرية الميكانيكية القديمة ، وعلى أساس هذه المقارنة استخدم مفهوم المصادفة · ومثل هذه المقارنة تفترض عنصرا ذاتيا ، تاريخيا ، لولاه لما جاز استخدام لفظ المصادفة فى هذا المجال ·**

والحق أننا لو افترضنا جدلا أن العقل الانسانى كان قد توصل منذ بداية أمره الى النظرية الاحصائية فى تفسير الحوادث الفيزيائية ، ولو لم يكن قد مر قبل ذلك بالمرحلة الميكانيكية فى التفسير ، لما أدخل فكرة المصادفة فى هذا المجال أصلا ، ولاعتاد النظر الى الأمور من خلال هذا النوع الخاص ــ الاحصائى ــ من الحتمية منذ بداية الأمر · وبالمثل لو كان مجال الفيزياء الذرية هو المجال الوحيد الذى يتعامل معه الذهن الانسانى ، لما كان لفكرة المصادفة معنى فى وصف حركة الجزيئات · ولكن الواقع أننا نجرى هنا مقارنة ضمنية مع طريقة التفكير التى اعتدناها بحكم معايشتنا فترة طويلة للتفسير الميكانيكى للظواهر (وهو التفسير الذى لا يزال ساريا على المستوى الأكبر من الذرى) ، ومن خلال هذه المقارنة يكون للفظ « المصادفة » معنى فى وصفنا لسلوك الجزيئات ·

ان عالم الفيزياء الذرية هو حقا عالم المجموعات الكبيرة التى يستحيل التنبؤ بسلوك أى فرد منها على حدة ، ولا يصح التنبؤ بسلوكها الا بطريقة احصائية · ولكننا لا نتعامل فى حياتنا المعتادة ، وفى كثير من المجالات الأخرى للعلم ، مع مجموعات كبيرة ، بل مع أفراد أيضا · والحق أن عالم الأفراد يعنى بالنسبة الينا الكثير ، ويقوم فى حياتنا اليومية بدور لا نستطيع تجاهله · وفى مثل هذا العالم يتعين علينا أن نفهم المصادفة فهما فرديا ، يسرى عليه كل ما يسرى على مفاهيمها التقليدية · وبالاختصار ، فان المعالجة الشاملة لفكرة المصادفة تتطلب ادراك الطبيعة الخاصة لكل مجال من المجالات التى ينطبق عليها هذا المفهوم ، وتحتم علينا ألا نكتفى بمفهوم واحد ، مستمد من أحد هذه المجالات ، ونستبعد لحسابه كل المفاهيم الأخرى ·

* * *

تلك بعض الأفكار التى أثارتها فى ذهنى قراءة كتاب « فلسفة المصادفة » للأستاذ **محمود أمين العالم** ، واذا كنت قد اختلفت مع الأستاذ العالم فى مسائل معينة ، فان الاختلاف فى الرأى جزء لايتجزأ من طبيعة التفكير الفلسفى · ولكن اذا كان لى رأيى الخاص فى بعض التفاصيل ، فانى أشهد بأن كتابه من أعمق الكتب الفلسفية التى أخرجتها المكتبات العربية فى السنوات الأخيرة · واذا تذكرنا أن الكتاب هو رسالة الماجستير التى أعدها الأستاذ العالم عام ١٩٥٣ ، لازداد اعجابنا بالنضوج الفكرى المبكر الذى يشهد عليه هذا العمل الكبير ، وحسبى أن أكون فى هذا المقال قد كشفت عن وجه لمحمود العالم ــ وجه المفكر الفيلسوف ــ ربما نسيه القارىء الذى اعتاد أن يطالع وجه محمود العالم السياسى والادارى · وأنا واحد من أولئك الذين لو طلب اليهم أن يختاروا لمحمود العالم واحد من هذين الوجهين ، لما ترددوا لحظة واحدة فى أن يختاروا له الوجه الأول ·

سيكولوجية الإبداع ... والتذوق الفنى

د. فـؤاد البـهى

١ ـ الفن والنفس والحياة :

الانسـان يتذوق الفن لأن الحياة نفسـها عمل فنى • والفن تعبير عن النفس • وللفن أصـوله وطرائقه • وللنفس مجالاتها وأبعادها •

ينبثق الفن عن النفس ابداعا وابتكارا، ويعود اليها تذوقا وامتاعا •

وقد يكون الفن تعبيرا شـعوريا عن خوالج شـعورية • ويقترب بهذا التعبير من حياة البشر فى الثقافات التى تمتزج فيها المعاناة اللاشعورية بالوعى الشعورى • وتصبح الحياة نفسها مزيجا غريبا من واقع وتأمل، كثقافتنا العربية فى واقعها اليومى وسبحاتها العلوية •

هنا يقف الفنان على أبواب الشخصية الانسانية بكل ما تعتلج به من صراعات وسموق وتبتلات •

والفنان الذى يعبر عن مشاعره بأدائه ، يعبر عن الحياة التى تصطخب من حوله وعن استجاباته لهذه المثيرات التى تطالع نفسه فى كل لفتة ولمحة وخاطرة •

وعندما نتخذ من الفن مداخل لدراسة النفس وفهم أغوارها ومسـالكها نستشرف بعلم النفس على آفاق جديدة خصبة وفيرة للبحث والتجريب •

والمحاولات التى بذلت فى هذا المجال ما زالت واهية لا تقترب من الميـدان الحقيقى لعلم النفس الا بحيطة وحذر • فأنشأت الباحثة النفسية جود انف مقياسا لذكاء الأطفال على أساس ما أسمته رسم الرجل ويصلح اختبار بقع الحبر لرورشاخ لقياس بعض السمات المزاجية للفنانين • ويرتبط الابداع الفنى بسيكولوجية الابتكار • وأيا كانت نتائج هـذه المحاولات التمهيـدية فالمجال ما زال جديدا •

وتستهدف هذه الدراسة معالجة الجوانب العلمية التجريبية لهذا الميدان حتى ينشط البحث فى هذا المجال •

٢ ـ المكونات السيكولوجية للابتكار :

تؤكد نتـائج الأبحاث السـيكولوجية اعتماد الابتكار على ثلاثة عوامل رئيسـيـة هى الطلاقـة والمرونة والأصالة •

وتدل الطلاقة على الخصـوبة ، ومن أمثلة الخصوبة اللفظية وفرة المحصول اللغوى كما يقاس عن طريق اختبار التداعى كأن يطلب الى الفرد أن يذكر كل الـكلمات التى ترد الى ذهنه عنـد سماعة لكلمة ما مثل بحيرة • ويختلف الناس فى عدد الكلمات التى يستطيعون قولها أو كتابتها فى زمن محدد تبعا لاختـلاف قدرتهم على الطلاقة اللفظية •

وتدل المرونة على التغير ومدى تقبل الصـور الجديدة ومدى التحرر من ربقة الصور القديمة وتقاس هذه القدرة عن طريق الصـور المزدوجة التى يرى فيها الفرد شيئا ما ثم ما يلبث أن يرى أن يرى نقيض ذلك الشىء فى نفس تلك الصورة• ويختلف الأفراد فيما بينهم اختلافات بينة فى سرعة الانتقال من رؤية الصورة الأولى الى رؤية الصورة الثانية •

وتدل الأصـالة على ادراك الأشياء فى صـورة غير مألوفة أو العلاقات النادرة ، وتقاس عن طريق ذكر استخدامات غريبة لأشياء مألوفة •

٣ ـ مراحل الابتكار :

قد يبدو للانسان أن الابتكار يحدث فجاة ، فى لحظة الهام لا يسبقها شىء ولا يتلوها شىء . والحقيقة ان هذه اللحظة التى تسميها لحظة الاشراق هى مرحلة فى مسار تسبقها مرحلتان وتعقبها مرحلة .

ويتطور الابتكار فى مراحل معلومة تبدأ أولاها بالتهيؤ ، وهى المرحلة التى يتعرض فيها الفرد للمثيرات التى تحفز فى نفسه الرغبة فى شىء ما ، وقد تكون نفس هذه الرغبة عامة غامضة لكنها بالرغم من عموميتها وغموضها تشيع فى حياته شعورا يختلف عن المشاعر الاخرى التى تحدد أحداث يومه حياته العادية .

ويؤدى التهيؤ الى مرحلة الحضانة حيث تنتشر الفكرة فى هدوء وتجد لنفسها ارتباطات مختلفة بافكار أخرى .

ثم تنمو وتتشعب حتى تصل الىمرحلة الاشراق فتمتلىء بها كل حياة الفرد حتى وكأنه يصيح مع فيثاغورس « وجدتها .. وجدتها .. » عندما اهتدى وهو يستحم على مشكلته التى كانت تملأ عليه جوانب نفسه .

وينشط الفرد بعد ذلك ليعبر بأدواته الفنية عن هذه اللحظة التى عاشها .. لحظة الاشراق .. وقد يكون التعبير لحنا موسيقيا ، أو لمسة جريئة فى لوحة فنية أو تصورا جديدا لموقف مسرحى . وبذلك يحقق لنفسه ولغيره ما رأى وما سمع ، وما أحس وما شعر .

هذا وقد تنتهى المراحل مبتورة عند الاشراق ، وتختفى الفكرة بين طيات الزمن ، وكما بدأت تعود .

ويصف هوايتهد هذه المعاناة الضائعة فى صيحته الغريبة ، وهو يلاحق فكرة تمعن فىالفرار منه « انها هنا .. انها هناك .. انها لم تعد هنا ولا هناك » .

مراحل الابتكار اذن أربع ، تتوالى من التهيؤ للحضانة للاشراق ثم تنتهى الى التعبير .

٤ ـ هل يمكن قياس التذوق الفنى :

هل يخضع التذوق الفنى للقياس النفسى ؟

هل نظرتى للجمال نظرة موضوعية أم لمحة ذاتية ؟

القضية الأولى فى قياس التذوق الفنى هى الموضوعية والذاتية .

والموضوعيةصفة للموضوع ، أىللشىء الخارجى فهل تطلق أحيانا ويراد بها الشىء الحقيقى أو المادى .

والذاتية صفة الذات أى فى الفرد ، فهى تطلق أحيانا ويراد بها النظرة الشخصية الخاصة .

الحقيقة انى أشترك معغيرى فى شعورى بالجمال فنتفق على لحن نستمتع به ، وقد نردده بين الحين والآخر ، وعلى لوحة فنية نعجب بها فنكثر من الحديث عنها .

هذا التذوق المشترك هو خطوة نحو الموضوعية لأنه تخفف من الخصوصية وحركة نحو العمومية . فهو اذن اتجاه صوب الموضوعية .

٥ ـ المحاولات القديمة لقياس التذوق الفنى :

كان هدف المحاولات القديمة فىقياسها للتذوق الفنى هوالكشف عنالنسب والعلاقاتوالتكوينات التى تثير فى النفس الاحساس بالجمال .

وقد حاول فيثاغورث أن يقيم علاقة بين طول الوتر وجمال الصوت ولاشك أن هذه العلاقة علاقة مركبة تبدأ بالطول والذبذبة وهذه ظاهرة تخضع مباشرة للقياس الكمى ، ويتطور هذا التحليل الى الكشف عن العلاقة بين نوع الذبذبة وتذوق الفرد لها وينتهى الى حساب علاقة الطول بالتذوق . وبذلك يختلط القياس الكمىبالترتيب النوعى لمستويات التذوق . والقياس النفسى الحديث لمثلهذا التذوق هو قياس مفاضلةوترتيب ..وذلك هو أصلح المقاييس للنواحى المعنوية حتى أن الصوفيين أنفسهم يقسمون الطريق الى مراحل وأهل الطريق الى طبقات . وتقرأ لابن قيم الجوزية مدارج السالكين فتقرأ عن تقسيم وقياس نوعى . وتقرأ للشعرانى الطبقات الكبرى فتدرك مفهوم المراتب والقياس .

وأساس التذوق البصرى للجمال عند افلاطون مثلث قائم نصل اليه باسقاط عمود من رأس المثلث المتساوى الأضلاع على قاعدته فينصف تلك القاعدة ويقسم المثلث الكبير الى مثلثين متكافئين كل منهما قائم الزاوية . بذلك يصبح المثلث القائم الذى يمثل نصف المثلث المتساوى الاضلاع هو أساس الجمال البصرى عند أفلاطون .ويتصف مثل هذا المثلث بالخصوبة لانك تستطيع أن تصنع منه أشياء مختلفة متعددة مثل المستطيل ومتوازى الأضلاع والسداسى المنتظم . ويتصف أيضا بالمرونة لأنه يغير موقعه فى كل مرة يتخذ لنفسه

أشكالا جديدة · والفكرة فى حد ذاتها أصيلة لأن فيها جدة · وهكذا يتحقق الابتكار فى مثل افلاطون عن طريق الطلاقة ، والمرونة ، والاصالة ·

٦ ـ طرق قياس التذوق الفنى :

هناك طرق مختلفة للقياس النفسى تصلح لمعالجة الظواهر الفنية بطريقة كمية وتعتمد مداخلها جميعا على قدرة الفرد على أن يرتب مجموعة من الاعمال الفنية ترتيبا تنازليا بالنسبة لمستويات تذوقه الفنى ، من الأجمل الى الاقبح ·

ونستطيع أن نعد مجموعة من الأعمال الفنية التى تتناول موضوعا واحدا فنرتبها ونستنتج من ذلك الترتيب النسبى لتذوق الناس لأعمال الفنانين المختلفة ، فنحكم بذلك على الفنانين أنفسهم كمثل لوحات المناظر الطبيعية لسيزان ولغيره من الفنانين الذين عالجوا نفس الموضوع ·

ونستطيع أن نرتب مجموعة من الأعمال المختلفة لفنان واحد فنحكم على الموضوع ذاته ·

ونستطيع أن نجمع بين الفنانين وانتاجهم فى لوحات مختلفة لنصل من ذلك كله الى أحكام ومقاييس عن الفنانين ، والانتاج ، والتذوق ·

وبنفس الاسلوب نستطيع أن نحلل المثيرات الأساسية للشعور بالجمال فنطلب الى الأفراد ترتيب مجموعة من الخطوط المستقيمة أو المحنية أو مجموعة من المساحات المتساوية فى أبعادها أو المختلفة فى امتداداتها أو مجموعة من الألوان ،وعندما نحصل على متوسط ترتيب الأفراد لهذه الأشياء من الأجمل الى الأقبح نستطيع أن نقرر تجريبيا نوع المثيرات الجمالية ، بل ونستطيع أن نستطرد الى تحليل الخصائص التى من أجلها اكتسبت تلك المثيرات صفتها الجمالية ·

وبذلك نصل فى نهاية هذه المحاولات الى مقاييس ترتيبية للعمل الفنى أو لمكونات هذا العمل الفنى·

ذلك النوع من القياس يعمق فهمنا للظاهرة الفنية ، ويهدينا السبيل الى الكشف عن المواهب الفنية الكامنة ، وطرق تدريبها ورعاية نموها ·

٧ ـ المعيار الجماعى للتذوق الفنى :

سنعتمد فى تفسيرنا للمعيار الجماعى للتذوق الفنى على ظاهرة الحركة الذاتية التى كشفت عنها تجارب مظفر شريف · وتتلخص وقائع هذه التجربة فى أن نطلب الى مجموعة من الأفراد يقفون معا فى حجرة مظلمة تماما الا من نقطة صغيرة مضيئة ـ أن يقدروا فيما بينهم مدى حركة هذه النقطة المضيئة · وسنرى أن الأفراد يتناقشون ثم يستقر بهم الأمر أخيرا الى قرار يتفقون عليه جميعا لمدى محدد مثل ٥ سم · ويخضع كل فرد بعد ذلك فى أحكامه المقبلة لهذا المعيار · والنقطة فى حقيقتها ثابتة لا تتحرك · وقد نشأت الحركة فى عقول الأفراد فى محاولاتهم لتحديد موقعهم هم أنفسهم فى مكان لا معالم فيه غير النقطة المضيئة · فحركة النقطة هى حركة ذاتية نفسية للوصول الى اطار · وهى أساس تحديد المعيار ، المعيار الجماعى الذى يخضع له الفرد بعد ذلك فى أحكامه ·

أحكامنا الفنية احكام جماعية ، حتى التى تبدأ فردية منها تهذبها الجماعة وتعلوا بها أو تنخفض حتى تصل الى مستوى الحكم الجماعى ·

مراتب الجمال جماعية ، لأنها تخضع للمحددات الثقافية التى ينشأ فيها الفرد ·

وهكذا لاقى رواد الفن الحديث صعوبة فى اقبال الناس على المفاهيم الجديدة عن الجمال المصنوع لا الجمال المنقول · الجمال الابداعى لا الجمال التصويرى ·

وعندما تصل الجماعة الى تذوق هذا الاتجاه تكون قد وصلت الى معايير جديدة تنقلها الى الفرد عبر التيارات الثقافية التى يتلقاها فى نشأته عن طريق الجماعة التى ينتمى اليها ·

٨ ـ الجوانب المكتسبة فى التذوق الفنى :

ما هى الجوانب المكتسبة فى التذوق الفنى ؟

ما هى النواحى العامة المشتركة بين البشر ؟· وما هى النواحى الطائفية التى تتميز بها جماعة عن أخرى ، ويتميز بها فرد عن فرد آخر ؟

الاحساس بالجمال صفة عامة نشترك جميعا فيها ، لكن أى جمال ؟

هناك احساس عام بالجمال العام المشترك ·· وهناك نواحى نكتسبها فى بيئتنا من ثقافتنا خلال تنشئتنا الاجتماعية · وما كشف عنه العلم فى هذا المجال قليل جد قليل ·

فالاحساس بالعمق أمر يكتسب نتعلمه خلال طفولتنا · وكل جمال مجسم يمتد لينسق بين الاحجام عملية مكتسبة · فالطفل الصغير لا يدرك البعد الثالث للامتداد المكانى بوضوح · ويتعلم

هذا الادراك كلما كبر سنه ، ولذا يخشى عليه من السقوط من الشرفات المرتفعة لانه يرى الارض قريبة وما هى بالقريبة • ولقد دلت نتائج الأبحاث التى أجريت على العميان أنهم عندما أبصروا بعد العمليات الجراحية التى أجريت لهم على كبر لم يتمكنوا بادىء ذى بدء من ادراك البعد الثالث • وبدا الكون أمامهم مسطحا لا عمق فيه ولا ارتفاع ، وانهم اكتسبوا الاحساس بالبعد الثالث بعد ممارسة وخبرة ومدة ، ولذا يجد الانسان البدائى صعوبة فى تصور المجسمات التى تدل عليها الصور والرسوم المسطحة •

ومن الحقائق العلمية المقررة الآن أن الناس عادة يفضلون الأمواج الضوئية القصيرة على الأمواج الضوئية الطويلة •• فيحبون اللون الاخضر أكثر مما يحبون اللون الأحمر ، ويفرقون بذلك فى اختيارهم بين موجة الأخضر التى تساوى ٥١٥ ميليكرون وموجة الأحمر التى تساوى ٦٥٠ ميليكرون • وتزداد هذه التفرقة تبعا لنمو الفرد من الطفولة الى الرشد ، وتزداد أيضا تبعا لنمو المستوى الحضارى من المجتمع البدائى الى المجتمع المتحضر •

٩ ـ السمات الشخصية للفنانين :

اختيارك لأسلوب معين فى الأداء الفنى ، أو ميلك الى منهج محدد من مناهج الفن قد يكشف الى حد كبير عن نمط شخصيتك •

وتلقى نتائج بعض الأبحاث النفسية الضوء على العلاقة بين نمط الشخصية ونوع التذوق الفنى • ومنها ما يدل على أن الانطوائى يميل الى الموسيقى الكلاسيكية ، موسيقى الصراع الباطنى ، والخواطر الداخلية ، والتأملات الخفية ، ومنها ما يدل على أن الانبساطى يميل الى الموسيقى الحديثة ، موسيقى الجاز ، الصيحة والصرخة ، والنقلة المفاجئة ، والحركة الصاخبة •

والأداء الفنى انعكاس للسمات المزاجية وطريق ممهد لتحليلها وفهمها ، وقد حاول أرنست جونز ان يرجع لغز هاملت فى تردده وعجزه عن العمل بما يختلج به فكره الحصب الى عقدة أوديب ، ومدى ما يصطبغ به سلوك هاملت من شخصية شكسبير نفسه •

بهذا المنهج نستطيع أن نفهم شخصية الحسن ابن هانىء من خلال شعره كما حاول ذلك العقاد فى كتابة الممتع عن أبو نواس ، ونفهم أيضا لماذا اختار بودلير زهور الألم موضوعا لشعره وهو نفسه صاحب المزاج الشاذ الذى جعله أحيانا يصبغ شعره باللون الأخضر ليثير بذلك الدهشة والاستغراب فى نفوس معارفه وأصدقائه •

أو يحلق رأسه على غير ما هو متبع فى عصره ليثير الناس من حوله •

سمات مزاجية يجب أن نتعمقها ونستقصى أثرها فى الأداء الفنى لنفهم دوافع الابداع وعوامل التذوق •

والمجال ما زال غض الاهاب يثير للبحث والدراسة آلاف القضايا والمشكلات •

ومن أهم الأبحاث التى تصدت لتحليل شخصية الفنان الدراسات التى قامت بها رو على عدد من كبار الرسامين المعاصرين فى المجتمع الأمريكى حيث أجرى عليهم اختبار بقع الحبر لرورشاخ، واختبار تفهم الموضوع، وهى اختبارات اسقاطية تستخدم لمعرفة السمات المزاجية لأنها غامضة غير محددة وغموضها يميط اللثام عما فى النفس أكثر مما يسجل استجابة الفرد للموقف الخارجى الاختبارى• وقد دلت نتائج هذه الدراسة على أن الفروق الفردية بين الفنانين كبيرة وأن لكل منهم طابعه الخاص المميز • وبذلك يصبح تباينهم أكثر من تجانسهم وان مستواهم العقلى أعلى من المستوى العادى للذكاء ، وانهم لا يميلون الى السلوك العدوانى • وان القلق منهم والحذر لا يستخدم الألوان بحرية وذكاء وابتكار • وان الذى يرى منهم فى بقع الحبر الصور المفزعة والمواقف المخيفة يهتم فى أدائه الفنى بالجزئيات أكثر مما يهتم بالكليات ، أى أنه ينفق وقتا وجهدا كبيرا فى عمله لابراز تفصيلات اللوحة أكثر مما يهتم بالشكل العام والمنظر الكلى •

١٠ ـ الفن تعبير نفسى عن نمط الحياة :

الفن الفرعونى تعبير نفسى عن عصر ، ورجال صنعوا ذلك العصر • انه تعبير عن الخلود •

فالتمثال المصرى فى ضخامته وصلابة حجره تحدى للزمن والفناء •

هو تعبير الفنان عن ثقافة عصره وقومه ، ونمط الحياة التى أرادها الفرعونى القديم لنفسه •

والفن الاسلامى تجريد • لأن مفهوم الالوهية وصل الى أعلى أنواع التنزيه فى الاسلام •

وتكرار وحدة الزخرفة العربية يؤدى بالفرد الى أن يمتد ببصره فلا يجد الا تماثلا يظل يتوالى حتى يباعد بين الفرد وبيئته ويقارب بينه وبين نفسه فيتحول الى عالمه الداخلى لتشابه عالمه الخارجى، فاذا به فى تأملاته الباطنية وفى حواره الذاتى بينه وبين نفسه ، ويكتشف جمال عالمه الداخلى •

وتلتقى اللمسة الفنية مع اللمحة الصوفية •

ويجمع بينهما الاحساس العميق بالجمال •

الجمال الخارجى والجمال الذاتى •

التطور النظرى لعلم النفس فى

من بين كثير من الفوائد التى يمنحنا إياها الاطلاع على تيارات العلم المعاصر فى البلدان المختلفة ، تبرز فائدة على قدر كبير من الأهمية وهى اتاحة الفرصة لنا لنكون صورة أكثر موضوعية ، وصحة ، واتساقا عن ميدان العلم موضوع الاهتمام ، صورة تعمق فهمنا بأساس العلم بما تمنحه لنا من بصيرة شمولية بتطوره .

ويزداد جلال هذه الفائدة اذا تعلق الأمر بالذات بالدراسة العلمية للسلوك ، وهى الدراسة التى لم تبدأ خطواتها فى سلم الارتقاء المنهجى الا منذ فترة حديثة نسبيا (مائة عام أو أقل من ذلك) .

وقد اتخذ مسار تطور علم النفس فى الاتحاد السوفيتى شكلا جديرا باهتمام المشغولين بقضايا علم النفس الحديث سواء عن طريق الثقافة الجادة أو التخصص الدقيق .. ولا شك ان الالمام بهذا المسار سيزيد أبعاد الصورة وضوحا .

فمن ناحية نجد ان تطور علم النفس السوفيتى منذ سنة ١٩١٧ ، مع ما فى تطوره من فجوات لا تخلو صورته من عناصر الاستمرار وعناصر الاتساق . ومن الطريف حقا أن نلاحظ كيف تطور علم النفس هناك عبر السنين . ففى أول العشرينيات كان المطلوب ان يكون علم النفس ماديا واضيف فى أوائل الثلاثينيات أن يكون: ماديا دياليكتيكيا ، ومنذ سنة ١٩٥٠ أضيف عنصر جديد وهو الفسيولوجيا البافلوفية ، وبعد هذا التاريخ نلاحظ أن الجدل المثار عن طبيعة الحوادث النفسية لايدع مجالا للشك فى ان كل المحاولات ـ من أجل الصياغة النظرية العامة ـ كانت تهدف الى التاليف بين البافلوفية والفلسفة الماركسية اللينينية ، أى للوصول الى الحل الأساسى لمشكلة العلاقة بين الوعى ونشاط الجهاز العصبى المركزى ، وهى مرحلة توازن حقيقية بين الأفكار النظرية والمعطيات التجريبية .

ومن ناحية أخرى نجد أن التراث العلمى فى الاتحاد السوفيتى يكاد أن يكون شبه مجهول للقارىء العربى . فلا يوجد ـ فى حدود علمنا ـ أى كتابات جادة بالعربية تعرفنا بهذا التراث . فيما عدا ما كتبه الأستاذ الدكتور مصطفى سويف مقارنا بين الموضوعات الأساسية فى علم النفس الحديث كما فرضت على اهتمام عدد من

الاتحاد السوفيتي

عبد الستار ابراهيم

علماء السلوك فى مناطق مختلفة من العالم من بينها الاتحاد السوفيتى . وحتى ما كتب عن هذا الموضوع باللغة الانجليزية قليل . فلا نكاد نعثر الا على كتابين أساسيين هما كتابى « جوزيف فورتيس » J. Wortis ، و«ريموند بوير R. Bauer . هذا عدا بضعة كتابات مترجمة الى الانجليزية عن اللغة الروسية من بينها عدد من البحوث والمقالات ككتاب«البحث السيكلوجى فى الاتحاد السوفيتى » . وأذكر أيضا كتابا عن علم النفس العام الفه «بلاتونوف» K. Platonov باسم « علم النفس كما قد تهواه » وكلا الكتابين الأخيرين صدر عن دار التقدم بموسكو فى سنوات حديثة .

هذا فيما يتعلق بعلم النفس عموما . أما فيما يتعلق بالأساس النظرى لعلم النفس فان الكتابات عنه نادرة حقا . ويختلط الحديث فيها بين أصوات تلم بأصول العلم ، وبطبيعته المنهجية ــ وهى قليلة ــ وأصوات تنبع من التعصب الضيق ، والفهم الخاطىء بأساسيات العلم .

لهذا فان الحديث عن الأسس ، والمراحل التى مر بها تطور الصياغة النظرية لعلم النفس لا يخلو أيضا من الفائدة . ولعل الجهل به هو المسئول الأول عن تلك اللهجة من الجدل التى تسود الأوساط الثقافية عندنا ، والشبيهة كثيرا بمرحلة الجدل النظرى التأملى التى كانت تسود علم النفس فى الدول الانجلو ــ أمريكية فيما قبل الحرب العالمية الأولى .

وليس من قبيل اللغو فى شيء اذا قلنا بأن فهم عوامل تطور علم النفس فى الاتحاد السوفيتى بالذات غير ممكن دون الالمام بالأسس النظرية العامة القائمة وراء تطوره . ذلك لأن عالم النفس فى الاتحاد السوفيتى ــ فيما يذهب « جورج رزران » G. Rozran أستاذ علم النفس الأمريكى ــ يختلف عن زملائه فى البلدان الانجلو أمريكية ــ **« فهو ليس مجرد مجرب معملى ، او مجرد مكتشف ، أو مؤيد لاكتشاف عائد من الوقائع وجدها غيره ، أو يمكن أن يجدها غيره فى مكان آخر . لكنه بالاضافة الى هذا عامل يعمل بميدان البحث العلمى ومطلوب منه ان يساهم فى تعميق البناء الاشتراكى ، وأن يمتد به ، ولديه المبادىء الأولى التى يبدأ منها ولديه الموضوعات التى من المطلوب أن يتجه اليها فى بحثه ، وما**

يترتب على هذا من اختيار للفروض ، وللوقائع ، واستنتاج النتائج » .

ان الأسس النظرية وراء تطور العلم لا تسير دائما فى اتساق محدد . ومع ذلك فان هناك وحدة فى فى تطور العلم ..

فما هى اذن الأسس النظرية العامة وراء تطور علم النفس السوفيتى ؟ . اى ما هو دور الأسس النظرية العامة فى اكساب صورة علم النفس هذا النوع من التنوع فى داخل وحدته العامة تلك ، كما يعرفها علماء النفس فى كل بلدان العالم ؟ .

للاجابة عن هذا السؤال ، ولكل الاعتبارات السابقة كان اختيارنا لموضوع الأسس النظرية العامة لعلم النفس فى الاتحاد السوفيتى كما كتبها « باين » T.R. Payne لنعرضها للقارىء المهتم بالالمام بأحد أبعاد الفكر المعاصر ، متناولين اياها بالشرح والتحليل .

وعموما نجد أن تطور علم النفس فى الاتحاد السوفيتى يكشف عن تأثير تقليدين أساسيين :

١ - الأسس الفلسفية للماركسية - اللينينية .

٢ - التقاليد العلمية فى علم النفس الفسيولوجى الروسى كما تتمثل فى كتابات « سيشينوف » Sechenov «وبختريف» V.M. Bexterev ثم بشكل خاص عند ايفان بتروفتش بافلوف » I. Pavlov والكتابات السوفيتية المعاصرة على ادراك واضح بتأثير هذين التقليدين ، اذ تعزو الىالفلسفة الماركسية اللينينية تأثيرها فى بلورة الأساس النظرى العام لعلم النفس . بينما تبقى لتقاليد البحثالعلمى البافلوفى الفسيولوجى تأثيرها الفعال فى تطوير المنهج العلمى الموضوعى لعلم النفس .

ويعتبر الالتجاء للماركسية - اللينينية - كمصدر فلسفى عام لعلم النفس - نتيجة من نتائج الجدل الفلسفى فى العشرينيات . بينما لم يصبح الارتباط بتعاليم ومناهج بافلوف خاصية ضرورية لعلم النفس السوفيتى الا منذ « مؤتمر بافلوف » المشهور عام ١٩٥٠ ، بعد تبنى علماء النفس السوفيت لدعوة تحويل علم النفس الى البافلوفية فضلا عن المادية - الجدلية الماركسية، وهى الدعوة التى أدت الى ربط علم النفس بالتقاليد العلمية الطبيعية ، وتناول قضايا علم النفس بموضوعية شديدة فى ضوء مفاهيم فسيولوجيا المخ ، والجهاز العصبى .

وقد يبدو غريبا للقارىء أن نعرض للتقليد البافلوفى وتأثيره فى علم النفس ونحن بصدد الحديث عن الأسس النظرية العامة ، غير أن هذه الغرابة تنتفى اذا ما علمنا ان البافلوفية ظهرت كرد فعل للحاجة الى تناول قضايا السلوك .. وفق الاطار المادى الماركسى . ولقد أعطى بافلوف بحق - بدراسته للجهاز العصبى والمخ - الأساس المادى للسلوك . كما انالنظرية البافلوفية عن نشاط الجهاز العصبى المركزى تشابه النظرية «الانعكاسية» للينين . فكلاهما يتناول الظواهر النفسية كاستجابات من الكائن الحى لمنبهات العالم الخارجى ، وكلاهما أيضا يرفض الدور السلبى للكائن تجاه الواقع ويعطى للاستجابة دورا نشطا يقوم بهالكائن .

بعلاوة أخرى فان تأثير التنبيه الخارجىمشروط بطبيعة الانتظام الداخلى للكائن . ويعتقد علماء النفس السوفييت أن أهم مشكلتين نظريتين أو فلسفيتين تواجه علم النفس هى مشكلة طبيعة النفس وعلاقتها بالعالم المادى ، وان أول ثمار اعادة بناء علم النفس على أساس الفلسفة الماركسية اللينينية يجب أن يقدم الحل الناجح لهاتين المشكلتين .

ولقد شغل هذا الموضوع بال المنظرين السوفييت .. بما يعلقونه من اهمية كبرى (اكبر من زملائهم الغربيين) على دور النظرية فى علم النفس ، الأمر الذى يظهر صداه فى كتابات « روبنشتين .. (١٨٨٩ - ١٩٦٠ ، S.R. Robinstein الذى يقول **«ان اهمال النظرية فى العلم امر خطير .. لأنه يعنى سيادة نظرية خاطئة »** . ويعتبر روبنشتين احدى علامات الطريق فى التطور النظرى فى علم النفس . وربما يكون أحد القلائل الذين استطاعوا أن يقدموا الحل لهاتين المشكلتين فى ضوء الصياغة النظرية لعلم النفس وفق الفلسفة الماركسية - اللينينية .

وعلى الرغم من ان روبنشتين يتحدث عن مشكلتى طبيعة النفس وعلاقتها بالعالم المادى على أنهما مشكلتان منفصلتان ، فان الواقع يبين – عند روبنشتين – ان هناك فى الحقيقة مشكلة واحدة فقط : مشكلة علاقة النفسى بالمادى ، أو كما يسميها روبنشتين « المشكلة السيكوفيزيقية » .

ولقد كان التقليد الشائع قبل روبنشتين أن الحل للمشكلة السيكو – فيزيقية يعتمد على حل المشكلة السابقة لها وهى مشكلة طبيعة النفس. وكان الحل يسير بهذا الشكل : اذا كان « النفسى » ماديا فان مشكلة علاقة النفس بالعالم المادى تصبح مسالة مطابقة .. ولا تحتاج منا الى جهد نظرى . أما اذا كان « النفسى » غير مادى فان العلاقة بالعالم الخارجى يمكن التعبير عنها فى ضوء نظريات التفاعل ، والتوازى .. الخ.

لكن روبنشتين يعالج المشكلة بشكل مختلف. اذ يرى أن مشكلة علاقة النفسى بالعالم المادى هى المشكلة السابقة ، وليس التساؤل عن طبيعة النفس ، وهو يذكر أن «للنفسى» خاصيتين جوهريتين : فهو ينتمى الى الفرد أو الكائن ، ويرتبط بالموضوع الخارجى . « فالنفسى » يمكن تعريفه فى نهاية الأمر فى ضوء هذه العلاقة الثنائية . ويذكر ايضا :

« ان المعرفة السيكلوجية هى معرفة «النفسى» من خلال اكتشاف علاقاته وترابطاته الأساسية»

ولعل أهم ما فى هذه المساهمة النظرية لروبنشتين رفضه الشديد لبحث الظواهر السيكلوجية مبتدئين بمفهوم « عام مجرد » لما هو « نفسى » : انما يجب – هكذا يقول روبنشتين – دراسة « النفسى » دراسة عيانية أى من خلال الكشف عن كل العلاقات والترابطات الأساسية. وهذه الحقيقة هى فى الواقع من الحقائق الجوهرية فى التحول العلمى لعلم النفس الحديث كما نعرفه فى النظريات العلمية سواء فى الولايات المتحدة أو الدول الأوربية .

ان الكشف عن العلاقات والترابطات الأساسية هو الذى يكون « النفسى » . وان الاجابة عن سؤال « ما هو النفسى ؟ » تتحدد من خلال تحديد كنه علاقته بالعالم الخارجى . ويرى روبنشتين أن علاقة « النفسى » بالعالم المادى **لها جانبان : ارتباطها بالواقع الخارجى المادى ، وارتباطها بالواقع الداخلى المؤدى للمخ (والجهاز العصبى) . وعندما تتحدد علاقة « النفسى » بكل جانب من هذين الجانبين ، فان علم النفس سيكون فى موقع يمكنه من الاجابة عن السؤال : ما هو « النفسى » ؟ .**

٣

وتقف الفلسفة الماركسية اللينينية وراء تطور آخر . ففى الخطوط العامة أعطى المذهب الماركسى – بتناسقه وتكامله – للعلماء مفهوما منسجما عن العالم لا يتفق مع أى ضرب من الاوهام . ففى الوقت الذى كانت تشيع فيه مفاهيم ديكارت عن ثنائية العقل والجسم ، جاعلا الحوادث النفسية تنتمى الى مجال الاشياء العقلية ، والحوادث البدنية الى مجال الاشياء المادية ، فان الماديةوقفت ضد هذه الثنائية ورفضتها رفضا شديدا .

صحيح أن الفلاسفة الفرنسيين التالين لديكارت واجهوا مشكلة اعادة بناء وحدة الانسان ، وأن مادية القرن الثامن عشر والتاسع عشر ركزت جهدها لحل هذه الثنائية . غير أن هذه المحاولات لم تزد عن كونها قدمت تصويرا عقليا موحدا عن الانسان بأن وسعت التصور العقلى الديكارتى بحيث يشمل النظام العقلى ، مما أوقف هذه المحاولات عند الشكل الميكانيكى من التفسير ، اذ لم تكن الا مجرد محاولات لتعميم قوانين ديكارت الميكانيكية للحركة .

أما علماء النفس السوفييت فانهم يرفضون ، انطلاقا من التصورات المادية الجدلية فى الفلسفة الماركسية – اللينينية ، التصور الثنائى بالمعنى الديكارتى ، كما يرفضون التصور المادى الواحدى بالشكل الميكانيكى كما ظهر فى القرنين الثامن والتاسع عشر .

وعلى الرغم من أن « باين » يرى أن الواحدية الماركسية – اللينينية لم تحل الاشكال كما كان متوقعا .. فاننا نجد أن هذا يصدر عن خطأ فى الاستنتاج وفى الاستقراء الصحيح . فمن ناحية نجد أن المحاولات المستمرة للمنظرين السوفييت لجعل النفسى مشروطا بالعالم الخارجى ، وبالعالم

الداخلى للجهاز العصبى وتجريد هذه العلاقات من الشكل الميكانيكى ، تعيد للانسان وحدته · يقول فايجوتسكى : « **اننا نكون انفسنا من خلال الآخرين** · وأن هذه القاعدة لا تنطبق على الشخصية ككل فحسب ، بل وعلى تاريخ كل وظيفة فردية · فهذا هو جوهر عملية النمو الحضارى متمثلا فى شكل منطقى خالص · ان الشخصية تكون لنفسها ما تكونه فى نفسها ، وخلال ما تكون من الآخرين **وهنا تبدو – ولأول مرة فى علم النفس – مشكلة العلاقات بين الواقع الخارجى ·· والوظائف العقلية الداخلية بكل أهميتها العظيمة ·· »** ·

ولا نريد أيضا أن نساير « باين » فى عدد من أحكامه بربط علم النفس السوفيتى – دجماطيقيا – بالماركسية أو البافلوفية بالشكل الذى يفقد هذا الموضوع استقلاله · ربما كانت هذه الظاهرة أحد مظاهر الجمود الستالينى فى فترة ما من فترات نمو علم النفس فى الاتحاد السوفيتى ·· غير أن لفيفا من العلماء المحدثين من بينهم رونتشتين نفسه نجدهم يتناولون القضية بشكل مختلف · ان روبنشتين مثلا يقرر فى مقاله القيم عن « مشكلات النظرية السيكلوجية » أن « **الظواهر العقلية – موضوع علم النفس – ولو أن قوانين نشاط الجهاز العصبى تحكمها – فانها تبدو كنتيجة تماما كما تبدو الفسيولوجيا أو الظواهر البيولوجية عموما بالنسبة لتحكم قوانين الكيمياء فيها · فالعمليات الفسيولوجية مع ذلك ذات شكل ومظهر خاص جديد يعبر عنه ما يسمى بقوانين الفسيولجيا ، وكذلك الظواهر العقلية ذات شكل ومظهر خاص جديد تعبر عنه قوانين علم النفس المستقلة · بعبارة أخرى فان الظواهر العقلية تبقى ظواهر نوعية وهى فى نفس الآن شكل من أشكال ظواهر النشاط الفسيولوجى تماما كالظواهر الفسيولوجية التى تبقى فسيولوجية ولكنها تحدث وفق قوانين التغير الكيميائى** » ·

ويقول أيضا فى نص أكثر صراحة « فى العلوم الاجتماعية يجب ادراك الفروق الدقيقة بين العلوم الاجتماعية الخالصة (يعنى الماركسية) والعلوم التى تدرس الظواهر المشروطة اجتماعيا · وعلم النفس من العلوم الخاصة بدراسة طبيعة الانسان من حيث هو نتاج تاريخى مشروط اجتماعيا · وهذا ما يحدد شروط العلاقة بين علم النفس وعلوم الطبيعة الاخرى (كنظرية نشاط الجهاز العصبى) من ناحية ، والعلوم الاجتماعية والتاريخية من ناحية ثانية »

وربما كان الارتباط بتقاليد علم النفس الفسيولوجى الروسى – على مافيها من مثالب – من أهم التطورات فى علم النفس الروسى · وهذا التأثير شبيه بالتطور الذى حدث فى علم النفس فى كثير من البلدان الأخرى · فمن المعروف أن الانفصال التدريجى لعلم النفس عن الفلسفة وتبلوره كعلم تجريبى كما شهده القرن التاسع عشر فى انجلترا وفرنسا والمانيا ، يرجع الى حد كبير الى مظاهر التقدم فى الفسيولوجيا وبالذات تقدم فسيولوجيا المخ ، والجهاز العصبى · وربما كنا نجد لذلك أن كثيرا من أعمال « فيبر » E. Weber (١٧٩٥ – ١٨٧٨) « فخنر » Fechner (١٨٠١ – ١٨٨٧) و « اميل ديبوا ريموند » E.D. Raymond (١٨١٨ – ١٨٩٦) ، وهلمهولتز H. Helmholtz (١٨٢١ – ١٨٩٤) تكرس لدراسة تأثير الأحداث الفسيولوجية على طبيعة الاحداث النفسية كالدراسات السيكو – فسيولوجية للاحساس ·

ويعتبر **سيشينوف وبختريف وبافلوف الدعائم الثلاث لعلم النفس الفسيولوجى الروسى كل منهم ساهم بقدر لا بأس به فى تطوير النظرية السيكلوجية ··** وكل منهم أولى كثيرا من الاهتمام لدراسة الحوادث النفسية ، ولكل منهم بضعة من الأفكار كانت بمثابة اللبنات الأولى فى التحول العلمى بعلم النفس ·

صحيح أن بافلوف – اذا قيس « بسيشينوف » و « بختريف » يحتل موقفا أقوى لأسباب خاصة ترجع الى تيار نظريته ·· والى أسباب عامة ترجع الى تبنى السلطة الحاكمة لآرائه · الا أن « بافلوف » فى الحقيقة كان ابنا شرعيا لتيار عام من الفكر ·· ربما كان « سيشينوف » رائده فى الحقيقة · بل ان « بافلوف » نفسه ينوه « بسيشينوف » فيسميه أب الفسيولوجيا الروسية » ؟ ويشيد بأهميته فى اقامة الاسس الحقيقية للتعاليم الخاصة بنظام الجهاز العصبى المركزى ·

وأهمية « سيشينوف » تتضح فى أنه تبنى عددا من الافكار ساعدت على دفع عجلة التقدم

فى بناء علم النفس السوفييتى خطوات سريعة الى الامام • فسشتنوف هو الذى يعرف الحياة السيكلوجية بانها عالم الظواهر الذى يتشكل من خلال الأداء الوظيفى للمخ • وهو الذى نادى بأن عالم الظواهر النفسية يمكن دراسته موضوعيا لأنه يعبر عن نفسه فى مظاهر خارجية • ومن ثم يضع « سيشينوف » لنفسه واجب دراسة القوانين التى تحكم المظاهر الخارجية للنشاط النفسى • ففى جوهر نظرية « سيشينوف » تكمن فكرة عدم عزل الظواهر النفسية عن الظواهر العصبية •

أما عن العلاقة المحكمة للأحداث النفسية بالاحداث الفسيولوجية فان « سيشينوف » يميل الى ارجاع الاولى الى الثانية • فهو يصرح فى أحيان كثيرة بأن الافعال النفسية فى عمومها يمكن أن تخضع للدراسة الفسيولوجية • وبصدد اصراره على أن يكون علم النفس علما موضوعيا يرى «سيشينوف» أن الفسيولوجيا وحدها هى القادرة على هذا لأنها هى وحدها التى تحمل المفتاح الى التحليل العلمى الصادق للظواهر النفسية •

وأعمال « سيشينوف » فضلا عن هذا تعتبر ذات أهمية خاصة فى التاريخ العلمى العام لعلم النفس الحديث من حيث أنها تنبأت بالموضوعية والاتساق فى دراسة الظواهر النفسية • وقد استبقت أعماله كثيرا من أفكار السلوكيين فى القرن العشرين •

أما « فلاديمير ميخائيلوفتش بختريف » فقد شغلته دعوة محددة هى الدعوة الى استخدام المناهج الموضوعية فى دراسة الشخصية الانسانية • وبذلك وضع الدراسة العلمية للانسان مع العلوم الطبيعية جنبا الى جنب • فلقد انتقد «بختريف» فكرة أن العلوم تنقسم الى طائفتين : طائفة العلوم الفيزيائية ـ البيولوجية التى تستخدم منهجا موضوعيا دقيقا ، وهو المنهج الذى تنتمى اليه أسرة العلوم الطبيعية ، وطائفة العلوم الانسانية التى تتضمن ما يسمى بالعلوم المعيارية ، وهذه الطائفة الاخيرة تستخدم المناهج الذاتية والاستبطان •

ولما كان المنهج الموضوعى المستخدم فى العلوم الطبيعية هو المنهج الثابت الوحيد فى البحث العلمى ، فقد وضع « بختريف » لنفسه مهمة اقامة علم جديد ، يدرس الشخصية الانسانية من وجهة نظر موضوعية خالصة ، ووجهة نظر اجتماعية وبيولوجية • ولكى يمكن للباحث أن يتوصل الى الموضوعية الضرورية فى دراسة الشخصية الانسانية فان عليه ـ فيما يرى « بختريف » ـ أن يتصور نفسه كائنا قادما من كوكب آخر ، يتصل بالناس لاول مرة • فمثل هذا الكائن سيضطر لدراسة الشخصية الانسانية بوجهة نظر موضوعية صارمة دون اهتمام بالدراسة الذاتية للخبرة الداخلية المفترضة •

هذه هى وجهة النظر التى نسجها « بختريف » متبنيا فكرة اقامة علم موضوعى دقيق للانسان ، وليسمى هذا العلم باسم « علم النفس الموضوعى» وعلم الافعال المنعكسة Reflexology ، وموضوعه دراسة النشاط المتسق للكائن بالمعنى الواسع للعبارة ، بما فى ذلك الافعال المنعكسة المكتسبة والموروثة ، البسيطة والمعقدة •

ويجب أن لا نمضى دون أن نشير الى أن هذا الجهد ، وغيره من الجهود النظرية القيمة التى تبناها « بختريف » اكتسبت أهمية حقيقة ـ فى التاريخ النظرى لعلم النفس السوفيتى • وربما من اجل هذا قوبلت افكاره بترحاب واسع فى كل من روسيا وخارجها فى العقدين الاولين من هذا القرن • وقد ترجمت أهم اعماله الى اللغات الالمانية والفرنسية والانجليزية • ولقى الكثير من افكاره اهتمام السلوكيين الاوائل ، وأثرت تأثيرا هاما فى الحركة السلوكية على وجه العموم •

وقد سيطرت مدرسة بختريف على علم النفس الروسى فى الفترة التالية للثورة ولكن تأثيرها خبا بعد موته سنة ١٩٢٧ • وبمجىء النصف الثانى من الثلاثينات اختفى صوت مدرسته نهائيا ، حيث اعتبرت عاجزة عن الصمود أمام الخط الجديد الذى ساد علم النفس السوفيتى سنة ١٩٣٤ ، وهو الخط الذى تزعمه « ايفان بتروفتش بافلوف » •

ويعتبر « بافلوف » دون شك من أعظم رواد العالم فى تطوير علم النفس ، وهو من أكثر

ممثلى المدرسة الروسية لعلم النفس الفسيولوجى شهرة • ودون الدخول فى تفاصيل أفكار بافلوف – ذات الشعاب المتعددة – فان ما يهمنا هنا أفكاره التى أثرت فى تطوير النظرية السيكلوجية ونعنى بحوثه فى النشاط اللحائى فى المخ ، والأفعال المنعكسة الشرطية ، وهى البحوث التى ترتبط ارتباطا مباشرا بالنظرية السيكلوجية •

وينقسم التطور العلمى « لبافلوف » الى أربع مراحل : الفترة من سنة ١٨٧٨ الى ١٨٨٨ حيث كان مهتما أساسا بتجاربه عن الدورة الدموية• والمرحلة الثانية تبدأ منذ تعيينه أستاذا للفارماكولوجى حيث وجه اهتمامه الى دراسة الغدد الهضمية • وبسبب هذه البحوث فى عمليات الهضم منح بافلوف فيما بعد جائزة نوبل فى العلوم سنة ١٩٠٤ • وفى أثناء تجاربه عن الجهاز الهضمى اكتشف بافلوف ظواهر الفعل المنعكس الشرطى حيث تبدأ المرحلة الثالثة من تطوره • **وتمتد المرحلة الرابعة من سنة ١٩٠٢ وما بعدها حيث كرس « بافلوف » اهتمامه كله لدراسة الجهاز العصبى مستخدما منهج « المنعكسات الشرطية » ، ولو أنه وجه اهتماما خاصا منذ سنة ١٩٢٨ حتى وفاته فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٦ – الى مشكلات الطب النفسى وعلم النفس المرضى ، ومن المؤكد أنه لولا وفاته لبلغت بحوثه فى هذا الميدان غاية اكتمالها •**

وما يهمنا هنا هو بحوثه فى النشاط اللحائى والمنعكسات الشرطية لأنها هى التى ترتبط ارتباطا مباشرا بالنظرية السيكلوجية • فلقد لاحظ « بافلوف » أثناء تجاربه عن الافرازات الهضمية فى الكلاب أن اللعاب لا يفرز عندما يكون الطعام أو الاكسيد موضوعا فى فم الكلب فحسب ، بل من الممكن أيضا أن يفرز بمجرد رؤية الطعام أو الاكسيد ، أو حتى لمجرد اقتراب الشخص الذى يحضر عادة الطعام • وقد أدى وجود هذه الظواهر الغريبة وأمثالها فى تجارب «بافلوف» أدى به الى دراستها دراسة خاصة • ولقد توهم « بافلوف » فى البداية أن هذه الظواهر يمكن تفسيرها تفسيرا سيكلوجيا ذاتيا خالصا ،ولذلك فسرها بعبارات سيكلوجية مثل « ان الكلب ربط الوعاء بالطعام » أو أن « الكلب تذكر أن الوعاء يحتوى عادة على الطعام » •

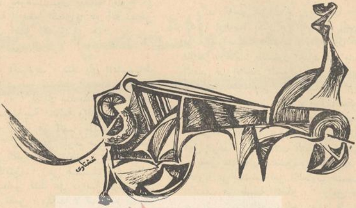
ولكنه سرعان ما وجد أن التفسير فى ضوء الحالة الذاتية للحيوان يؤدى الى تناقضات فاشلة فى تفسير الظاهرة ، لذلك فقد تناول تفسيرها فى ضوء وجهة نظر فسيولوجية خالصة واقترح مفهوم « الانعكاسات الشرطية » مميزا اياها عن المنعكسات الفطرية غير الشرطية (وهى ضرورة افراز اللعاب عندما يكون الطعام فى الفم) •

وتتكون الافعال المنعكسة الشرطية من خلال خبرة الفرد فى الحياة • وتكتسب أهميتها من قدرتها على تمكين الكائن من التكيف للشروط المتغيرة فى بيئته • فمن خلال نظام « المنعكس الشرطى » تكتسب المنبهات المحايدة خصائص موضوعات ذات دلالة حيوية للكائن • ويترتب على هذا أن يكون « الفعل المنعكس الشرطى » متغيرا أبدا ، كما أن كل منبه خارجى محايد قابل لأن يكون اشارة لمنبه غير شرطى • ويرى «بافلوف» – بعد عديد من التجارب الدائبة – أنه ما لم تتدعم الاستجابة للفعل المنعكس الشرطى (أى اذا لم تتبع دائما بمنبه غير شرطى كالغاء الرابطة بين تقديم الطعام وسماع صوت جرس) فان الاستجابة سرعان ما تنطفىء •

ومن الحق أن نعترف بخطورة هذا الاكتشاف فى تطوير النظرية السيكلوجية عموما • ولقد كان بافلوف وسيظل أحد المحققين الاوائل لمبادىء الموضوعية ، وامكانيات التجريب • ولقد كانت أعماله وراء التطورات الحاسمة فى النظرية السلوكية حتى فى العالم الغربى • وفضلا عن هذا فقد اكتسب بافلوف أهمية خاصة لدى العلماء السوفييت الذين تبنوا نظرياته عن التفكير ،واللغة والتعلم •

ولم تكتسب نظرية « بافلوف » أهميتها الحقيقية فى الفكر السيكلوجى السوفييتى الا منذ عام ١٩٥٠ بعد القرارات التى اتخذها مؤتمر «بافلوف» الذى عقد تحت اشراف أكاديمية العلوم وأكاديمية الطب فى الفترة ما بين ٢٨ يونيو الى ٤ يوليو سنة ١٩٥٠ ، خاصة القرارات المتعلقة بالعلاقة بين النشاط النفسى ونشاط الجهاز العصبى المركزى •

ونقطة التحول الخطيرة التى خطاها هذا المؤتمر بقراره أن يكون علم النفس « بافلوفيا » فوق



كونه « ماركسيا » ، كانت فى الواقع محاولة للتوفيق بين النظرية « البافلوفية » والفلسفة المادية الماركسية – اللينينية . فعلى الرغم من اعتبار نظرية «بافلوف» امتدادا للمادية الماركسية فى مجال تفسير الظواهر السيكلوجية ، فان العلماء لم يغفلوا عن الفارق المحير بين النظريتين. «فالبافلوفية» مع هذا تعالج الظواهر النفسية فى ضوء تقاليد العلم الطبيعى كما شاعت فى القرن التاسع عشر ، وهى التقاليد التى تسمى أحيانا باسم التقاليد المادية الميكانيكية للعلم ، بينما تتبنى الماركسية الدياليكتيك ، وتعارض التفسيرات الميكانيكية . وهذا ما جعل علم النفس فى موقف حرج ، فهو يقوم فى جزء منه على النظام الميكانيكى غير المادى ، وفى جزء آخر على النظام المادى غير الميكانيكى .

وعلى الرغم من ذلك فقد ترك المؤتمر بعض الآثار السيئة على تطور النظرية السيكلوجية واستقلالها .. تبدو هذه الآثار من خلال بعض الاصوات التى لم تستطع تجاوز التناقض بين الفسيولوجيا وعلم النفس ، فنادت بعدم استقلال علم النفس عن الفسيولوجيا البافلوفية ، وانكار الحق فى وجود هذا العلم ، وربط موضوعاته ربطا مباشرا بموضوعات الفسيولوجيا ، واعتبار قوانين الجهاز العصبى المركزى هى نفسها قوانين علم النفس .

ولم يمكن تجاوز هذا الموقف، وتحقيق التوفيق اللازم الا بعد المؤتمر بعدة سنوات .. ولعل أهم الاصوات التى بدأت تناقش هذه الآراء مناقشة جدية كانت لأنتونوف N.P. Antonov سنة ١٩٥٣ ، وسيشينوف حتى وفاته سنة ١٩٦٠.. صحيح أن السوفيت المحدثين خطوا فى الفترة الراهنة ، ويخطون خطوات هائلة فى اتاحة الاستقلال لموضوع علم النفس عن موضوعات

الفسيولوجيا .. وصحيح أن الاجهزة الرسمية في الاتحاد السوفيتي أخذت تفرد أكاديميات وأقسام مستقلة لعلم النفس هناك .. وصحيح أن كثيرا من الفروع النفسية ـ التي كانت تحارب ـ كبحوث القياس النفسي ، وعلم النفس الاجتماعي بدأ الباحثون هناك يخوضون ميدانها بنوع من الشجاعة الادبية المنقطعة النظير . غير أنه سيظل لهذين الصوتين فضل السبق في هذا .

فقد نادى « انتونوف » مثلا بأن النشاط النفسي لا يتوازى مع النشاط الفسيولوجي للجهاز العصبي » . فهناك سلسلتان من الظواهر النفسية والفسيولوجية المثالية والمادية ، ويمكن فهمها في ضوء المادية على أنهما جانبان مستقلان لطبيعة واحدة . ولكن على الرغم من أن هاتين السلسلتين من الظواهر تترابطان ترابطا وثيقا فانهما غير متطابقين . وعلى هذا فان تعاليم « بافلوف » تنطبق فقط على دراسة الاساس المادي لما هو « نفسي » ولكنها لا تستطيع أن تلم بكل القوانين الخاصة « بالنفس » .

أما روبنشتين فقد استطاع ـ كما رأينا في أول المقال ـ أن يقدم مساهمات جليلة . ويعتبر كتاب « الوجود والوعى » الذي صدر سنة ١٩٥٧ من أكثر أعماله نضجا ، وربما من أحسن الكتب التي صدرت في الاتحاد السوفيتي عن النظرية السيكلوجية . ويقدم روبنشين في « الوجود والوعى » نظريته التركيبية عن طبيعة الوعى على أساس الفلسفة الماركسية ـ اللينينية ، والفسيولوجيا البافلوفية .

ولعل أهم ما نادى به روبنشتين كما رأينا هو نظريته في تناول « النفسي » من حيث علاقته بعناصر العالم المادى الخارجية والداخلية . فعن طريق العلاقة بالواقع المادى الخارجي تبدو العناصر « النفسية » أو الوعى كصورة مثالية أو كانعكاس ذاتي للعالم المادى . وعن طريق العلاقة بالعالم المادى الداخلى أى بالمخ والجهاز العصبي يبدوان كمظهر من مظاهر نشاط الجهاز العصبي .

ويرى روبنشتين أن من أكثر أسباب الوقوع في أخطاء المعرفة بطبيعة العناصر النفسية تجريدها وعزلها عن علاقاتها بالظواهر الاخرى ، أو تعميم خاصية محددة من خصائص النشاط النفسي وتطبيقها على العلاقات الاخرى التي لا تنطبق عليها .

وكما كانت كتابات « روبنشتين » قبل سنة ١٩٥٠ ارهاصا بكثير من القرارات التي اتخذت في مؤتمر سنة ١٩٥٠ ، كذلك تعتبر كتاباته بعد المؤتمر أرهاصا بالتبلور الجديد في بناء علم النفس في الاتحاد السوفيتي . وارهاصا أيضا بمستقبل هذا العلم ، كما تستطيع العين البصيرة أن تتطلع . ويعتبر كتاباه « حول التفكير وأساليب بحثه » (١٩٥٨) و « مبادىء وأساليب تطور علم النفس » (١٩٥٩) ارهاصات بهذا المستقبل . فعلى الرغم من المشكلات النظرية والفلسفية التي لم يغفل عنها « روبنشتين » لحظة ، نجد أن كتابيه احتويا على سلسلة من التجارب صممت بقصد الكشف عن طبيعة التفكير .. ولعل هذه السمة هي التي تميز التطور الحديث في علم النفس بالاتحاد السوفيتي : أعني التوازن بين الافكار النظرية والمعطيات التجريبية .

ان مرحلة جديدة من مراحل تطور علم النفس في الاتحاد السوفيتي بدأت وتبدأ . مرحلة يمكن تسميتها « ما بعد البافلوفية » ، يتحقق فيها الاستقلال الحق لعلم النفس ، وتتحقق فيها أصالة البحث ، ومن الحق أن نعترف أن ثورة العلماء السوفيت ضد البافلوفية ليست ثورة ضد صحة النظرية أو أهميتها ، انما هي ثورة ضد دوجماطيقية التفسير الواحد ، التفسير بما هو فسيولوجي فقط . ان التفكير العلمي الصحيح هو التفكير الذي يبني نسيجه بالاهتمام بكل شروط الظاهرة بمقدار ما تكشف عنه المعطيات العملية .

ولحسن الحظ فان هناك علامات مشجعة في طريق هذا النمو : هناك الاتجاهات الناقدة للبافلوفية تنمو جنبا الى جنب مع الاتجاهات التي تتبناها . هناك الاهتمام الصاعد بعلم النفس الاجتماعي ، وبعلم التحكم الآلي (السبير نطيقا) وعلاقته بالظواهر السكلوجية . وهناك على وجه العموم ما يوحي بالانطلاق من الاطار التقليدي الضيق نحو تكشف الآفاق أخرى جديدة من البحث .

علم النفس والشخصية المنتجة

د. فرج عبد القادر طه

الانتاج هدف أساسى يسعى كل مجتمع - مهما كان نظامه الاجتماعى الاقتصادى - للوصول به الى أقصى حد ممكن . ولهذا كانت الشخصية المنتجة هى الشخصية النموذجية التى يسعى كل مجتمع الى تحقيقها فى أفراده . ولكى يكون كلامنا التالى أكثر وضوحا ينبغى علينا أن نبدأ بتحديد مفهومنا عن الشخصية المنتجة - انها الشخصية التى ينطبق عليها ما يلى :

١ - أن يكون انتاجها كبيرا من حيث الكم (أى تنتج عددا كبيرا من الوحدات المكلفة بانتاجها) .

٢- أن يكون انتاجها من حيث المستوى الكيفى جيدا (أى تكون الوحدات التى تنتجها من النوع الجيد الخالى من العيوب) .

٣ - أن تختفى منها - الى حد بعيد - مظاهر السلبيات المعرقلة لتحقيق الهدف الأساسى لأى مؤسسة عمل ، وهو زيادة الانتاج كما وكيفا ، مثل مظاهر : الغياب عن العمل ، واساءة استعمال آلات الانتاج وأدواته وخاماته،والوقوع فى اصابات عمل ، والمرض والتمارض ، واساءة العلاقات مع الزملاء والرؤساء ، وعدم اطاعة تعليمات مؤسسة العمل والرؤساء ، والشكوى وابداء الاستياء من الرؤساء والزملاء والعمل ونظمه ولوائحه .



وتحريض الغير على الشكوى والتذمر ، وترك العمل الى غيره ...

٤ ـ ان أسند اليها أى عمل رئاسى أو اشرافى أو ادارى كانت ادارتها لمرءوسيها ادارة رشيدة تهيىء مناخا اجتماعيا ونفسيا ملائما للعمل ، يرفع روح المرءوسين المعنوية ويساعدهم على بذل أقصى طاقاتهم فى الانتاج ، مع تحقيق الراحة النفسية لهم فى عملهم وفى علاقاتهم المتبادلة .

٥ ـ ان كانت طالبة تحصيلا دراسيا أو مهنيا تفوقت فيه ، وتقدمت فى مستوياته .

سيكلوجية الشخصية المنتجة

والسؤال الذى يتبادر الى الذهن ، هو ما اذا كان لهذه الشخصية خصائص سيكلوجية معينة ، بحيث يمكن أن تعيننا معرفتنا بها على تحقيق هذه الشخصية فى مجالات الانتاج المختلفة .. والاجابة على هذا التساؤل هى أن هناك بالفعل خصائص سيكلوجية للشخصية المنتجة ، ويمكننا أن نحدد من بين أهم هذه الخصائص ما يلى :

١ ـ ملاءمة الاستعدادات العقلية والمهارات والخبرات والمعارف الخاصة بهذه الشخصية للاستعدادات العقلية والمهارات والخبرات والمعارف التى تلزم بصفة خاصة ، وبدرجات معينة، للنجاح والتوفيق فيما يعهد اليها القيام به من عمل معين. اذ يوجد لكل عمل استعدادات عقلية ومهارات وخبرات ومعارف بدرجات معينة خاصة به ، لازمة للنجاح والتوفيق فيه ، تختلف عن تلك اللازمة لعمل آخر . وبالمثل أيضا ، يختلف الاشخاص فيما بينهم فى درجات امتلاك كل من هذه الاستعدادات العقلية وتلك المهارات والخبرات والمعارف . ومن ثم فالشخصية التى تصلح لعمل معين لا يشترط بالضرورة أن تصلح لعمل آخر ، وبالمثل أيضا من يفشل فى عمل معين قد يكون من أوائل الموفقين فى عمل آخر . ولقد فطنت الحكمة الشعبية الى هذه الحقيقة ، فنبهت اليها قبل أن يتوصل العلم الى تقريرها حيث تقول : (الى ما ينفعشى طبلة ينفع طار) .

٢ ـ توفر ميل نفسى فى هذه الشخصية نحو هذا النوع من العمل الذى تزاوله . بمعنى تفضيل الشخصية لمزاولة هذا العمل بالذات دون غيره مع احساسها بالاستمتاع من تأديتها لواجباته ، وسعادتها للارتباط به . فهذا أدعى للاقبال عليه والحماس له ، وبالتالى التوفيق فيه .

٣ ـ توفر قدر مناسب من الصحة النفسية لهذه الشخصية . فالقدرة على العمل والانتاج ترتبط بالصحة النفسية للفرد الى حد جعل المحللين النفسيين يعرفون الصحة النفسية بأنها القدرة على الحب والعمل . وكان قدرة الفرد على العمل وأهليته للاتصاف بالشخصية المنتجة يعتبر أحد المؤشرين الكافيين للتدليل على استمتاع الشخصية بالصحة النفسية . ويرجع ذلك الى الاهمية الكبرى للعمل بالنسبة للشخصية الانسانية ، ووزنه الضخم بالنسبة لأوجه نشاطها فى الحياة . ولو رجعنا الى المؤلفات التى تصف لنا حال الشخصية التى حرمت من الاتزان النفسى واضطربت فيها الصحة النفسية، لاتضح لنا كيف يعمل المرض النفسى (أو الاضطراب النفسى) على اعاقة الشخصية عن الانتاج . فها هو فرويد يصف لنا شخصية المصاب بالمرض النفسى المعروف بالعصاب (أحد النوعين الكبيرين من الامراض النفسية ، وهما العصاب والذهان) فيقول عنه أنه « لم يعد قادرا على أداء الواجبات التى يفرضها عليه العالم الخارجى بما فيه المجتمع الانسانى . وقد غابت عنه خبراته الماضية جميعا ، كما فقد جزءا كبيرا من ذخيرة ذكرياته وكف نشاطه بفعل التحريمات الصارمة التى يفر منها الأنا الاعلى ، وتبددت طاقته فى محاولات فاشلة لصد مطالب الهو . كما اختل تنظيمه نتيجة للهجمات المستمرة من الهو ، وانقسم على ذاته من الداخل، وعجز عن انجاز أى تركيب صحيح ، ومزقته الميول المتعارضة ، والصراعات التى لم تسو ، والشكوك التى لم تحل » . (الموجز فى التحليل النفسى ـ تأليف فرويد وترجمة سامى محمود على وعبد السلام القفاش ومراجعة مصطفى زيور ـ دار المعارف ١٩٦٢ ـ ص ٣٥ ـ ٥٤) . واذا كان هذا حال المريض العصابى ، فان حال المريض الذهانى تكون أشد سوءا اذ يمثل المرض الذهانى اضطرابا أشد يصيب الشخصية ، وتصدعا أعمق يلحق بجوانبها ، ويؤدى الى تدهور كبير فى قواها وكفاءتها . وبالتالى يخيب رجاؤنا ان انتظرنا من المريض النفسى أن يكون شخصية منتجة ما لم ننجح أولا فى علاجه ، واعادة الصحة النفسية اليه .

كيف نعمل على تحقيق الشخصية المنتجة ؟

بعد أن حددنا أهم الخصائص السيكلوجية للشخصية المنتجة ، نريد أن نضع بناء عليها ـ

بعض التوصيات التى تصلح لتحقيق الشخصية المنتجة فى مؤسسات العمل المختلفة • وفى رأينا أن تنفيذ التوصيات التالية فى مؤسسات العمل سوف يعمل – الى حد كبير – على تحقيق الشخصية المنتجة فى كل من العاملين فيها :

١ – تحقيق المواءمة بين العامل وعمله (أو الطالب ونوعية دراسته) :

وتنبنى هذه التوصية على المبدأ الذى سبق أن ذكرناه عن حاجة كل عمل (أو نوع من الدراسة) على مستويات معينة من الاستعدادات العقلية والمهارات والخبرات والمعارف والميول الخاصة والصحة النفسية التى يجب ان تتوفر فى شاغله (أو طالبه) حتى يحقق فيه درجة كبيرة من النجاح والتوفيق • لهذا ينبغى أن نعمل على توفير أكبر قدر ممكن من المواءمة بين استعدادات العامل الشخصية وبين متطلبات عمله ، (أو بين استعدادات الطالب الشخصية ومتطلبات ما يقوم بدراسته) • ويمكن تحقيق ذلك الى حد كبير – باتباع الخطوات التالية :

١ – القيام بدراسة علمية مستفيضة لكل نوع من الاعمال (أو نوع من الدراسة) على حدة ، وتعرف هذه الدراسة بتحليل العمل ودراسات الوقت والحركة ، وذلك لكى نستطيع تحديد الاستعدادات الشخصية المختلفة اللازمة للنجاح فى العمل (أو الدراسة) وأنسب الطرق لتأدية واجبات العمل (أو الدراسة) على خير وجه •

٢ – تحليل شخصية الفرد تحليلا عمليا شاملا بهدف تحديد مستويات استعداداته الشخصية المختلفة (سواء عقلية أو تحصيلية أو انفعالية أو جسمية • واستخدام ذلك كأساس لتعيين الفرد فى العمل المعين ان اتفقت استعدادات الفرد مع متطلبات العمل المراد التعيين فيه (ويتم ذلك عن طريق العملية المعروفة فى مجال العمل باسم الاختيار المهنى ، والذى يهدف الى اختيار أفضل المتقدمين صلاحية لشغل عمل معين لتعيينهم فيه) ، أو كأساس لتوجيه الفرد للعمل فى عمل معين يرى أخصائى التوجيه أنه أكثر مناسبة له من غيره ، كنتيجة لوجود تطابق كبير بين استعدادات الفرد المختلفة ومتطلبات هذا العمل من استعدادات شخصية (وتسمى هذه العملية باسم التوجيه المهنى والتى تعنى توجيه الفرد ونصحه للالتحاق بأنسب عمل يرى الاخصائى النفسى أنه أنسب الاعمال لطالب التوجيه •) ، أو كأساس لتأهيل ذى العاهة أو المريض لعمل يرى أخصائى التأهيل أنه أنسب ما يمكن للمصاب بالعاهة أو بالمرض ، كنتيجة لوجود توافق بين الاستعدادات المختلفة للمريض أو ذى العاهة وبحالة عجزه الراهنة وبين متطلبات هذا العمل • (وتسمى هذه العملية بالتأهيل المهنى ، والذى يعنى مساعدة الشخص الذى أصيب بمرض أو بعاهة على اختيار عمل مناسب له وتدريبه عليه والحاقه به) هذا ، وتوجد نفس العمليات الثلاث سابقة الذكر (الاختيار المهنى والتوجيه المهنى – والتأهيل المهنى) فى مجال الدراسة والتحصيل فيما يسمى بالاختيار التربوى والتوجيه التربوى والتأهيل التربوى ، وتقوم على نفس الاسس من حيث محاولة تحقيق أكبر قدر ممكن من المطابقة بين استعدادات الطالب الشخصية المختلفة والمتطلبات المختلفة لنوع الدراسة التى يلتحق بها •

٣ – وسواء كان العاملون جددا أو قدامى فانهم دائما فى حاجة الى برامج تدريبية تنظمها لهم مؤسسة العمل لرفع كفايتهم الانتاجية فى مجال عملهم ، وتدريبهم على ما يستحدث من طرق أداء فى العمل ، وما يستجد من تطورات تزيد من كفاءة العمل • هذا اضافة الى أن الذين يرقون من العاملين أو ينقلون الى أعمال فى حاجة ماسة الى التدريب على كيفية أداء واجبات العمل الجديد وبطيقة أكثر ما يمكن كفاءة واقتصادا ، حتى يظل العامل أو يصل الى المستوى المناسب من حيث الكفاءة فى عمله • وتوضع برامج التدريب على العمل المعين بناء على ما تسفر عنه عملية تحليل هذا العمل ودراسات الوقت والحركة الخاصين به ، حيث تتضح منها أهم الواجبات والحركات التى ينبغى على العامل أدائها للنجاح فى عمله ، وأفضل كيفية لأداء هذه الواجبات ، وأهم المهارات والخبرات والمعارف اللازمة للنجاح فى هذا العل ، وبالتالى يدرب العامل لاكتسابها أو تنميتها لديه ، فترتفع بذلك درجة المواءمة بين العامل وعمله •

ولو تمت العمليات السابق ذكرها من اختيار وتوجيه وتأهيل وتدريب على أسس علمية سليمة ومدروسة فان الشخصية المنتجة تتحقق الى حد كبير ، كما تجمع على ذلك مختلف الدراسات • فعلى سبيل المثال فقط ، نذكر أن احدى الشركات

فى الخارج طبقت على المتقدمين لشغل وظائف كتابية بها أربعة اختبارات (أحدها لقياس الذكاء والثانى لقياس قدرة الفرد على مراجعة أزواج الاسماء والارقام للتأكد من عدم الخطأ فى النقل، والثالث كان اختبارا فى السرعة والدقة فى الكتابة على الآلة الكاتبة ، أما الرابع فكان اختبارا فى الاختزال) ٠ وبعد اجراء هذه الاختبارات والتعيين فى هذه الوظائف بوقت كاف درس معامل الارتباط بين هذه الاختبارات ومدى امتياز هؤلاء الموظفين فى عملهم (كما يتضح من انتاجهم وتعاونهم وقدرتهم على المبادأة) فوصل هذا الارتباط الى ٨٠ر ، وهو ارتباط عال وجوهرى الى حد كبير ، مما يشير الى أن الاختيار بناء على أسس سليمة يحقق الشخصية المنتجة الى حد بعيد (دكتور السيد محمد خيرى ـ علم النفس الصناعى وتطبيقاته المحلية ص ٢١٥ ـ ٢١٦)٠ عن علاقة مستوى الذكاء بظاهرة ترك العمل ٠ وهناك بحث قام به « بوند Pond وبلز Bills وقد ظهر من البحث أنه فى الاعمال الاكثر بساطة تبلغ نسبة ترك العمل أقصاها فى حالات العمال الاعلى ذكاء بينما فى الاعمال الاكثر تعقيدا تبلغ النسبة أقصاها فى حالات العمال الاقل ذكاء» (المرجع السابق ص ٢١٤) مما يشير الى مقدار الفشل الذى يلقاه الفرد فى عمله ان لم تكن هناك درجة مناسبة من المواءمة بين استعداداته ومتطلبات عمله ٠ كما أنه من دراسة مبكرة لجلبرت Gilbert تبين أن عامل البناء يقوم بـ ١٨ حركة لوضع الطوبة فى مكانها أثناء عملية البناء ٠ فصمم طريقة ـ بناء على تحليله لعمل عامل البناء ودراسة الوقت والحركة فى هذا العمل ـ يستطيع بها عامل البناء أن يختصر هذه الحركات الـ ١٨ الى ٥ فقط ، ثم دربه عليها فكانت نتيجة ذلك أن ارتفعت انتاجية عامل البناء من ١٢٠ طوبة فى الساعة الى ٣٥٠ أى الى حوالى ثلاثة أضعاف ٠

٢ ـ توفير ظروف العمل الطبيعية المناسبة

العامل يعمل فى ظروف عمل طبيعية من درجة حرارة ، ودرجة رطوبة ، ودرجة تهوية ، واضاءة وساعات عمل وفترات راحة، ونوعية آلات وأدوات وخامات الانتاج ٠٠ الى غير ذلك من ظروف طبيعية مختلفة تميز بيئة عمله ٠ ومهما تكن درجة المواءمة بين استعدادات العامل الشخصية المختلفة ومتطلبات العمل الذى يقوم به فان انتاجية العامل لا يمكن أن تصل الى المستوى المرجو ما لم تكن ظروف العمل الطبيعية هذه فى مستوى مناسب للعامل ٠ فكلما كانت هذه الظروف غير مناسبة كلما أدى ذلك الى الاقلال من انتاج العامل ،وتعرض أكثر لاصابات العمل ٠ فعلى سبيل المثال ، يقرر ماير أنه « بمقارنة الانتاج فى البلاد التى تختلف فيها ساعات العمل الاسبوعى أو فى البلد نفسه قبل خفض ساعات العمل وبعده كان يتضح دائما أن أسبوع العمل القصير يصحبه انتاج أكثر ٠ أى أن دعوات العمال المثيرة نحو الاقلال من ساعات العمل الاسبوعى أدت الى زيادة فى الانتاج ٠ فى حين أدت معارضة أصحاب العمل فى هذا التغيير الى تعويق الاستغلال الفعال لطاقة الانسان » ومن الامثلة التى ضربها ماير وتدلل على ذلك مثال « خاص بفريقين من زارعى التفاح ، فقد دفع أحد المنتجين رجاله ، تحت ضغط الرغبة فى انهاء العمل ، الى العمل عشر ساعات فى اليوم ، وتمسك الثانى بألا يعمل رجاله أكثر من ثمان ساعات ٠ وكانت نتائج العمل ، الذى كان يؤدى بحساب القطعة فى الحالتين ، أن الفريق الذى كان يعمل ثمانى ساعات فى اليوم تفوق بمتوسط خمسة صناديق يوميا على الفريق الذى كان يعمل عشر ساعات » (ماير ، علم النفس فى الصناعة ـ ترجمة دكتور محمد عماد الدين اسماعيل وزملائه ـ ١٩٦٧ ـ ص ٥٨١) كما يقرر جيزيلى وبراون أن تحسين الاضاءة يؤدى الى زيادة فى الانتاج ودقة فى العمل وسرعة فيه ٠ وبالمثل تؤدى التحسينات فى ظروف العمل الفيزيقية المختلفة الى تحقيق الشخصية المنتجة ، لكن يضيق المجال عن ذكر أمثلة أخرى من الدراسات التى تدلل على ذلك ٠ ويحتاج الامر للعمل على على تحسين الظروف الفيزيقية المختلفة فى مجال العمل الى القيام بدراسات واقعية فى كل مؤسسة عمل تنتهى الى التعرف على أفضل الظروف الفيزيقية للعمل فيها لكى تتخذ نتائجها أساسا لتحسين ظروف العمل ، ذلك أن هذه الظروف التى تناسب مؤسسة عمل قد لا تناسب غيرها بنفس الدرجة، نتيجة لاختلاف نوعية الاعمال ونوعية العاملين ونوعية بيئاتهم وظروفهم ٠

٣ ـ تهيئة بيئة العمل الاجتماعية والنفسية الملائمة :

كما ينبغى أن تكون هناك مواءمة بين استعدادات العامل ومتطلبات عمله ، وكما ينبغى أن توفر

للعامل ظروف عمل طبيعية مناسبة ، فانه لا بد أيضا من تهيئة بيئة عمل اجتماعية ونفسية ملائمة حتى تتحقق للعامل صفة الشخصية المنتجة . ذلك أن لبيئة العمل الاجتماعية والنفسية أثرا كبيرا على انتاجية الفرد . فدراسات علم النفس بصفة عامة وعلم النفس الاجتماعي على وجه خاص بينت بما لا يقبل الشك صحة هذا الرأى . فعلى سبيل المثال فقط ، بينت دراسات ليفين ولبيت وهوايت أن تهيئة جو اداري (أو رئاسي) ديموقراطي في بيئة العمل يرفع انتاج العامل ، ويزيد من رضاه عن العمل ويحقق له مستوى أعلى من الراحة النفسية في علاقاته المتبادلة مع أعضاء جماعة العمل ، بعكس العمل في جو اداري (أو رئاسي) ديكتاتوري أو فوضوى . كما أن الوسائل المختلفة التي ينبغي أن تتبعها المؤسسات لرفع روح العاملين المعنوية فيها مثل معاملة العامل على أنه انسان له كرامة ينبغي حفظها وصونها وليس مجرد أداة انتاج ، ومثل ضمان أجر معقول له لقاء عمله ، ومثل تأمينه ضد الفصل أو النقل التعسفي ومثل اتاحة فرص التقدم والنمو والترقي في العمل طالما أثبتت كفاءة وجدارة ، ومثل الديموقراطية في علاقة الرئيس بالمرءوس ومثل اشراك العامل في الادارة وفي الارباح .. الخ كلها تعمل على تهيئة بيئة عمل اجتماعية نفسية مناسبة لتحقيق الشخصية المنتجة . وفي تجربة الهاوثورن Hawthorne خير تأييد على تأثير الروح المعنوية العالية للعامل على رفع مستوى انتاجه ، حيث لاحظ المجربون أن الكفاية الانتاجية للعاملات كانت مستمرة في التحسن حتى بعد أن ألغيت التحسينات التي كان قد أدخلها المجربون على ظروف العمل الطبيعية . وكان ذلك يرجع الى الروح المعنوية العالية التي خلقتها ظروف التجربة بين العاملات . فرفع الروح المعنوية يؤدى في النهاية الى تعديل الاتجاهات النفسية السلبية نحو مواقف العمل والرؤساء والزملاء ، ويعمل على اضعافها ، في نفس الوقت الذى يزيد الاتجاهات النفسية الايجابية البناءة في هذه المواقف . فيرتفع الانتاج ويزداد الاحساس بالرضا عن العمل والراحة النفسية مع جماعته .

٤ ـ توفير أوجه النشاط الرياضي والترفيهي المختلفة للعامل (أو الطالب) :

فاشراك العامل (أو الطالب) في فرق رياضية وأنشطة ترفيهية مختلفة سوف يعمل على اعلاء بعض اتجاهاته النفسية السلبية الهدامة وايجاد منصرف مفيد لها ، فتتصرف داخل الملعب أو في النشاط الترفيهي بدلا من تنصرف في مواقف العمل (أو التحصيل) وبين جماعاته . وهكذا تجد هذه الميول النفسية السلبية لها اشباعا مناسبا خارج مجال العمل (أو التحصيل) ، فلا تصبح عوامل تعرقل تحقيق الشخصية المنتجة على نحو أو آخر . فلا شك أن الميول العدوانية بأشكالها المختلفة لو أتيح لها التعبير والاشباع في مواقف العمل سوف تكون عائقا أمام الكفاية الانتاجية للعامل .

٥ ـ توفير الرعاية الطبية والاجتماعية المختلفة للعامل (أو الطالب) :

فأوجه الرعاية الطبية المختلفة التي توفرها مؤسسة العمل للعامل (أو مؤسسة التعليم للطالب) من وقاية من الامراض المختلفة التي يحتمل أن تعيبه ، ومن علاج لهذه الامراض ان هي أصابته ، سوف تؤدى الى الحفاظ على استعدادات الفرد الجسمية في حالة جيدة قادرة على العمل والانتاج ، اذ لا يخفى أن القدرة على الانتاج أو التحصيل تتطلب أجهزة جسمية خالية الى حد كبير من الامراض المعوقة (ابصار سليم ، سمع مناسب ، أطراف سليمة مرنة ، قوة عضلية مناسبة صحة جسمية عامة الخ) . هذا بالاضافة الى تلافي الاثر النفسي المدمر لروح العامل المعنوية ولقدرته على الانتاج ، والذى ينجم عن الاصابة بالامراض الجسمية .

كما أن أوجه الرعاية الاجتماعية المختلفة للعامل (أو الطالب) ، كتقديم العون المالي له ان ألمت به كارثة أو اشتدت حاجته اليه ، وتهيئة الرعاية الطبية لأسرته لقاء أجر رمزى ، وتوفير سبل مواصلات خاصة له ، وتقديم وجبات غذائية كاملة بأسعار رمزية .. كل ذلك سوف يعمل على خفض التوترات النفسية التي تصيب العامل ويقلل من الصراعات النفسية والمخاوف التي يتعرض لها ، كما يقلل من احساسه بالاحباط والمرارة الناجمين عن اعاقة اشباع دوافعه الاساسية . فتقل تبعا لذلك الاتجاهات النفسية السلبية المعرقلة لكفاية العامل (أو الطالب) الانتاجية وتزيد في نفس الوقت طاقته وقدرته على العمل والانتاج (أو التحصيل) فتتحقق له الشخصية المنتجة .

٦ – توفير الارشاد النفسي أو العلاج النفسي للعامل (أو الطالب) المحتاج له :

العامل (أو الطالب) انسان عرضة للكثير من المشكلات النفسية أو الاضطرابات الانفعالية أو الصراعات النفسية المرضية التى قد تستثيرها بيئة عمله (أو دراسته) أو بيئته التى يتحرك داخلها خارج مؤسسة عمله (أو دراسته) ٠ وكل هذا يجعله فى حالة نفسية غير ملائمة للعمل (أو التحصيل) ويعوق تحقيق الشخصية المنتجة فيه ، حيث تتبدد طاقته فى هذه الصراعات والمشكلات فلا يبقى منها الكثير الذى يمكن استثماره فى العمل (أو التحصيل) ٠ ومن هنا كانت الاهمية الكبرى لتوفير الارشاد أو العلاج النفسى للعامل (أو الطالب) الذى يكون فى حاجة اليه لحل هذه المشكلات وازالة هذه الصراعات وتخفيف تلك الاضطرابات ، وبالتالى حمايته مما يبدد طاقته هباءا ٠

ومما تجدر الاشارة اليه أن براون يعدد المجالات الصناعية التى تعكس بوضوح بعض الاضطرابات النفسية للعمال فى التالى :

١ – الانتاج : كما وكيفا واقتصادا ٠

٢ – الحوادث والامراض الصناعية ٠

٣ – الغياب والاضراب ٠

٤ – العصاب والاعتلال الصحى والتعب الصناعى ٠

٥ – التنقل فى العمل ٠ (براون : علم النفس الاجتماعى فى الصناعة – ترجمة الدكتور السيد محمد خيرى وآخرين – دار المعارف – ١٩٦٠ ص ٢٨٢) ٠ وبناء على هذا فان علاج اضطرابات العامل (أو الطالب) النفسية سيعمل على التقليل من هذه المظاهر السلبية فى الانتاج (أو التحصيل) فتتحقق بذلك – والى حد كبير – الشخصية المنتجة للعامل (أو الطالب) ٠ وكمثال فقط للتدليل على تأثير العلاج النفسى على تحقيق الشخصية المنتجة نذكر ما يقرره شيلو Shellow من أن معدل حوادث جماعة من السائقين قد انخفض بمقدار ٨٢٪ بعد أن عولجوا ٠ (المرجع السابق لجيزيلى وبراون ص ٣٧٣) ٠

خاتمة :

حاولنا فى هذا المقال أن نضع تصورا للشخصية المنتجة ولخصائصها السيكلوجية ، وأن نقدم بعض التوصيات التى رأينا أهمية العمل على تنفيذها لتحقيق الشخصية المنتجة فى كل عامل فى مؤسسة عمل أو طالب فى مؤسسة تعليم ٠ ولو تأملنا ما يحدث بمصر فى مؤسسات العمل أو التعليم فسوف نجد أن بعض المسئولين يتبنون الكثير من هذه التوصيات ويحاولون تنفيذها ، خاصة فى الحقبة الاخيرة من تاريخنا ، حيث تحاول خلق الدولة العصرية ، وذلك عن طريق تنظيم المجتمع والعمالة بمؤسساته على أسس علمية مدروسة ٠ فها هى مصلحة الكفاية الانتاجية والتدريب المهنى بوزارة الصناعة تستخدم الأسس العلمية فى عمليات الاختيار والتدريب التى تتم بها ، أو تشرف عليها ، أو تعاون فيها ٠ وهاهى وزارة العمل تنشر مكاتب فى مختلف أنحاء الجمهورية للتوجيه المهنى على أسس علمية ٠ وها هى معظم مؤسسات العمل تفطن الى أهمية التدريب وتفرد بها أقساما خاصة له ، وتنظم برامج متعددة لتدريب العاملين بها من كافة المستويات ٠ كما أن مؤسسات التأهيل المهنى ومراكزه تنتشر فى أماكن متعددة من الجمهورية هذا الى جانب محاولات المسئولين لتهيئة ظروف العمل الطبيعية والاجتماعية والنفسية المناسبة ، مع توفير الرعاية الطبية والاجتماعية والنفسية للعاملين أو طلبة العلم ٠ كما أن القوانين الخاصة باشراك العاملين فى الادارة والارباح وتأمين العاملين ضد النقل أو الفصل التعسفى وتوفير المعاشات والتعويضات لهم عند التقاعد أو الاصابة تستهدف جميعا نفس الغايات ٠

ومع ذلك ، فاننا نرجو المزيد من تطبيق هذه التوصيات (التى وضعناها فى هذا المقال) على أسس علمية سليمة – تقترب بها من الموضوعية وتبتعد بها عن الاهواء الشخصية – على مستوى أوسع بحيث يشمل معظم مؤسساتنا ، سواء كانت مؤسسات عمل أو تعليم ، فتطبيقها على أسس علمية ما زال محدودا للغاية ، لا يكاد يفى بما نحن فى حاجة اليه فضلا عما نطمح اليه ٠ ويكفى أن نشير الى أن مؤسسات العمل أو التعليم التى تطبق الاختيار أو التوجيه المهنى أو التربوى على أسس علمية لا تكاد تبلغ نسبة تذكر من بين مؤسسات العمل أو التعليم فى بلادنا ، هذا بالاضافة الى مختلف الصعوبات والعراقيل التى تواجه بعض المسئولين المخلصين الذين يحاولون تطبيق الاسس العلمية السليمة لتحقيق الشخصية المنتجة ، الا أن الرجاء معقود على سرعة تخطينا هذه المرحلة للحاق بالمجتمعات التى سبقتنا فى هذا المجال ٠

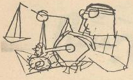
السير .. وفلسفة التاريخ

د. حسين فوزى النجار

قد نتجنى على السيرة اذا قلنا ان لها فلسفة خاصة مستقلة بذاتها عن التاريخ، فما السيرة الا صورة من صور التاريخ بل هى أبرز صوره وأشهاها الى النفس وأقدرها على ابراز التأثير المتبادل بين الفرد والمجتمع ، وقد تبدو السيرة وكأنها جماع تاريخ عصر بأكمله مما حمل « تيلور » على ادعائه بأن تاريخ أوربا تصوره سيرة ثلاثة أفذاذهم نابليون وبسمارك ولينين ، وحمل غيره على اعتبار أن التاريخ ليس الا سيرة عظماء الرجال . ولكنها ستبقى جزءا من التاريخ ينطبق عليها ما ينطبق على التاريخ ككل ، ولا يعدو تميزها تميز ألوان التاريخ الاخرى كتاريخ الفن والفلسفة والادب والحرب والسياسة فكل منها يصور جانبا من جوانب النشاط الانسانى فى تعدده واختلاف ألوانه ، وهو ما يحفل به ويعنى به التاريخ فى اطاره الحاضر ونهجه الحديث .

فاذا كانت السيرة جزءا من التاريخ ، فان ما ينطبق على التاريخ من مناهج البحث والتفكير ينطبق أيضا على السير ، واذا كان للتاريخ فلسفة ، فان السيرة فى الواقع هى المحور الرئيسى لفلسفة التاريخ ، فان الفرد أو بمعنى أدق الانسان بأفكاره وأعماله هو ما ينزع اليه فلاسفة التاريخ لتفسير ظواهره وتقنين أحكامه. ولا يعنى هذا أننا نجرد التاريخ من هيكله الاجتماعى . فليس الانسان الا ظاهرة اجتماعية وحين نتخذه محورا لفلسفة التاريخ فاننا نصل بينه وبين الزمان والمكان فى صورة كلية يبدو فيها الفرد جزءا من كل يتفاعل معه ، فيكون الحدث التاريخى نتيجة هذا التفاعل ، ويكون أثره التاريخى بقدر ما يعبر هذا الحدث عن شىء ما يبرز أثره فى الصورة الكلية للتاريخ .

ونستطيع أن نقول ان فلسفة التاريخ هى النظرة الفاحصة للحدث التاريخى وأثر هذا الحدث فى حياة الانسان والانسانية، أو هى التقنين العلمى لأحداث التاريخ ووقائعه، هذا التقنين العلمى يفسرها ويكشف عن حوافزها وتركيبها العام فى الكلية التاريخية . وبقدر ما نجمع على هذا المعنى أو تلك الحقيقة التى يمكن أن نعدها بديهية لانختلف عليها ، بقدر ما نختلف وتتشعب بنا السبل فى تفسير التاريخ وتقنين أحداثه ووقائعه وفقا لنظرتنا الخاصة اليها واستقرائنا لها لنصوغ من النتائج التى نصل اليها أو نتصورها قانونا علميا نخطىء فى تطبيقه حين نتمسك بشموله وسريانه على الكلمة التاريخية . فلم نصل بعد الى قانون كقوانين الفيزياء الرياضية يحكم أحداث التاريخ ويفسرها، وان قام منا من يتعصب لنظرية دون الاخرى يراها وحدها قمينة بتفسير التاريخ واحكام سيره ، وان وقفنا جميعا أمام الحقيقة التاريخية مسلمين بها فى قداسة لاتعلوها قداسة ، فالحقيقة مقدسة والرأى حر – كما يقال – ولا نستطيع أن ننكر واقعة تاريخية صدقتها الأدلة والشواهد والانسانية ، كما لا نستطيع أن ننكر قيام شخصية تاريخية لعبت



دورا فى التاريخ مهما كان تافها، وكل مانستطيعه اذا سلمنا بوقوع الحدث التاريخى أن نتنـــاوله بالتحليل والتفسير وفقا للنظرية التى ندين بهـا أو وفقا لنظرتنا الخاصة اليه ، وقد يبــــدو الحدث مغلفا بالابهام والغموض فنضنى فى تحقيقه واثباته أو انكاره ، وتلك هى طلبة المؤرخ ،فاذا عدناها الى التحليل والتفسير انتقلنا من التاريخ الى التأريخ ، وكنا أقرب الى المنهج الحديث فى دراسة التاريخ وان لم نصل بعد الى فلسـفة التاريخ ·

واذا كان فى قدرتنا أن ننكر الحدث التاريخى ما لم تثبته الادلة والانسانية ، فليس فى قدرتنا أن ننكر قيام شخصية تاريخية ما لم ينأ بنا الزمن بعيدا عنها حتى لتدخل فى عصور ما قبل التاريخ، فاذا شككنا فى قيامها فلأنها انحدرت الينـــا مغلفة بالاســـاطير التى سبقت عصر التدوين التاريخى وليس هناك ما ينم عنها غير الاسطورة أو القصص الدينى على قداسته ، أو ما ينسب اليها من أثر باق ، فكثـــيرا ما ننسب الالياذة والأوديسه الى شعراء عــديدين وان نسبت الى هوميروس ، ولا نعرف ما اذا كانت ايزيس الالهة المصرية القديمة شخصا حقيقيا أو معنى مجردا ، حتى أنبياء العهد القديم قد لا نجد سندا لقيامهم غير الايمان الدينى بصحة ما ورد عنهم فى التوراة أو القرآن ، فاذا اقترن هذا الايمان بالســـند التاريخى أصبح يقينا ·

فالشخصية التاريخية يثبتها قيامها واحتلالها صفحة من صفحات التاريخ ، ولا يرقى الى قيامها الشك بعد ذلك · وأمام هذه الحقيقة لا نملك الا أن ندخلها فى مضمار البحث التاريخى مهمـــا كانت تافهة ومهما كان دورها من الضـــآلة فى التاريخ فقد قامت بدورها ولا نستطيع أن ننكر هذا الدور وأصبح علينا أن نحكم لها أو عليها تبعا للأثر الذى خلفته على صفحة التاريخ ، وقد نقترب بهذا الحكم من ميدان الفلسفة التاريخية وقد نظل بعيدين عنه ، فاذا قلنا مثلا مع ماركس « لقد خلق الصراع الطبقى فى فرنسا ظروفـــا يسرت لكثير من غمار الناس أن يمشوا بخيـلاء الابطال وأرديتهم » واذا قلنا ان نابليون لو جـاء فى غير الثورة الفرنسية لما أصبح امبراطورا ، أو أن سعد زغلول لو لم يواجـه ثورة ســــنة ١٩١٩ ، لما عدا أن يكون وزيرا ومحاميا نابها ، ولما كان هذا الزعيم الشعبى الذى رنت اليـــه الجماهير فى مصر فى قداسة واكبار · فان هــذه الفروض قد تلج بنا ميدان الفلسفة التاريخية ، أو فلسفة السير اذا أردنا نوعا من التحديد ، بينما اذا قلنا نابليون القائد العسكرى المظفـر أو الامبراطور الذى حـــاول أن يبعث ذكـرى الامبراطورية الرومانية المقدسة ، أو صـــاحب فكرة القانون المدنى الفرنسى ، واذا قلنا ســعد زغلول وزير المعارف المصرية عام ١٩٠٧ ، أو زعيم الثورة المصرية سنة ١٩١٩ ، فاننا لا نعدو محراب التاريخ ، ونبقى مؤرخين فحسب ·

فاذا كانت فلسفة التاريخ ـ كما يرى هيجل ـ

ولا يخالفه فى هذا مفكر آخر من ماركس الى كولنجوود ومن كيركجورد الى سارتر — هى : « تدبر التاريخ وامعان الفكر فيه » وان اختلفت بينهم النتائج ، فليس هناك ما يمنع أن تكون السير أو الشخصية التاريخية ، **وهى جزء من الكل التاريخى** موضعا للتدبر وامعان الفكر ، أو بعبارة أخرى مجالا رحبا لفلسفة التاريخ .

فلسفة السيرة :

وتهدينا فلسفة التاريخ الى فلسفة للسيرة التاريخية اذا أردنا أن تستقل بفلسفة لها قائمة بذاتها وان ظلت وثيقة الصلة بفلسفة التاريخ ، اذ لا تستطيع أن تنفصل عنها ما دامت السيرة فى صميمها تاريخا وان كانت تاريخ فرد بذاته .

ولكن هل تخضع السيرة لما يخضع له التاريخ العام فى جزئياته أو فى كليته المطلقة التى يمكن أن تتحرر من قيد المكان لتضرب فى حدود الزمن الى أعمق ما تصل اليه الآماد التاريخية من معرفة بالانسان وللانسان ؟ .

فالجزئية — كما نعتقد ولا يخالفنا فى ذلك مفكر آخر — تقف عند زمان ومكان محددين ، ومهما لجت فى امتدادها فانها تتعلق بواقعة أو عدد من الوقائع المترابطة تصل الى مداها الاخير فى حقبة معينة من الزمن ، ومهما تركت من آثار على صفحة التاريخ فان امتدادها من حيث الشكل أو المظهر يقف عند هذه الحقبة من الزمن التى شهدت امتدادها ، وان بقيت جذورها الفكرية تلوح بين الحين والحين على صفحة الحاضر ، فاذا قيل ان حضارة مصر القديمة قد عفت وزالت من حيث الشكل ، أو أن بناء الاهرام ظاهرة لا تتكرر فى الوقت الحاضر ، فلا يعنى هذا أن حضارة مصر القديمة لم تترك لمساتها الخالدة على صفحة الفكر المصرى ، أو أن فكرة بناء الاهرام لم تعد باقية فى فكر الانسان الحاضر ، فما زال الفكر المصرى أو الروح المصرية تند بين الحين والآخر بما يثبت اتصالها على الزمن اتصالا يتضاءل فيه الشكل أو المظهر ، فمصر الفرعونية — كما يقول جوستاف لوبون — حية فى مصر العربية باقية فى مصر الحاضرة ، مما يفسر قول الفيلسوف « **رينان** » : « مصر فى شيخوختها هى مصر فى طفولتها حتى لكأن حضارتها قد ولدت مكتملة النماء » ، وما زالت فكرة بناء الاهرام باقية فى المقابر والنصب التى تقام لتخليد العظماء . كالانفاليد فى باريس ومقبرة وستمنستر فى لندن ، وقبر سعد زغلول فى القاهرة ، فقد يفنى الشكل ولكن الفكرة التى تقبع وراءه تبقى حية وان غلفها التطور بغلاف جديد وغزت فيها يد التقدم بالتغيير الموائم للتطور .

وأما الكلية فهى النظرة الشاملة الممتدة للتاريخ على اختلاف المكان وعلى مر الازمنة والعصور ، النظرة التى يبدو فيها التفاعل التام بين الانسان والزمان وبين الانسان والمكان ليكتب ملحمة الانسان فى وجوده على الأرض .

وقد تبدو السيرة أقرب الى الجزئية منها الى الكلية اذ تتعلق بزمان ومكان معينين ولكنها لا تخلو من النظرة الكلية للتاريخ لما يربط الانسان بالانسان من تشابه الحوافز والطموح والملكات التى تؤثر فى سير التاريخ العام ، بل وتشابه الوقائع التاريخية أيضا ، فمهما اتخذنا من الواقعة أساسا للحكم التاريخى أو لدراسة التاريخ ، فلا ننسى أبدا أن الواقعة التاريخية هى من صنع الانسان ، وأن الذاتية مهما تأثرت بعوامل أخرى دخيلة — أصيلة أو طارئة — هى التى تحكم أفعاله ، فمهما يكن من صرامة الحتمية التاريخية فسيبقى الانسان سيد نفسه وسيد ارادته على الاقل بالنسبة لمن يصنعون التاريخ اذ يملكون مهما كانت حتمية الظروف التى تحيط بهم نوعا من حرية التكيف مع الحتمية ، وان كنا لا ندين بحتمية مطلقة مطلقة للوقائع التاريخية ، ولا ندين بأن الحوافز حرة مطلقة فى التعبير عن أرادتها ، والا تداعى معنى البطولة فى التاريخ . والقدرة على التحدى والتكيف أو الاستجابة — على حد تعبير توينبى — هى التى تثبت قدرة البطل فى التاريخ ، وبقدر ما يملى البطل ارادته فى عصره تكون بطولته وتكون حفاوة التاريخ به ، وهى نفس القدرة التى يسندها توينبى للشعوب القادرة على البقاء . فالقدرة التى يتصف بها البطل أو العظيم أو تغدو دليلا على نهضة شعب ما — مهما كانت أسبابها — تمثلها دائما واقعة أو فعل ، وهذه الواقعة أو الفعل تمثل على الدوام شيئا معينا فى فكر البطل أو فى فكر المجموع هو الذى يسبق الحافز ، وهذا الشىء هو الذى يضنى فيلسوف التاريخ فى السعى اليه ، وان دونه جهد المؤرخ

الذى يسعى وراء الواقعة وحدها ، وان أصبحت الواقعة وحدها تبدو جافة صماء جامدة ما لم نضفى عليها الحياة بقدرتنا كمؤرخين على ابراز هذا الشيء الكامن وراءها .

وتعرض فلسفة التاريخ للجزئى كما تعرض للكلى ، فالمعرفة التاريخية تقوم أصلا على الجزئى وان كانت لا تكتمل الا فى الكلى ولكن الكلية التاريخية ليست سوى مجموع من الجزئيات المترابطة ، وهى جزئيات يحكمها التعاقب كما يحكمها أيضا التفاعل الذى يتم بين عدد من الافعال ليكتمل منها حدث تاريخى ، وهى جزئيات لا تبرز فى اطارها الخارجى كما تبرز فى مضمونها الداخلى ، مما يضفى عليها الحيوية والنماء اللازمين لدراسة التاريخ ، وهو ما عناه « **تيو سيديد** » **فى كتابته عن** « **حرب البلوبونيز** » **وراه سنت اغسطين** فى الارادة الالهية التى تخضع الكون لمشيئتها الازلية ، ونحابه مكيافيللى نحوا جديدا كان نواة للمنهج التاريخى الحديث حين جعل من الواقعة التاريخية وسيلة مرسومة لغاية محددة .

فالاطار الخارجى للأحداث لا يمنح التاريخ غير وقائع يابسة جافة ، قد تبدو فى كثير من الاحيان كئيبة مظلمة حين نحررها ؛ بهذا الاتجاه ؛ من الفكر والاحاسيس والمشاعر أو الحوافز الانسانية التى تمنحها القدرة والحيوية وتضفى عليها الطابع الانسانى الخلاب ، وسواء كانت الحوافز عملية حددها الواقع أو حددتها المصلحة أو نمت عن طبيعة الانسان المجردة بكل أحاسيسها ومشاعرها الداخلية فانها هى وحدها التى تبرز المضمون الداخلى للتاريخ ، وهى وحدها التى تكشف عن عظمة الانسان فى هذا الكون الفسيح ، الانسان بكل متناقضاته وان أورثته هذه المتناقضات الغربة فى عالمه ، وقد تبدو هذه المتناقضات فى طبيعة الانسان — وهى دون شك — المحرك الاول لأحداث التاريخ ، وهى التى نضنى — كمؤرخين — فى البحث عنها لنكشف عن السر الكامن وراء الأحداث وننفذ منها الى مضمونها الداخلى .

فالانسان تحركه حوافزه ، أيا كانت هذه الحوافز ، وان كنا لا نجردها من طابع الزمان والمكان ، ووقر البيئة ، وثقل التقاليد والمأثورات القائمة ، ومهما يكن جهد الثائر فى تحطيم القديم البالى ، فسيبقى أثر البيئة والوراثة قابعا فى أعماقه وان جرده مما لا يوافق عقله أو هواه .

وهذه الحوافز هى التى رآها مكيافللى فى صورة أهداف عملية محددة يسعى الانسان الى تحقيقها فى عنف واصرار . ورآها هردر فى صورة مشاعر وأحاسيس نبحث عنها وراء الفعل الانسانى ، وحددها **رانكى** بالبحث عن العلل والاسباب التى تكمن وراء الحدث التاريخى ، وراح فى موضوعية صارمة يتساءل : كيف حدث هذا بالعقل ، وأنكر ذاتيته ليجعل للواقعة التاريخية صوتها المسموع وحده ، ووعاها **مومسن** فى التشريع الرومانى فلم يعن بالامتداد السياسى للدولة الرومانية بقدر ما عنى بالقوى الكامنة التى تسوق الناس فى حياتهم المدنية ، ورأى فى نظام الحكم الرومانى الاساس لمعرفة تاريخ روما ، وعندما كتب « القانون الدستورى الرومانى » ، استطاع أن يضفى الاضواء على ما رواه فى كتابه السابق « التاريخ الرومانى » ، وان لم يات على ذكر الحوافز الا أنه غاص فى أعماقها بشرح العوامل التى تسيطر على حياة الناس وتسوقهم ، وعلينا حين نستشهد **بمومسن** أن ندرك تماما أن الحوافز الفردية أو الانسانية ليست مطلقة تماما ، وانما تتأثر كما قلنا بعاملى الزمان والمكان ووقر البيئة وفى رأينا أن الحوافز لا تنجو أبدا من تلك المؤثرات حتى وان فرضها القانون أو فرضها الاستبداد .

وقد تبدو الحوافز قابعة وراء التركيب الكلى للتاريخ حين تخضع لعوامل ممتدة وطاغية طغيان القانون الرومانى على حياة الرومان فى رأى مومسن أو طغيان القوى الاقتصادية فى رأى ماركس ، أو حتى طغيان القوى الدينية بما تضفيه من جبرية مطلقة فى رأى اللاهوتيين . ولكن الجزئية التاريخية متمثلة فى واقعة أو حدث ، وان بدا أقرب تأثرا بالحافز الفردى ، الا أنها تخضع بدورها للحوافز العامة الممتدة فى أذهان الناس والقابعة — خفية أو سافرة — فى أعماقهم ، مما يحمل أحيانا على الاعتقاد بأن الثائر ، أو المنشق فى التاريخ كما يدعوه — **ادوارد كار** — يمثل ذاته ، وبالتالى يمثل نوعا من الخلاف بين الفرد والمجتمع ، اذ أن الثائر أو المنشق لا يعبر عن حوافزه الذاتية ، بقدر ما يعبر عن حوافز قابعة فى أعماق جيله أو عصره تحول التقاليد أو الافكار السائدة أو النظم القائمة دون التعبير عنها ، وان كانت لا تقهرها فتبقى خفية حتى يأتى الثائر فيتحدى التقاليد أو الأفكار أو النظم ، ويكشف عن الحوافز القابعة وراءها . وجاء تعريف هيجل « للرجل العظيم » مستويا مع هذه الحقيقة « **فالرجل العظيم فى العصر — كما يقول — هو الرجل الذى يستطيع أن يصوغ فى**

عبارات ارادة عصره ..وان يحققها ..» فالحافز الذى وراء الفعل أو الواقعة التاريخية ، ما هو الا تعبير عن حافز عام يقبع فى الذهن الاجتماعى ويسود بصورة خفية نوازع المجتمع .

واذا كنا لا نستطيع أن نفهم التاريخ من معرفتنا لجزئياته منفصلة عن بعضها أو عما يربطها بالماضى فى تطوره ، فاننا لا نستطيع أن نصل الى المعرفة التاريخية الا بادراك الحوافز العامة التى تسود مجتمعا من المجتمعات نعنى بدراسته ، وكلما امتد هذا المجتمع واتسع ، امتدت دراستنا للحوافز التى تسوقه واتسعت ، ويبدو الامتداد والسعة ظاهرة يتصف بها مجتمعنا الحاضر أكثر مما كانت تتصف بها المجتمعات القديمة ، ومهما يكن من صور الخلاف فى المجتمعات العالمية الحاضرة الا أنها أصبحت فى مجموعها تخضع لنوازع واحدة وان بدت الحوافز بينها متناقضة ، تناقضها بين المجتمع السوفيتى والمجتمع الامريكى ، وان كنا لا ننكر أن نزعة كل منهما للسلام واحدة .

فالمعرفة الكلية هى الاساس العلمى لفلسفة التاريخ ، وحين أصبح للتاريخ فلسفة بقيام المنهج الحديث للتأريخ (وأن رددناه الى الاغريق، وجاء ابن خلدون فأضاف اليه) الا أن النظرة العلمية التى تأثر بها المؤرخون المحدثون ، هى التى جذبت المعرفة التاريخية الى مضمار الفلسفة والتفكير الفلسفى .

ويرى **همبولت** أن التاريخ يعرض لكل صغيرة من أحداث العالم كما يعرض لكل صور الفكر التى تتجاوز المألوف ، ويتناول الوجود كله ما هو قريب وما هو ممعن فى البعد ، فاذا كانت النظرة الشاملة للوجود الانسانى هى ما تنشده المعرفة التاريخية، فان نظرتنا الى السير التاريخية لن تقف عند حدود العصر الذى عاشته ، بل تمتد لنرى فيها صورة للوجود الانسانى فى امتداده وكما كان هذا الامتداد فى الواقع وان غبر وأوغل فى أعماق الزمن ، فما زالت سير بلوتارك تحمل من الجدة ما تحمله سير كارليل ، وما زالت قصة سنوحى المصرى مهما اضفى عليها الخيال من روعة تقترب من الحقيقة اقتراب « كازانوفا » ستيفن زفايج منها ، فتنبض «سنوحى» بكل ما ينبض به كازانوفا من ملامح العصر . فان كتاب السير يجدون فى أنماط من شخوص التاريخ التى تتجاوز بأعمالها حدود المألوف صورا فنية يضفون عليها ألوانا من الخيال ، فان هذا الخيال يقع دائما فى دائرة التخيل التاريخى الذى لا يتجاوز الحقيقة ولا يغرق فى الخيال ، وتبقى فيه صورة العصر أقرب الى الواقع التاريخى من الأحداث التى يحشدها الكاتب للقصة التاريخية ، وحينئذ نقول أن كتاب السير غير مؤرخى السير ، وان القصة التاريخية مهما كانت صادقة فى تصوير العصر غير السيرة التاريخية التى تعنى بالحقيقة التاريخية وحدها ، وتسعى وراء الواقعة مجردة من ثوب الخيال . قد تبدو السيرة التاريخية ،فى يد مؤرخ بارع يملك من القدرة على وزن الحقائق وتصفيتها ما يملك من قدرة التخيل ، أروع وأكثر تشويقا منها فى يد قصاص صناع يغرق فى الخيال ، وان كنا لا نبحث عن الاثارة والتشويق فى كتابتنا للسيرة التاريخية بقدر ما نبحث عن الحقيقة عارية فى حياة أصحابها ، الا أن الحقيقة كثيرا ما تكون أكثر اثارة وتشويقا من الخيال ، فان نبض الحياة فى واقعها أكثر اثارة من الخيال فى اغراقه،وكثيرا ما تجذبنا سير لودفيج وزفايج واندريه موروا وهيكل وعبقريات العقاد وأكثر مما تجذبنا قصص ديماس ووالتر سكوت وجورجى زيدان .

ولا تكتمل قدرة مؤرخ السير الا فى رباط من الكلية الشاملة تتبدى فيها وحدة المعرفة التاريخية وهى ما ننشده من فلسفة السير .

السيرة والمعرفة التاريخية :

فاذا كانت المعرفة التاريخيةهى ما تبغيه فلسفة للتاريخ على اعتبار أن المعرفة التاريخية لا تقف عند الحدث أو الفعل واثبات وقوعه وانما تتجاوزها الى ادراك العلاقة الكلية بين الأحداث أو الأفعال الجزئية وتفسيرها ، وان العملية العقلية لهذا الادراك هى ما نطلق عليه « **التفكير التاريخى** » وان الفلسفة اجمالا هى تحليل عمليات الفكر ، فان التفكير التاريخى ،كالتفكير الفلسفى يتطلب تفكيرا وموضوعا للتفكير ، يراه كولنجوود أساسا للمعرفة التاريخية ، اذ يقول أن التفكير فى علاقته بموضوعه لا يعد من قبيل التفكير المجرد وانما يعد من قبيل المعرفة ، فاذا كان على المؤرخ - كما يقول - أن يتعرف على الماضى كشىء قائم بذاته ، فان ما يعنيه الفيلسوف هو البحث فى الأسس التى قامت عليها معرفة المؤرخين بالماضى، وهى معرفة يحتم عزلتها عن الفلسفات الاخرى

« حتى تستطيع أن تثبت بنفسها ان المعرفة التاريخية ممكنة » .

فالمعرفة التاريخية فى نظر المؤرخ هى معرفة الفعل أو الحدث كما كان ، وفى نظر الفيلسوف هى البحث عن الاسباب أو العلل التى تكمن وراء الفعل أو الحدث ، مما يحمله ـ جريا وراء العلة أو السبب ـ الى افتعال القوانين التى تحكم مجرى التاريخ ـ فكان الخلاف بين الفلاسفة عن طبيعة المعرفة التاريخية أكثر مما كان بين المؤرخين ، واتهم المؤرخون الفلاسفة بأنهم لا يعرفون التاريخ كما اتهم الفلاسفة المؤرخين بأنهم يتعلقون بوقائع صماء جامدة لا تعنى شيئا ، وانهم ليسوا أكثر من «مدونى تقاويم » .

وبقدر ما ينكر المؤرخون على الفلاسفة عملهم التاريخى أو تناولهم للتاريخ ، ويتهمونهم أحيانا بقصور معارفهم التاريخية ، بقدر ما يقف المؤرخون صامدين دفاعا عن الحقيقة فى الواقعة التاريخية ، ويأخذون على الفلاسفة تعدد نظرياتهم وتضاربها فى كثير من الاحيان مما يجنى على كنه التاريخ ، ويفتات فى تفسيرهم للوقائع على مجرى التاريخ ذاته حين يجمدونه فى اطار النظرية على تعددها وتضاربها لديهم .

الا أن المؤرخين فى الواقع ليسوا مجرد «مدونى تقاويم » ، كما أن الفلاسفة ليسوا طغاة يفرضون سلطانهم على المعرفة التاريخية أو على مجرى التاريخ ، والخلاف بين الطرفين لا يعدو التفسير التاريخى . فالمؤرخون لا يقفون عند رواية الوقائع فحسب ولا يتناولون الأحداث والافعال كوقائع منفصلة قائمة بذاتها ، ولكنهم يعبرون عن نظرتهم للوقائع التاريخية فى ذاتها وفى ارتباطها ببعضها . ومهما جهد المؤرخ فى الوقوف عند رواية الفعل أو الحدث فحسب ، فانه لا يستطيع أن يتجرد من ذاتيته ولا من وقر ببيئته أو زمانه فنراه يدون الواقعة فى الصورة التى يرضاها ويرضى عنها عصره ، ويبدو فى هذا مؤرخا رديئا اذا أوغل فى التعبير عن ذاتيته بما يرضى عصره الا أنه فى الواقع لا يحس أنه قد خرج عن الاطار الذى يفرضه التجرد أو الموضوعية ، وكل ما يحدث أنه يفكر بطريقة عصره ، فلم يكن « أوزبيوس » حين كتب « تاريخ الكنيسة » فى القرن الرابع ، ولا « سنت أوغسطين » حين كتب « مدينة الله » فى القرن الخامس ، يريان أنهما كتبا تاريخا رديئا بالرغم مما حظيا به من تقدير عصرهما ، ولم يفكرا فى



أن ما كتباه لن يعدو بعد عشرة قرون كونه قصصا لاهوتيا خاليا من الفلسفة الحقة والتاريخ الصحيح .

ولا يعتقد الماركسيون – واذا قلت الماركسيين فلأن نظريتهم هي أكثر النظريات رواجا في العصر الحديث – أنهم يكتبون تاريخا رديئا حين يخضعون مجرى التاريخ لعامل واحد هو العامل الاقتصادى ، اذا انهم وان كانوا لا يعبرون عن ذاتيتهم بقدر ما يعبرون في موضوعية صارمة عن نظرتهم للتاريخ ، الا أن مثل هذه النظرة أشد وقرا على التاريخ من الذاتية الفردية للمؤرخ . فسواء عبر المؤرخ عن ذاته ، أو عبر عن نظرة عامة مهما قيل أنها نظرة عصره ، فانه في الحقيقة يجرد نفسه من الحكم الموضوعى على الوقائع . ويسرى هذا الحكم على غيرهم ممن يخضعون التاريخ لنظرتهم الذاتية أو لنظرية يدينون بها أو من قبيل الدعاية أو التبرير لنظام قائم ، ويستوى في هذا الماركسيون والنفعيون المثاليون والعقليون والجماعيون والفرديون والكاثوليك والبروتستانت والملكيون والجمهوريون وغيرهم ممن يتطلبون من التاريخ تأييد نظام معين أو مذهب خاص أو نظرية فى السياسة أو الاجتماع .

ويبدو أننا كلما أوغلنا فى الماضى بدت صورة التاريخ واضحة نقية خالية من شوائب الاثرة والتحيز التى يصنعها الحاضر أو الاقتراب منه فضلا عن سياسة الدولة الحديثة التى تخفى وثائقها عن أعين الباحثين ، وتظل تخفيها حتى لا يبقى لها أثر على مجريات أمورها ، فلرب وثيقة من هذه الوثائق التى يضمها الارشيف السرى للدولة تغير من الحقائق الدارجة ما لم يخطر على بال المؤرخ الذى قام بتدوينها وأكد صحتها قبل أن يطلع على الوثيقة المخفية أو يعلم بها ، فالتاريخ المعاصر – وان كنت من كتابه – تاريخ ردىء ، لأنه لا يلم بالحقائق كاملة ، ولا يراها الا من خلال الاحداث الجارية ، أو الصورة التى تراها الدولة لها ، أو ترسمها لنا عقيدة عصرنا أو أهواؤنا الشخصية ، وان بدا التاريخ أكثر اثارة وتشويقا كلما اقتربنا من عصرنا لأنه يرضينا بالتعبير عن عقائدنا وأهوائنا ، ولكنه يبقى بعد ذلك تاريخا رديئا ما دامت الحقيقة فيه ناقصة تخفيها خزائن الوثائق السرية ، فاذا أوغلنا فى مجرى الزمن بعيدا عن عصرنا بدت لنا أحداث الماضى فى صورة أصح وأوضح كما يقول بوركار حتى ليرى أن تاريخ أثينا هو أفضل مثل لما نستطيع تحقيقه فى المعرفة التاريخية .

ولا يعنى هذا أننا نتنكر للتاريخ المعاصر أو ننكره فان الصورة التى تبدو ناقصة اليوم ستكتمل دون شك غدا ، والذاتية التى تتحكم فينا عند النظر الى أحداث جيلنا ، لن تتحكم فيمن يأتى بعدنا ، ويغدو أقرب تاريخ الى الدقة هو تاريخ العصر السابق لنا ، فاذا قلنا مع بوركار أن تاريخ أثينا هو أفضل مثل لما نستطيع تحقيقه فى المعرفة التاريخية فان هذا لا ينفى فى نظرنا أن تاريخ القرن التاسع عشر أصح وأكثر دقة من تاريخ أثينا .

ولا يفضل الفلاسفة المؤرخين فى هذا ، فاذا كانت روح العصر تطغى على المؤرخين وتتحكم فى ذاتيتهم ، فانها أكثر طغيانا على الفلاسفة حين تتحكم فى تفكيرهم وتسوقهم الى اقتناص النظرية التى تتلاءم مع روح العصر ، فما الفيلسوف فى الواقع الا روح عصره الناطق بضميره . وبقدر ما تتعدد أو تتضارب آراء الفلاسفة فى عصر من العصور ، بقدر ما يتعدد ويتضارب تفكير العصر ، ولكنهم يبقون بعد ذلك معبرين تماما عن روح عصرهم بكل ما يحفل به من استواء أو تناقض حتى لنرى فى تطور الفكر الفلسفى تطور الروح الانسانى على امتداد الزمن ، وفى نظرته المسبقة ما ينبىء عن الامل المرئى للفيلسوف عن المستقبل وان كان من الحتمى ألا ينبىء عن الواقع الحقيقى للمستقبل ، فمهما أوتى الفيلسوف من قدرة على الاستشفاف أو استقراء القوانين التى تحكم الحياة أو استنباطها فستبقى نظرته قاصرة عن الالمام بالجزئيات التى تحكم القانون الكلى للحياة ما لم يستسلم لعالم الميتافزيقا فتغيم نظرته عن المستقبل أو يفتعل القوانين التى يظنها تحكم سير الحياة فيخطىء المستقبل رؤياه ويهدم القوانين التى وضعها .

واذا كان للفيلسوف أن ينظر للحياة فى كليتها الشاملة وفى امتدادها اللانهائى ، فان المؤرخ يقف دائما عند الماضى وعند أحداثه التى وقعت بالفعل فاذا تجاوز هذا الماضى ولج فى التنبؤ بالمستقبل فقد وقع فى الخطأ الذى يقع فيه الفيلسوف .

ولا يعنى هذا أن المستقبل صورة مغلقة أمام الفيلسوف والمؤرخ على السواء ، فان التكامل الذى

يحكم سير الحياة ويسيطر على أحداثها يمكننا من استقراء النتائج التى تتمخض عنها الأحداث الواقعة أو التى وقعت فى الماضى القريب ، أو يمكننا على الاقل من رؤية الصورة الكلية للتطور الحضارى على الارض بل ويمكننا أحيانا من تحديد معالم الحضارة القادمة ومواقعها، وان كان هذا التحديد يخضع بدوره لعوامل قد لا نراها واضحة فى جيلنا ما لم نغرق فى التخيل الذى غرق فيه جول فيرن وصدق فى أشياء كثيرة استنادا الى الاستقراء العلمى ، فلم يكن جول فيرن يتنبأ بقدر ما كان يستقرىء ملهمات العلم الحديث ·

فاذا قلنا أن المستقبل ليس صورة مغلقة على الدوام ، فاننا لا ندعى القدرة على التنبؤ وان كان من حقنا أن نتخيل ، ولكن التخيل لا يخضع دائما للعلم ولا نستطيع أن نقيم عليه قانونا علميا ، وسيبقى حتى فى أكثر مرائيه علمية أملا قادرا على الاثارة فحسب ، وليس من شأن المؤرخ أن يتخيل المستقبل ، كما وليس من شأن الفيلسوف أن يهوم فى فراغ ، ومهما قيل من أن احداث التاريخ تخضع للتعقل أو تتبع اتجاها معقولا وان لها غاية حكيمة أبدية كما يرى هيجل ، أو أن عوامل معينة تتحكم فى سيرها يراها ماركس ممثلة فى العامل الاقتصادى ، أو انها تتأثر بالدولة أو الدين أو الحضارة أو بهما معا فى رأى بوركات، أو أنها نتاج للعقل الالهى والعقل الانسانى على السواء كما يرى فيكو مما يوحى بالقدرة على استقراء المستقبل ، فسنبقى عاجزين دائما عن رؤية المستقبل أو وضع قانون علمى يحكم احداث التاريخ أو القول بحتمية تاريخية ، ويتحدد لنا الاطار الزمنى للمعرفة التاريخية ، حيث يصبح الماضى كله ملكا للتاريخ ·

ولكن الى أى حد يمكن أن تكون معرفتنا التاريخية سليمة ، وهل هى من شأن المؤرخ وحده أو من شأن الفيلسوف أو من شأنهما معا ؟

وقد تبدو الاجابة على الشق الثانى من السؤال واضحة فى مناقشتنا السابقة ، الا أننا نعود فنقول أن المؤرخ اذا كان من شأنه أن يبحث عن ماحدث فى الماضى ويتقصاه ويثبته أو ينفيه ، وأن الفيلسوف اذا كان من شأنه أن يبحث عن العلل والأسباب التى تكمن وراء الفعل أو الحدث، فان عملية الفحص والتمحيص التى يقوم بها المؤرخ لاثبات الحدث أو نفيه تتطلب تشخيصا عقليا للمعقول وغير المعقول مهما تواترت الرواية عن حقيقة ما حدث مما رده ابن خلدون الى اعتماد المؤرخين على مجرد النقل دون عرضها على أصولها أو قياسها بأسبابها أو سبرها « بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار » ويضرب لذلك عدة أمثلة منها ما رواه «المسعودى وكثير من المؤرخين فى جيوش بنى اسرائيل وان موسى عليه السلام أحصاهم فى التيه ، بعد أن أجاز من يطيق حمل السلاح خاصة من ابن عشرين فما فوقها ، فكانوا ستمائة ألف أو يزيدون » · فيناقش هذه الرواية وينفيها ،بل وينفى أن يبلغ جيش اسرائيل مثل هذا العدد بعد « أحد عشر أبا » ولا يقف عند هذا بل يشير الى المصدر الاصلى وهو « ما ثبت فى الاسرائيليات أن جنود سليمان كانت اثنى عشر الفا خاصة وأن مقرياته كانت الفا وأربعمائة فرس مرتبطة على أبوابه » ويقول أن « هذا هو الصحيح » ومنها ما دخل على المؤرخين « فى سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه » فيناقشهم ويكذب روايتهم ويرد نكبتهم الى أسبابها مما « كان من استبدادهم على الدولة واحتجافهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه» ·

وعملية الفحص والتمحيص هذه التى ينشدها ابن خلدون للمؤرخ ويراها أساسا لقدرته على تبين الحقيقة وسط ركام من الروايات المتواترة أو المتناثرة هى بدورها الاساس الذى تقوم عليه فلسفة التاريخ جريا وراء القوانين التى تحكم مجرى التاريخ ، فاذا كانت قدرة المؤرخ على الفحص والتمحيص هى التى تهديه الى الحقيقة فان قدرة الفيلسوف عليهما هى التى تهديه أيضا الى تبين الرباط الخفى للأحداث بعضها ببعض فليس أهدى من الحقيقة للفيلسوف فى تبين القانون الذى يوجه الأحداث أو يحكم مجرى التاريخ ·

فاذا لم يكن المؤرخ فيلسوفا يتحرى العلة والسبب ويتبين الكلية التاريخية من الجزئيات الصغيرة أو الاحداث الفردية ، فقد قصر همه على التدوين التاريخى وأصبح من كتاب التقاويم ولم يعد من كتاب التاريخ أو من المؤرخين بالاحرى· واذا نأى الفيلسوف عن محراب التاريخ ولم يلم بوقائعه وأحداثه لأصبح من العسير عليه أن يضع

نظرية للمعرفة التاريخية واذا لم يكن على المام شامل بالتاريخ لجاءت نظريته فجة لا تستند على واقع ولا تقوم على برهان أو دليل ، فالمعرفة التاريخية نتاج عمل المؤرخ والفيلسوف معا لا تستقيم ما لم تلفح الفلسفة روح المؤرخ أو يقتعد الفيلسوف محراب التاريخ أو يكون المؤرخ فيلسوفا ومؤرخا معا اذا قلنا أن التاريخ هو صناعة المؤرخ فحسب ٠

ولا تبدو المعرفة التاريخية سليمة الا من خلال نظرة الفيلسوف وقدرة المؤرخ معا ، فالمؤرخ يصور الاحداث ما شاهدها وما سمع بها وهو بين المشاهد والمسموع لا يتحرر من قيد الزمان والمكان فتبدو روح عصره ماثلة فيه ، حتى وان لم يتجن على الحقيقة التاريخية ، فالوقائع تثبت دائما ما قام عليها البرهان وأثبتها الواقع الذى أجمعت عليه المصادر الصادقة على اختلافها ٠ فهناك وقائع لا تقبل الجدل فى حقيقتها، فليس هناك من يمارى فى بناء الاهرام وانها شيدت قبرا لفرعون من فراعنة مصر فى زمن معين ، وأن القبور الملكية كانت فى ذاك الزمن على هذا النمط وهى حقيقة أخرى لا تقبل الجدل اذ سبق ذلك الزمن نمط آخر فى بناء المقابر ، كما لحقه نمط آخر جاء بعده بقرون وكان ثمرة تطور من نوع ما ، تطور فى البناء الهندسى للمقبرة ، أو تطور فى الحوافز التى أدت الى هذا التغيير ، أو تطور فى العقيدة الدينية، وكلها فروض تقتضى من المؤرخ أن يتقصى حقيقتها ، فالثابت لديه ، وهو واقع مشاهد وملموس أو هو من قبيل المدركات الحسية أن قبرا أقيم على نمط معين ، وان هذا النمط ساد لفترة من الزمن ، ثم أعقبه نمط آخر مشاهد وملموس أيضا اذ لا يزال قائما أمام أعيننا ، أماعلة ذلك فقد ترويها مدونات العصر أو شواهده وقد تغفلها ، وعلى المؤرخ أن يبحث عنها فى مدونات العصر أو وثائقه أو اعرافه ومأثوراته ، وذلك هو الجهد الذى يعانية ويضنى به ، وسيبقى فى هذا الضنى والعناء ما دام يبحث عن الحقيقة وسط ركام من الاساطير والمتناقضات التى تحمله من هذا الضنى والعناء أكثر ما تحمله الحقيقة الثابتة٠

واذا كان عليه أن يخضع لروح عصره ، فان عليه ألا ينبذ روح الماضى ، فان للماضى سلطانه على معاصريه كما أن لعصره سلطانه عليه ، وعليه أن يوفق بين الاثنين لحساب الحقيقة وحدها لا لحساب عصره أو العصر الذى يعرض له ، ولا نعنى بالحقيقة هنا ما حدث فى الواقع ، ولكن ما ينم عنه هذا الواقع فى نظر المؤرخ ، وقد يتصل هذا بتفسير التاريخ أكثر مما يتصل بواقعه المدون والثابت ٠ **الا أننا نجد دائما أن تفسير المؤرخ لواقعة من الوقائع هو الذى يسلكها فى مجرى التاريخ ويكسبها المضمون التاريخى ٠**

وليس لأحد أن يشك فى وقوع الثورة الفرنسية فى ١٤ يولية سنة ١٧٨٩ ، أو قيام ثورة ١٩١٩ فى مصر فى ٩ مارس سنة ١٩١٩ ، فهما حقيقتان ثابتتان ، ولكن حين نتحرى الأسباب فقد تختلف وجهات النظر ، فمنا من يغلب سببا على آخر ، فهل كانت الثورة الفرنسية رد فعل لآراء فلاسفة القرن الثامن عشر فى فرنسا ، أو كانت نتيجة للتهييج السياسى لممثلى الشعب فى الجمعية الوطنية أو لعجز الملك عن الاصلاح أو عن القضاء على السخط أو قمع الثورة ، أو نتيجة للجوع والعرى والشقاء الذى يعانيه الشعب كما يرى كارليل ، أو هى نتاج الصراع الطبقى بين طائفتين ظالمة ومظلومة أو مستغلة أو مستغله فى رأى الماركسيين ؟ وقد تكون هذه كلها عند أغلب المؤرخين ، الا أننا سنرى دائما خلافا فى تغليب رأى على الآخر ٠

وهناك من يحاول بعد مرور أكثر من أربعين عاما على قيام ثورة ١٩١٩ فى مصر أن يدعى لها أسبابا غير التى اصطلح عليها المعاصرون فيردها الى نوع من الصراع الطبقى ، وهو أسوأ ما يقع فيه مؤرخ حين يفتعل الأحداث التى تبرر رأيه ، مما نعده مع كثير من التسامح رد فعل لاهتزازات فكرية معاصرة ، وان كنا لا نملك الا أن نناقشه فنقبله أو ننبذه ٠ فاذا كان لنا أن نتسامى فوق الهنات والنزعات الشخصية فاننا لا نملك الا أن نسلم بها مادامت قائمة مهما لجت فى الخطأ ٠٠ وما دمنا نسلم بأن المؤرخ لا يسلم من تأثير عصره وبيئته ، وما دام لكل عصر ظروفه التى تنبع من طبيعته والتى « ينبع فى علاجها ــ كما يقول هيجل ــ اعتبارات خاصة به » ٠

فاذاكان لنا أن نتمعن فى التاريخ وهو ماتنشده فلسفة للتاريخ واذا كان لنا أن نتحرى الدقة فى رواية الأحداث وهى مانتشده من المؤرخ ، واذا كان على المؤرخ أن يطعم وقائعه بنوع من التفسير العقلى أو المنطقى مهما خضع لروح عصره فانه على الأقل يزودنا بفكرة عصر عن عصر آخر ، فان المعرفة التاريخية لا تكون سليمة ما لم تستو ــ مع

اختلاف الزمان والمكان -على مضمون واحد يبقى صامدا لكل تفسير ولكل فلسفة للتاريخ وهو ما لايستطيعه المؤرخ وحده ولا الفيلسوف وحده وانما يقدر عليه من أوفى على القدرة فى الناحيتين معا.

وتختلف المعرفة التاريخية فى السيرة عنها فى التاريخ العام ، ونقصد بالتاريخ العام - وهوفرض قد لا نلجأ اليه الا فى هذه التفرقة - كل ما يقع خارج الاطار الفعلى للسيرة باعتبـــار أنها تاريخ خاص يتناول حياة انسان أو أى شىء آخر له من التأثير ما للانسان فى مجرى التاريخ • فقد رأينا أخيرا من يكتب سيرة نهر أو بحر أو حيوان حيث يجد فيها معنى أو فكرة أو تميزا فى النمط عن أشباهه مما يدخل فى باب المعرفة بالماضى وأحداثه او ما نعده من قبيل المعرفة التاريخية • فالمعرفـة التاريخية هى معرفة الماضى والالمام به وتصوره • فقد كتب أميل نودفيج سيرة نهر النيل ، وكتب سيرة البحر المتوسط كما كتب سيرة بسـمارك ونابليون ، وكان النهر أو البحر شخصا حيا يترك من الأثر التاريخى ما يتركه الانسان الخالد على صفحة الحياة •

فالمعرفة التاريخية فى السيرة تتعلق بالفرد فى ذاته وفى تأثيره فى محيطـــه أو عصره ، بينما تتعلق فى التاريخ العام بالمجموع وبكل ما هو عام فى المجموع حتى وان كان اتجـاه المجمـوع ناشىء عن تأثير الفرد • وقد يتعسر علينا الفصل بين ما هو فردى وما هو عام سواء فى السيرة أو فى التاريخ ، فالسيرة وان كانت قصة فرد بذاته الا أننا لا نستطيع أن نفصل بين الفرد والجماعـة التى يعيش فيها حيث يؤثر كل منهما فى الآخر ويتأثر به ، والفرد لا يعيش فى فراغ فان ظهوره وبروزه على مسرح الأحداث مرده دون شك الى التأثير المتبادل سلبا وايجابا بينه وبين الجماعـة التى تحتويه صغرت هذه الجماعة أو كبرت ، بل أن تأثيره يمتد ويتسع بامتداد الجماعة واتساعها ومدى تأثيرها فى الجماعات الأخرى المحيطة ، فلم يقف تأثير **تشرشل** على الجماعة البريطانية بل امتد واتسع بامتداد الجماعة البريطانية وتأثيرهـا فى غيرها ، واليوم نرى أن تأثير الرئيس الامريكى أو السوفيتى يمتد ويتسع بامتـداد النفوذ الامريكى أو السوفيتى الى بقاع العالم القائم •

الا أن السيرة بالرغم من التأثير المتبادل بينهـا وبين المجموع وامتداد هذا التأثير الى أبعد ما يتسع له ، تبقى قائمة على المفـرد فى ذاته من حيث أنه يصور حياة فرد هو الذى يعنينا بالكتابة عنه •• ولا يجوز فيهـــا التعميم أو القياس ، فلكل فرد شخصيته الفريدة المتميزة ، ومهمـــا تشابهت الظروف بين فرد وآخر فسيبقى لكل فرد تميزه وانفراده ، فليس فى التاريخ قوائم ولا يمكن لأى انسان حتى من الغمار أن يـكون صورة مطـابقة لانسان آخر لا فى الشكل ولا فى المضمون • وكما أن بصمات البنان لا تتشابه بين انسان وآخر ، فكذلك تبقى الشخصية التاريخية فريدة فى ذاتها لا يجمعها شبه مع شخصية تاريخيـة أخرى حتى وان تواءمت الظروف وتشابهت الملابسات •

وقد تنفرد السيرة بظاهرتين لا نسلـكهما فى التاريخ العام وان كانتـــا جزء من التاريخ العام أولاهما اننا نغوص فى أعماق الشخصية الفردية لنتبين ملامحها وحوافزها وقد نعرض - ولا بد لنا أن نعرض - لجوانب أخرى فيها قد لا تتصل بالاثر التاريخى الذى خلفه والذى جذب التاريخ اليه، فقد لا يعنينا فى صدد التأريخ للعصرالستالينى فى روسيا ان نعرض لقسوة ستالين مع زوجته الثانية ، فاذا كتبنا عن ستالين بوصفه فردا تاريخيا أو سيرة من سير أفذاذ التاريخ فلابد لنا أن نتناول هذا الجانب فى حياته ونتقصاه ونحققه حتى تكتمل لنا صورة الشخصية التى نكتب سيرتها ، كمـا لا يعنينا أن نذكر أن هنرى الثـــامن كان ملـكا مزواجا وانما الذى يعنينا فى صدد التاريخ العام لانجلترا أن نذكر قدرته كملك وحاكم فحسـب ما لم يكن لأحداث زواجه المتكرر تأثير على أحداث التاريخ الانجليزى ، وقد لاتعنينا مغامرات نابليون الغرامية بقدر ما يعنينا تأثيره فى أحداث عصره ، فاذا كتبنا سيرة نابليون فان من حقنا أن نعرض لهذا الجانب ونجليه ، وقد لا تعنينا الظروف التى أدت بســـعد زغلول الى الزواج من ابنة رئيس الوزراء ما لم يكن لهذا الزواج تأثير فى حيـاته ، وحتى اذا كان لهذا الزواج تأثير على حياته فقـد لا يعنينا أنه تزوج أو لم يتزوج باعتبار أن الزواج حادث عام يقع لكل فرد فاذا شاركت زوجه فى حياته السياسية فقد دخلت التـاريخ الى جواره وعدت جزءا من سيرته •

والظاهرة الثانية أن عالم الأخلاق يطل برأسه فى السيرة أكثر مما يطل فى أحداث التاريخ العام ففى الســيرة يبدو السلوك الفردى متميزا أكثر

مما يبدو في التاريخ العام ، وان لم يكن من حقنا أن نصدر الأحكام على شخوص التاريخ فنبرىء شخصا وندين آخر باعتبار أن كل شخصية تاريخية تنتمي الى عصرها فاذا حكمنا لها أو عليها فوفقا لمقاييس عصرها وأحكامه، فهل كان خوفو فرعونا قاسيا سخر المصريين في بناء قبر له أو أن سمة العصر كانت لا تجفو مثل هذا العمل أو تنكره •

الا أننا في السيرة نجد أنفسنا ملزمين بتقصى سلوك الشخصية التاريخية وأعمالها الخاصة والعامة لتبدو صورته على حقيقتها حتى وان لم نصدر أحكامنا لها أو عليها فان قارىء السيرة لابد وأن يصدر هذه الأحكام من نفسه ، وهى نفس الأحكام التي يجد قارىء التاريخ نفسه مسوقا اليها ، فهل كان سلوك الحلفاء المنتصرين في فرساى عام ١٩١٩ أخلاقيا ؟ وهل التزموا في تسوياتهم مبادىء الأخلاق والضمير أم كانت تسوقهم حوافزهم القومية ونزعاتهم السياسية ؟ وهل كان اصرارهم على تحطيم ألمانيا في نهاية الحرب الثانية حكيما ؟ قد يختلف الحكم من قارىء الى قارىء ، فالانجليزى والفرنسى قد يحكمان عليها حكما مخالفا للذى يصدره الالمانى وقد يختلف عنهما مصرى لا يرى في موقف أيهما ما يؤيده ولكنه دون شك ينظر اليها نظرة مختلفة ولعل حكمه يقوم على ما كان من موقف الحلفاء من القضية المصرية، وقد يقترب في حكمه مما يراه الألمانى الا أن العوامل النفسية التى تعترى كل منهما مختلفة وتختلف تبعا لها الأسانيد والمبررات التى يراها كل منهما لحكمه أو ما يمكن أن نسميه بلغة رجال القضاء حيثيات الحكم ، الا أننا في التاريخ لا ندعى ولا نفترض لانفسنا حق القاضى في اصدار الأحكام ، فالتاريخ شىء مختلف تماما عن الحياة الاجتماعية وان كان المجتمع ميدانه الاول • فاذا اختلفت نظرة المؤرخ ونظرة قارىء التاريخ فلأن المؤرخ يقف على منصة عالية لاينبغى له منها أن يطل على ناحية دون الأخرى وانما يلم بنظرته كل ما يقع أمام عينيه لا فرق بين ناحية وأخرى أما القارىء فتحكمه ذاتيته وتحكمه مشاعره ولايرى غير الجانب الذى يروقه ، فالانجليزى العادى يرى أن الهند وليدة الحكم البريطانى تدين له بوجودها الحديث ، بينما الهندى لا يرى في الحكم البريطانى لبلاده الا حكما استعماريا غاشما يقوم على الاستبداد والنهب ، أما المؤرخ انجليزيا أو هنديا مهما تحكمت فيه ذاتيته فان عليه أن يقيم أحكامه على الموضوعية والعقل اذا كان من حقه أن يصدر الاحكام والا ترك الاحداث نفسها تفصح عن الحقيقة التى ينفيها من التاريخ •

الا أن مثل هذه الأحكام العامة وان كانت موضع خلاف في التاريخ فانها في السيرة تكون واضحة ومحددة فليس هناك من ينكر أن بيرون كان شاعرا عظيما وكان فيه نزعة انسانية طيبة ، وان اختلفت حوافزها في نفسه عنها في غيره ، الا اننا نقف جميعا مؤرخين وقراء تاريخ من علاقاته الآثمة موقفا مشتركا • ولا نملك حين نكتب سيرته الا أن نطرق هذا الجانب الشخصى من حياته • وليس فينا من ينكر أن جنكيزخان كان قائدا عظيما ومحاربا فذا ، وان كنا لا نغفر له قسوته وشهرته للقتل والتدمير وما أشاعه من خراب في كل مكان طرقته جيوشه ، فاذا تناولنا سيرة من السير فاننا لا نترك نزوة من نزواته أو بادرة من بوادره الشخصية ما دام لها تأثير في حياته الا وذكرناها واذا تناولناه تاريخا فحسب فقد لا يعنينا منه غير أعماله وتأثيره في عصره •

وثمة من يقول أننا لا نؤرخ للشخصية التاريخية في ذاتها وانما بأثرها في التاريخ وما تركته على صفحاته من تأثير في زمانها ومكانها تأثيرا يمتد دون شك الى الاجيال اللاحقة،فمن خصائص الاثر التاريخى انه يتعدى حدود زمانه ومكانه الى أزمنة لاحقة وأمكنة عديدة وكلما بقى هذا الأثر وكتب له الاستمرار والخلود كانت الشخصية التاريخية أخلد وأبقى على الزمن •

فاذا كان الأثر التاريخى هو ما تدور حوله المعرفة التاريخية في السيرة فان هذا الأثر لابد وأن يتأثر بالحوافز الفردية والشخصية لصاحبها، فنجد أنفسنا ملزمين بالتغلغل في أعماق الشخصية التاريخية حتى وان تطرق بنا البحث الى حياته الخاصة •

واذا وقفنا بالسيرة عند الأثر التاريخى ، فان معرفتنا التاريخية بالسيرة لابد وأن تتأثر بهذا الاطار الذى ترسمه لها فلا يعنينا منها حياتها الخاصة وانما نقف عند تأثيرها في مجرى التاريخ فحسب وقد يقال أننا نفصل بذلك بين الأثر والمؤثر ، وهو ما لا ينبغى لمؤرخ أن يقع فيه اذ أن تفسير الأحداث يدعونا بالحاح الى التطرق الى الحياة الشخصية لصاحب السيرة بل والتغلغل

فى كافة جوانبها ما اتصل منها بأثرها فى التايخ أو ظل بعيدا عنه ،أو أن السيرة تفقد بهذا طابعها الخاص من حيث أنها تتناول حياة فرد وتصبح أقرب الى التاريخ العام ما دمنا نقف بها عند التأثير المتبادل بينها وبين التاريخ ، الا أننا نرى أن السيرة كمبحث للمعرفة التاريخية تنتهى دائما عند تأثيرها فى مجرى التاريخ ، فاذا كانت علاقة جوزفين بعشاقها عاملا فى ابعاد نابليون الى ايطاليا ثم الى مصر فقد أصبحت هذه العلاقة ذات صبغة تاريخية اذ تركت لمستها فى توجيه الأحداث التى أدت الى اختيار نابليون لقيادة حملةايطاليا وحملة مصر ، فان لم يكن لها مثل هذا التأثير فقد غدت حدثا عاديا لا يدخل فى عداد الأحداث التاريخية وسواء عرضنا لها أم أغفلناها ·

ولكن المعرفة التاريخية فى السيرة وان وقفت عندالأثر التاريخى لا تكتمل الا بالالمام بكافةجوانب السيرة بما فيها الجوانب الشخصية ، اذ أن هذه الجوانب الخاصة تلقى كثيرا من الأضواء على حوافز الفرد ونوازعه مما يهدينا الى التأثير المتبادل بين الذات والموضوع اذ أن لنوازع كل فرد وحوافزه تأثيرها الحاسم على موقفه من الفعل الذى يقوم به ، فليس فى قدرة اى انسان أن يتحرر من ذاته أو من تأثير ذاته على أفعاله ، ولا نستطيع أن نصل الى طبيعة الذات ما لم نلم بانعكاسها على سلوك الفرد ولا يبدو هذا الانعكاس جليا الا من خلال الأفعال الصغيرة عشوائية كانت أو مقصودة أو متواترة ، فالعادات الشخصية المتكررة تفسر كثيرا من جوانب الشخصية الفردية ، كالأفعال العشوائية سواء بسواء ·

وقد أبدى أميل لودفيج فى تقديم سيرة بسمارك مثل هذا الرأى اذ يقول أن الانسان والسياسى لا ينفصلان ، فالأحاسيس والأفعال يؤثر بعضها فى بعض ، والحياة العامة والخاصة تجريان معاً »· ومضى لودفيج فى كتابة سيرة بسمارك على هذا النمط يجرى وراء الأفعال والنزوات الصغيرة ليفسر بها الأحداث الكبيرة ويستفسر الأحاسيس والمشاعر طموح السياسى الكبير ، ويسهب فى تفصيل الوقائع التى خاضها ابان مجده ولا يجد مايقوله عنه فى عزلته الا بضع صفحات تصور أحاسيسه العامة وموقفه من خصومه ومن أحداث بلده ·

أما عباس محمود العقاد ـ وهو من كتاب السير ـ فانه يتخذ منهجا آخر يفصله فى تمهيده لسيرة بنجامين فرانكلين فيقول : « والصفحات التالية صور متتابعة لهذه الشخصية أو لهذه العبقرية ، لم تحفل فيها بسجل الأرقام ولا باحصاء الأيام ، ولم نكتبها لنبدأ فيها بسنة الولادة ونختمها بسنة الوفاة ونمضى فيها مع التقويم شهرا بعد شهر وعاما بعد عام ، ولكننا كتبناهاكما نكتب تراجمنا عامة لنعرض فيها لمحة بعد لمحة تتم بها ملامح الصورة بعد الفراغ من النظر اليها ، وقد يتابعها القارىء فلا يفوته معذلك سجل الأرقام ولا احصاء الأيام ، وانما يلم بها حيث يعبرها فى طريقه ، ويستغنى عنها بعد ذلك اذا شاء ، أو يبقيها على حد سواء » ·

« وسنبدأ (الصورة) بترجمة مجملة ترسم مراحل الطريق ، أو ترسم حدود النظر الى الاطار الذى يحيط بملامحها وقسماتها ، ثم نتبعهابصورة لكل جانب من جوانب هذه الشخصية على أعمها وأوسعها مع صعوبة التعميم والاحاطة بهذه الشخصية الفذة التى لم تدع شأنا من شئون عصرها الا اشتغلت به فى وقت من الأوقات ، ثم ندع لها أن تتكلم بلسانها وتعبر لنا عن كل جانب من جوانبها ، ولعل الكلام الذى نسمعه منها أدل عليها من كل كلام يقال فيها » ·

ويمضى العقاد على طريقته فى رسم معالم الصورة التى يبتغيها للسيرة التى يهواها أو تستحق عناء الكتابة منه ، ولا يستحق منه عناء الكتابة من شخوص التاريخ الا ما يستثير مثله الأعلى للعظمة الانسانية كما يراها ، فاذا عثر عليها أخذ يتحرى من مواطن عبقريتها مايهديه الى اجلاء جوانب عظمتها الانسانية ·

وهذان كاتبان معاصران من كتاب السير أحدهما من الغرب والآخر من الشرق ، وان اجتمعت فى نفسيهما على حد سواء عظمة الانسان كانسان دون حدود أو قيود ومن غير أثرة أو ايثار ، ولكل منهجه وطريقته ولكنهما يدوران كل على طريقته حول الأثر التاريخى ، فلودفيج يصور الانسان فى عظمته والعقاد يصور العظمة فى الانسان ، ولودفيج يصل بين العظيم وذاته بما تحمل من قوة وضعف وبما فيها من هنات ومحامد فى قالب قصصى يدفع بالدماء الحارة الى العروق اليابسة ، والعقاد يسقط الانسان ولا يراه الا عقلا عبقريا وروحا عظيما ، ويمضى لودفيج فى بناء السيرة ناميا من بدايته الى

نهايته ، والعقاد يقتنص منهـــا مكامن العبقرية والعظمة فيجليها فلا نرى صورة بنجامين فرانكلين الا عالما وكاتبا وسياسيا وفيلسوفا ثم انسانا ، ولكن الانسان عنده مضمون أو محتوى للعظمـــة حتى ليعتذر عنه فى سقطاته ، ففرانكلين ـ كمـا يقول ـ « انسان بفضائله وانسان بعيوبه ، ولكن الصفة هنا لا تكفى وحدها ، ولا تزال كغيرها من الصفات بحاجة الى استدراك ، فاذا كان الرجـل انسانا بفضائله وعيوبه فليس معنى أنه انسـان كسائر الناس أصحاب الفضائل والعيوب ، لأنه كان يعمل مع الفطرة فى تكوين فضائله وتثبيتها، وكان يتيقظ لعيوبه ويجاهـــد ما استطاع فى اصلاحها ، وكانت الأعذار الى جانب عيوبه أرجح وأقوى من دواعى اللوم والزلل ، ويصدق هذا على أكبر السقطات كما يصدق على الهفوات الصغار»٠

فاذا أخذ النـــاس أو المؤرخون على فرانكلين علاقاته المريبة ببعض النساء « ومنهم ديورا التى تزوج بها بعد معاشرته لها بغير عقد دينى أو عرفى وبغير تسجيل معترف به على نحو من الانحاء »٠ فان العقاد ينتحل له العذر فى نفوره « من سلطان الكهنوت على جميع المـــذاهب » ويقول : « ومن السهل أن نتخيل شعور الرجل المطبوع على البحث العلمى نحو هذه السلطة فان (رد الفعل) أمامها خليق أن يذهب من النقيض الى النقيض فيمـرق من سلطانها مروق التحدى والاصرار » ٠

فالأثر التاريخى هو المحور الأساسى للمعرفة التاريخية فى السيرة كما نرى ، وهـو الذى يقيم الشخصية التاريخية ويحدد مكانها من التاريخ ، وكلما نما هذا الأثروامتد كلما جذباليه المؤرخين٠ فعدد من كتبوا عن نابليون يفوق بمراحل عدد من كتبوا عن ولنجتون، وقد يقال لولا نابليون لما كان ولنجتون ولولا واترلو ما عرف التـاريخ الدوق الحديدى ٠٠ وقد يقف التاريخ طويلا عندشخصية « لينين » على قصر عهـــده فى رئاســـة الدولة السوفيتية ، بينما تقصر وقفته عند «ستالين» على طول عهده برئاسة الاتحاد السوفيتى ، ولا نعتقد أن التاريخ سيذكر ماركس بقدر ما ذكر المسيح ، وان تحول الناس عن المسيحية الى المـاركسية ، فسيبقى عشرون قرنا من تاريخ المسيحية تطاول بها ما عداها ولا يطاولها غيرها ما لم تؤكده مثـل هذه القرون فى امتدادها وفى تأثيرها على حيـــاة الانسان ٠

وقد تعرض المعرفة التاريخية فى السيرة للعلل والأسباب التى أدت بالشخصيـــة التاريخية الى التفرد والبروز ولكنها فى النهاية تستوى عنـــد الاثر التاريخى ، فكل سؤال أو استـقصاء للعلة يكون على هذا الوجه : كيف نفرد هـذا الانسان بهـــذا العمل ؟ وكيف أتيـــح له أن يحقق ما لم يستطعه غيره ؟ والمحـور الذى تدور حوله عملية الاستقصاء أو تحرى الاسباب هو هذا العمل الذى تم وأصبح واقعا تاريخيا ، وتنتهىعمليةالاستقصاء والتحرى بالرؤيا الفاحصة لحياة الفرد والتعمق فى داخلها وفى خارجها على الســـواء لمعرفة الحوافز العقلية ومدى تعبيرهـــا عن ارادة العصر وكيف واتتها الظروفالاجتماعية والسياسية والاقتصادية للتحرر والانطلاق لتعبر عن ارادة عصرها ، وكيف لعبت الموهبة والذكاء والرؤيا الصادقة دورها فى تفرده وبروزه ، وكيف كان للظروف الطـارئه دورها فى تحقيق ارادته والى أى حد كان لهـــذه الارادة أثرها فى مجرى التاريخ ، وفى هذا يكتمل نمو السيرة وبناؤها التاريخى والفنى فى يد كاتب صناع ومؤرخ موهوب أوتى القدرة على الاستبطان والاستقراء كما أوتى القدرة على التجميع والفحص وادراك الصحيح من الزائف ٠

ومهما اختلفت طرق المؤرخين ومنـــاهجهم فى تنـــاول السيرة ، فانهم جميعا يستهدون أثرها التاريخى بل ان هذا الأثر التاريخى على اختــلاف صوره وألوانه وبقدر ما ترك من عمق فى حيـاة الانسان فى عصره وفى العصور اللاحقة له ، هو وحده الذى يجذب المؤرخ اليه ٠

وعند الأثر التاريخى تقف أحـداث السـيرة ووقائعها وأحداث التاريخ ووقائعه ، فالتاريخ ما هو الا وقائع غبرت وتركت صورتها على صفحـة الحاضر ســـواء كانت وقائع فردية أو جماعية وحصيلتنا منها هو المعرفة التاريخية الحقة ٠

علم الاجتماع .. قضايا النظرية والمنهج

تأليف : ج . أوزيبوف

عرض وتحليل : عبد الباسط محمد

يثير كثير من المفكرين والباحثين قضية من أبرز القضايا في العلوم الانسانية بعامة وعلم الاجتماع على وجه التحديد ؛ ألا وهي قضية العلاقة بين الايديولوجية ونظريات هذه العلوم . وفى نطاق علم الاجتماع تفتق عن مناقشة هذه القضية أكثر من رأى وأكثر من وجهة نظر ، لكل أسانيدها وشواهدها التى تدلل بها على هذا الرأى أو ذاك . ومن بينها الرأى القائل أن العلم هو العلم فى كل زمان ومكان ، ما دام الباحث يحرص جادا على اتباع المنهج العلمى ومراحله وخطواته المختلفة ، مدللين على صحة رأيهم بأن ليس للعلم وطن، اذ أنه فى أكثر العلوم دقة وضبطا لا نجد مسميات ايديولوجية ، فليس ثمة علم طبيعة اشتراكى وآخر رأسمالى وهكذا فى علوم أخرى كالكيمياء والطب والحياة . وهذا يعنى — فى حدود هذه الوجهة من النظر — أنه اذا التزم الباحث بالموضوعية والمنهج العلمى ، فهو لن يتأثر بأى دليل حول ضرورة التمسك بالمنهج العلمى وعدم وجود علوم طبيعية ذات مسميات ايديولوجية ، فان الامر يختلف في العلوم الانسانية لاختلاف طبيعة مادة الدراسة وموضوعها من جانب ، ولامور أخرى كثيرة تتعلق بالباحث نفسه بوصفه خلفية ايديولوجية . ومع بديهية ما يقدمون من مواطنا بجانب أنه باحث ، فهو ينتمى الى كثير من الجماعات والتجمعات وربما الاحزاب والتنظيمات، لها مصالحها التى قد تؤثر فى مصالحه ومقاصده من جانب آخر . فاذا كان علماء الاجتماع يؤكدون تأثر الفرد بالبيئة الاجتماعية التى تحيط به لأنها تشكل اهدافه واتجاهاته وقيمه ، فلماذا ينكرون ذلك على الباحث ؟ هل لمجرد انه يتمسك بالمنهج؟ **حقيقة ان عالم الاجتماع الفرنسي «ايميل دوكايم» كان قد نادى فى كتابه « قواعد المنهج فى علم الاجتماع » بضرورة تخلص الباحث من كل أفكار قبلية سابقة قد تؤثر فى موضوعيته ونزاهته ،** ولكن هل طبق هو ذلك على دراساته والموضوعات التى بحثها ، وهل كان موضوعيا نزيها ؟ فى هذا يطالعنا ارفينج زيتلن I. Zitlin فى كتابه « الايديولوجية وتطور النظرية السوسيولوجية » بأن دوركايم كثيرا ما كان

✻ قدم الدكتوران سمير نعيم أحمد وفرج أحمد فرج ترجمة عربية للكتاب الراهن جعلا عنوانه « قضايا علم الاجتماع ، دراسة سوفيتية نقدية لعلم الاجتماع الراسمالى » ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ .

يوحى ويحذر وينتقد ثم يعود غير قادر على تحقيق ما يطلبه من الآخرين على فكرة ودراسته . فبالرغم من تهجمه الشديد على « كونت » فانه اعتمد عليه فى نموذجه العضوى وفى نظريته عن التضامن ، ثم لماذا لم يعر ظواهر التدرج والطبقات ومشكلات القوة والصراع السياسى أى اهتمام ! الم يدلل تعصبه للتضامن على توجسه من الصراع السياسى الدائر فى وقته ؟ ، **الم يتخذ وقفا وسطا ـ تلفيقيا ـ بين كونت وماركس خشية الملامة ؟ فقد أخذ من الاول نموذجه العضوى الوضعى وأخذ من الثانى فكرته عن الوجود الاجتماعى** . ومع هذا فشل فى أن يؤثر فى القضايا الايديولوجية المحيطة به نتيجة لاتجاهه المحافظ ، لانه نما فى هذا الاتجاه **فكر سان سيمون فى حين رفض عن عمد واضح الابعاد الراديكالية فى فكر ماركس ، الامر الذى يدلل فى نهاية المطاف على اتجاه دوركايمى محافظ ومتحيز** .

وثمة رأى آخر يكاد يكون أكثر وضوحا فى كتاب « زيتلن » السابق الاشارة اليه ، وفيه يؤكد أن الايديولوجية كانت دائما وعن سابق اصرار موجها ومؤثرا فى النظرية السوسيولوجية واتجاهاتها وتطورها ، مدللا على ما يقول بتحليل للكتابات عدد من علماء الاجتماع كـ « فيبر » و « باريتو » و « دوركايم » و « كارل مانهايم » وغيرهم . وبالرغم من فصاحة « زيتلن » وقدرته على التحليل فانه قد اجتزأ علم الاجتماع ، حيث مال الى جانب النظرية السوسيولوجية دون المنهج العلمى ، وهل هناك علم يسمى هكذا دون منهج ؟!

وأما وجهة النظر الثالثة والاخيرة ، فقد صورت العلاقة بين الايديولوجية وعلم الاجتماع بطريقة غير السابقتين . ولعل أبرز من أوضحها «جيرزى فياتر » أستاذ **العلوم الاجتماعية بجامعة** وارسو حيث أشار الى أن العلاقة بين الايديولوجية وعلم الاجتماع علاقة جدلية ، بمعنى أنه فى الوقت الذى يتأثر فيه علم الاجتماع بالايديولوجية ، فانه أيضا يؤثر فيها . ففى تاريخ علم الاجتماع أثرت كثير من النظريات فى الافكار الايديولوجية وقد بلغ هذا التأثير ذروته من جانب العبقرية الماركسية . ومع أهمية رأى « فياتر » فان صوغ رأيه على هذا النحو جاء فى ثوب أكثر تجريدا . فالمسألة ـ فى رأيى ـ فى حاجة الى دقة اكثر توضح أى المواضع التى تؤثر فيها الايديولوجية فى علم الاجتماع ، هل فى النظرية فقط ؟ هل فى موضوعات الدراسة ؟ هل فى المناهج والادوات ؟ .. الخ ، فهذا ربما يساعد عند الاستفادة من الاتجاهات المختلفة ، فى البلدان النامية التى لا تزال العلوم الاجتماعية فيها فى طور النشأة والتكوين والبلورة .

والكتاب الذى بين أيدينا لمؤلفه «ج. أوزيبوف» المفكر وعالم الاجتماع السوفيتى يعد محاولة علمية لبيان مدى تأثير الايديولوجية فى علم الاجتماع نظريا ومنهجيا . وهى فى جوهرها محاولة تصل ما بدأه فى مؤلف له نشرته أكاديمية العلوم السوفيتية بموسكو عام ١٩٥٩ وكان عنوانه «التقدم الاجتماعى ـ مقال نقدى للنظريات السوسيولوجية التحريفية والاصلاحية المعاصرة » حيث عالج فيه مشكلة تطور التكنولوجيا وعلاقتها بالتقدم الاجتماعى ، من خلال دراسة نقدية للنظريات السوسيولوجية البرجوازية التى ربطت بين التطور التكنولوجى ومسار تاريخ المجتمع الانسانى . واذا كان قد اهتم فى هذا الكتاب بالتنظير السوسيولوجى ، فقد استند أيضا فى تحليله الى بيانات وشواهد واقعية جعلت من محاولته تحليلا ماركسيا لهذه المشكلة الهامة . ولذلك نجده فى الكتاب الراهن يحاول أن يعمق ما بداه لتوضيح دور الايديولوجية فى الجوانب النظرية والمنهجية معا لعلم الاجتماع من خلال دراسة نقدية لعلم الاجتماع البرجوازى الغربى المعاصر .

والكتاب ، كما يفصح عنه عنوانه ـ قضايا النظرية والمنهج ـ يشتمل على مجموعتين أساسيتين من القضايا : تتعلق الأولى بالنظرية السوسيولوجية أما الثانية فتتعلق بالمنهج المستخدم فى علم الاجتماع . فاذا ما نظرنا للمجموعة الاولى وجدنا أنها تهتم بجانبين : يحاول الاول أن يقف على القضايا النظرية لعلم الاجتماع الماركسى ، فى حين يتعلق الثانى بدراسة الوضع الراهن للتعدد النظرى فى علم الاجتماع البرجوازى ـ خاصة فى أمريكا ـ من خلال دراسة نقدية لهذا التعدد .

ولو استجلينا الملامح الاساسية للقضايا

النظرية لعلم الاجتماع الماركسى ، لوجدنا أنها تنحصر مبدئيا فى تحدد (وحده) نظرى يستند أساسا الى النظرية الماركسية ، مع محاولة المؤلف تحديد موضوع علم الاجتماع ، حيث يرى أنه فى الوقت الذى يقتصر فيه علم الاجتماع على دراسة المجال المدنى Civil للنشاط الاجتماعى الانسانى فان موضوع المادية التاريخية Historical Materialism هو المجتمع ككل . وهذا يعنى أنها — أى المادية التاريخية — تهتم بالقوانين العامة التى تحكم ظهور وتطور التكوينات الاجتماعية الاقتصادية Socio-economic formations (ص ٩) وعلى هذا فان مجال الفلسفة الاجتماعية ليس هو تماما وبالضرورة مجال علم الاجتماع، لأن هذه الفلسفة تهتم اساسا بجدل التطور الاجتماعى ومن ثم فموضوعها هو دراسة المظاهر النوعية لقوانين المادية الجدلية فى الحياة الاجتماعية (كالوعى والوجود الاجتماعى ، والانتقال من التغيرات الكمية الى الكيفية .. الخ) واكتشاف جوانب جدلية جديدة فى ضوء التطور الاجتماعى الحديث . غير أن هذا لا ينفى كون المنهج الفلسفى يلعب دورا هاما فى علم الاجتماع ، لان هذا العلم لم يصبح ممكنا وواقعا الا عندما امتد المنهج المادى الجدلى الى الحياة الاجتماعية واكتشفت المادية التاريخية ، هذا اذا وضعنا فى الاعتبار أن « ماركس » لم يجعل علم الاجتماع خطا موازيا للأساس المادى ، لأنه أعاد بناءه وفقا لهذا الأساس (ص ١١) .

والملاحظ على القضية السابقة انها تتعرض لتحديد علاقة علم الاجتماع بالمادية التاريخية من جانب وللفلسفة الاجتماعية من جانب آخر . وتتبلور العلاقة الاولى فى أن المادية التاريخية تدرس المجتمع ككل بقوانينه العامة ، فى حين أنه فى العلاقة الثانية نجد أن موضوع الفلسفة الاجتماعية هو دراسة المظاهر النوعية لقوانين المادية الجدلية . وهنا نتساءل ماذا تبقى لعلم الاجتماع ؟ ، يجيب « أوزيبوف » أنه المجال المدنى للنشاط الاجتماعى ، وترك ذلك غامضا دون أن يوضح حدود وأبعاد هذا المجال ، هل هو العلاقات الاجتماعية ؟ أم التفاعل الاجتماعى ؟ أم هما معا؟. هذا ما لم يوضعه لنا «أوزيبوف» بشكل متسق ، الامر الذى يضفى على مجال علم الاجتماع بعض الغموض . هذا بالاضافة الى أنه لم يوضح نوع العلاقة — لا الموضوع فقط — بين المادية التاريخية وعلم الاجتماع الماركسى ، وخاصة أنه أثيرت حول هذه العلاقة بعض وجهات النظر التى أوردها «ف . كونستانتينوف ، ف . كيل» فى مقالهما عن « المادية التاريخية — علم الاجتماع الماركسى » والتى أشارا فيها الى أن هناك بعضا من علماء الاجتماع فى الاتحاد السوفيتى يعتقد أن المادية التاريخية هى الموضوع السوسيولوجى، ومن ثم يرون أنه ينبغى ألا ينظر اليها على أنها جزء مكون للفلسفة الماركسية ، فى حين أن آخرين يرون أنها جزء مكمل للفلسفة الماركسية وبالتالى يرفضون معالجتها كعلم سوسيولوجى ويرون أنها على أحسن تقدير أساس نظرى ومنهجى عام لعلم الاجتماع ، ونادوا بالحاجة الى خلق علم اجتماع جديد ، أو حتى علوم اجتماع نوعية تتوازى مع المادية التاريخية وتكون متميزة عنها ، أو مستندة اليها . وثمة فريق أخير ينشد حلا مهادنا بتأكيده ضرورة التمييز بين الجوانب الفلسفية والسوسيولوجية فى المادية التاريخية نفسها .

وهذه الآراء رغم تعارضها أو تباينها انما تدلل على أن علم الاجتماع الماركسى — فى الاتحادالسوفيتى على الاقل — لم يتحدد أو يتبلور بالشكل الذى يجعل منه نسقا واضح الملامح والابعاد ، كما أنها تبين أن « أوزيبوف » بالرغم من أنه لم يوضح لنا هذه العلاقة بشكل حاسم — نسبيا — فانه أيضا لا يمثل جميع وجهات النظر التى يطرحها علماء الاجتماع فى الاتحاد السوفييتى ،ومن جانب آخر فان علم الاجتماع قد عانى عبر تاريخه من صعوبة توضيح العلاقة بينه بين العلوم الاجتماعية الاخرى كالاقتصاد والسياسة وعلم النفس..الخ، خاصة وأنه يتناول بعض موضوعات هذه العلوم فى الدراسة السوسيولوجية ، مما جعله يتأرجح أحيانا بين التحدد الضيق النطاق الذى قد يعزل الظواهر عن واقعها ، وبين اللا تحدد الذى يفقده طابعه المميز كعلم يجب أن يكون له مجاله الخاص أحيانا أخرى . ومع ذلك فان المؤلف لم يتناول هذه القضية فى كتابه بشكل مباشر ، وخاصة علاقة علم الاجتماع بعلم الاقتصاد الماركسى ، اللذين يرى البعض أن ثمة قاسما مشتركا بينهما حيث يتبنى كل منهما الاساس المادى بطريقة معينة ، لكنهم لم يستجلوا لنا ملامح وقسمات تلك الطريقة .

واذا نظرنا الى تصور علم الاجتماع الماركسى للمجتمع باعتباره المحور الاساسى لهذا العلم ، فان « أوزيبوف » يرى أن المجتمع يكون نتاجا للتفاعل الاجتماعي بين الناس ، وذلك يدل على

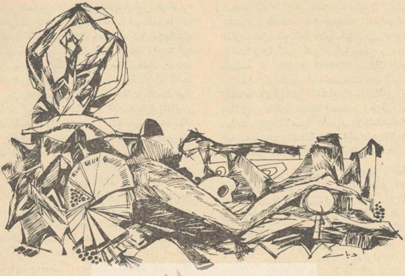
أن مفهوم التفاعل الاجتماعى مفهوم أولى للتكوين الاجتماعى ـ الاقتصادى ، لأنه ـ أى التفاعل ـ عملية متبادلة تحدث خلال وسط يتكون من عاملين اجتماعيين أو أكثر ، داخل اطار عملية واحدة فى ظروف معينة ترتبط بزمان ومكان معين ٠ وبناء على هذا يعرف المجتمع علميا بأنه نظـــام ثابت نسبيا من الارتباطات والعـــلاقات الاجتماعية لمجموعات كبيرة من الناس ، تدعمه قوة القانون والعادة الجمعية والتقاليد ٠٠ الخ ، وقد شـــاء له أن يتكون فى نمو وتطور تاريخى ، ويقوم على أسلوب انتاج معين يظهـــر كمرحلة فى التطور التقدمى للانسان (ص ١١١) وهنا يشير ماركس الى أن علاقات الانتاج فى كليتها تشكل مايسمى بالعلاقات الاجتماعية ، فالمجتمع بالتحديد مجتمع فى مرحلة محددة من النمو التاريخى ، وهـــو ذو طابع خاص مميز ٠ » وهذا التعريف للمجتمع من الناحية العلمية يعتمد أساسا على وصف نشـــأة المجتمع من خلال تطور تاريخى يقوم على أساس أسلوب انتاج معين ، ومع التســليم بأن ذلك التعريف يوضح ـ الى حد ما ـ التصور الماركسى للمجتمع ، الا أننا وفى نفس الوقت نعتبره تعريفا ناقصا ، لأنه لم يضع فى حسبانه الخصـــائص والمكونات الاساسية للمجتمع والتى ينفرد بهـــا التصور الماركسى ، عن بعض الاتجاهات الاخرى فى علم الاجتماع ، ولعل أبرزها ما يتعلق بتبيـــان العملية الجدلية فى تغير المجتمع ، والطبقـــات والصراع الطبقى ٠ فكما أشرنا يركز «أوزيبوف» فى ص (١١١) من الكتاب على التفاعل الاجتماعى والعلاقات الاجتماعيـــــة ، ولكن اذا كان الامر كذلك فما الذى يميز التصور الماركسى للمجتمع عن غيره من التصورات فيما عدا الاســاس المادى للمجتمع ؟ لذلك يمكننا أن نصف تعريفه هذا بأنه تعريف استاتيكى يركز على الجوانب الثـــوابت للمجتمع دون أن يوضح أو يشير الى الجـــوانب الدينامية ٠

ولما كان علم الاجتماع ـ بغض النظر عن منحاه الايديولوجى ـ يحرص لنفسه على شخصية متميزة بين العلوم الاجتماعية الأخر ، فهو يهتم بالجماعـة الاجتماعية باعتبارها وحدة فى الدراسة والتحليل السوسيولوجى ، ولذلك اهتم بها علم الاجتماع الماركسى حيث يراها « جماعة من الناس تربطهـا وتوحدها مجموعة من الأغراض aims **والمصالح والجهود المشتركة وهى عنصر فى البناء الاجتماعى لنسق** system **محدد من العلاقات الاجتماعية (ص ٣٦) ٠**

ومع قبولنا لهذا التعريف ـ قبولا نسبيا ـ لأنه يضم بين مصطلحاته ومحدداته المصالح ، الامـر الذى يجعل الجماعة الاجتماعية فى تصور عـلم الاجتماع الماركسى لدى « أوزيبوف » جمـــاعة مصلحة interest group فان التعريف ، مع هذا ، لم يضم بين الخصـــائص التى أوردها للجماعة القيم التى تستند اليها والتى تحـــدد وسائل وغايات انتقاء المصالح وطرق تحقيقهـا مع عدم ابراز أهمية الادوار الاجتماعية والظروف التاريخية التى تنشأ فيها الجماعات الاجتماعيـة حتى داخل الطبقة الاجتماعية الواحدة ٠

ومن البديهى ان يهتم « أوزيبوف » بمفهـــوم الطبقة الاجتماعية ، ذلك المفهوم الذى اعتبـــره ماركس مقولة سيوسيولوجية هامة ، والذى عانى ظلما أكثر من غيره فى التراث الغربى البرجوازى الذى لونه وصبغه حسبما يريد ٠ ولذلك حرص باحثو علم الاجتماع الماركسى ـ ومن بينهم أوزيبوف ـ على أن يحددوا له معلما ويقدموا تصورا ، من ثم يرون الطبقة الاجتماعية على أنهـــا مجموعة كبيرة من الناس يميزهم وضـــعهم فى نظـــام الانتاج الاجتماعى المحدد تاريخيا وعلاقتهم بوسائل الانتاج ودورهم فى التنظيم الاجتمـاعى للعمل ، وبالتالى الطرق التى يحصلون بواسطتهـــا على نصيبهم من الثروة الاجتماعية ، ومقدار تلك التى يمتلكونها ٠ فالطبقة مقولة تاريخية ترتبط بمرحلة معينة من الانتاج ، ولها خصائص موضـوعية ٠ وهى لا تتميز بفكرة أعضائها عن أنفسهم أو أعضاء الطبقات الاخرى عنها ، ولا بعوامل ذاتية كالمكانة والسمعة كما هو الحال فى علم الاجتماع الامريكى الذى يعكسه الاتجاه التقويمى فى دراسة الطبقات ، ويتجلى بوضوح فى دراسات « لويد وارنر » عن الطبقات الاجتماعية ، ولكنها تتميز فى المقـــام الاول بعلاقة أعضائها بوسائل الانتـــاج ٠ لقد كتب لينين « ان الطبقات مجموعات من النـــاس تستطيع احداها أن تستغل عمـــل الأخرى نظرا للأماكن المختلفة التى تشغلها فى نظام محدد من الاقتصاد الاجتماعى » ٠

وبالرغم من تألق توضيح « أوزيبوف » لمفهوم الطبقة الاجتماعية من خلال توضيح أبعاده وعناصره فانه لم يبرز العناصر السوسيولوجية التى ركـز عليها « ماركس » ابرازا نقيا واضحا بالشـكل الذى أبرزها به « رالف داهر ندورف » فى كتابه عن « الطبقة والصراع الطبقى فى المجتمع الصناعى »



والذى نشرته جامعة ستانفورد عام ١٩٥٩ وفيه يرى أن ماركس استخدم مفهوم الطبقة بالمعنى السوسيولوجى حيث لم يشغل نفسه بوصف الحالة القائمة للطبقة فى المجتمع وحسب ، بل اهتم بتحليل قوانين معينة للتطور الاجتماعى وللقوى المتضمنة فى عملية التطور • فمفهوم الطبقة لدى ماركس ليس مفهوما استاتيكيا ثابتا كما فى علم الاجتماع الحديث ، بل هو مفهوم ديناميكى ، وليس وصفيا بل تحليليا ؛ ومن ثم فنظريته عن الطبقة ليست نظرية فى التدرج الاجتماعى،لكنها أداة لتفسير التغير الاجتماعى • كما أن ماركس أشار الى ما يسمى بتعدد الطبقات معتبرا اياها مقولة تحليلية هامة • ويتضح ذلك من احدى ملاحظاته المنهجية الهامة التى أشار فيها الى أن « الطبقة تمثل الظروف الحقيقية والموضوعية فقط عن طريق تعبيرها عن نموذجها العام » (داهرندورف ، الطبقة والصراع الطبقى ص ١٩ ، ٢٠) •

وأما عن الجانب الثانى من مجموعة القضايا النظرية فيمثل دراسة نقدية لعلم الاجتماع الغربى من خلال بعد أساسى وهو الايديولوجية ، فقد أوضح «أوزيبوف» بشكل يكاد يكون قاطعا كيف أثرت الايديولوجية فى نظريات علم الاجتماع الغربى ودثرته برداء سميك نأى به عن الواقع الاجتماعى ودنا به من المصالح الطبقية البورجوازية التى تحرص - حرصها على الحياة - على الابقاء على الاوضاع القائمة وتبريرها وتسييرها فى بعد واحد • ولم يقتصر الامر على الاوضاع المحلية والمجتمعية ، بل تعداها منطلقا الى خارج حدود المجتمع • وهنا يوضح المؤلف أن علم الاجتماع الغربى البرجوازى ليس بعد سوى وسيلة من الوسائل الامبريالية فى السيطرة وبسط النفوذ، وعلى ذلك سعى البرجوازيون الى تحويل علماء الاجتماع الى موظفين لدى الشركات الرأسمالية ، وحرص علماء الاجتماع من جانب آخر على أن يسمع صوتهم بوضوح لدى صانعى القرارات ومخططى السياسة فتلاقى الهدفان فوق أرضية علم الاجتماع فكانت النتيجة مدهشة حيث تركت هذه الاهداف آثارها واضحة جلية على مسار العلم فى هذه البلدان سواء فى جوانبه النظرية أو فى بحوثه الامبريقية • ويتجلى كل ذلك من اشارة المؤلف الى أن علم الاجتماع الغربى عامة ، والامريكى خاصة يهدف بين مايهدف اليه - الى فرض الطابع الاجتماعى القائم على الانسان ، وبعبارة أخرى ، صبه فى قالب يتفق وأسلوب الحياة السائد فى الغرب • فالمجتمع الامريكى كما يصورونه مجتمع صالح، كما أن قيمه الاجتماعية نعمة ، وجميع الصراعات

الاجتماعية يمكن حلها فقط اذا ما تمثل الانسان هذه القيم • ويدلل المؤلف على رأيه بتفنيده لعدد غير قليل من النظريات ، كنظرية الطبقات والجماعات الاجتماعية ، والصفوة Elite والحراك الاجتماعى • فهم يرجعون نشأة الطبقات مثلا الى اخضاع بعض الناس لغيرهم ، وبينما نجدهم يشيرون الى الصراع فى عصر الاقطاع ،فقد تغافلوا صراع الطبقة العاملة ضد المستغلين الرأسماليين • وتكاد نظريتهم فى الطبقات تكون أحادية البعد فى التفسير ، بل هى هكذا فعلا ، لأنها تركز على العوامل الحيوية والعنصرية والنفسية ويتضح ذلك فى نظرية « تارد » التى يدعو فيها الطبقية الدنيا لتقليد العليا •واذا كانوا يحرصون على تقديم تفسيرات نفسية وحيوية وعنصرية لنتائج البحث ، فانما ليصنعوا حاجزا يخفى وراءه تناقضات البناء الاجتماعى والاوضاع الاجتماعية التى يبغون قبل الشروع فى أى بحث الحفاظ عليها، فاذا ما أخذنا نظرية أخرى من تلك التى حللها « أوزسوف » ، ولتكن نظرية « الصفوة » نجد أنها ذات صور متعددة ، تستند تارة الى أفكار غيبية ، وأخرى الى أفكار تكنولوجية ترى فى الصفوة نتاجا طبيعيا للارتقاء التكنولوجى ،ومنها أيضا ما يعتمد على أفكار حيوية نفسية تفسر الصفوة بعدم تساوى الناس حيويا ونفسيا ،وهى كلها تفسيرات تؤيد ما هو قائم ، بل وتدعمه ، ومن ثم لا تكون هذه النظرية سوى سند أيديولوجى للسيطرة المطلقة للبرجوازية الاحتكارية •

ومع اعترافنا ببراعة المؤلف فى نقده الذى وافانا به لعلم الاجتماع الغربى وخاصة فى أمريكا ، فاننى أقترح أن يكون عنوان دراسته النقدية « علم الاجتماع الغربى من منظور غربى » فأسانيده وشواهده كانت فى معظمها مستقاه من انتقادات خرجت من داخل اطار علم الاجتماع الغربى ، ويدلل على ذلك استشهاده باقتباسات من « روبرت ميرتون » ورأيت ميلز ورالف داهرندورف وغيرهم • وفى هذا خطورة منهجية على نقده ، واتساقه وصدقه • ولنوضح ما نقول بمثال،فاذا أخذنا مثلا مقال «داهرندورف» عن « اليوتوبيا » نجد أنه انتزع من بين سطوره ما يساعده فى نقده ويحقق له مقصده ويدعمه • فداهرندورف هذا لم يكتف بتوجيه النقد الى علم الاجتماع الامريكى فقط ، بل وجهه أيضا الى علم الاجتماع الماركسى • واذا كان قد ربط بين فكرة التوازن الاجتماعى وهى الفكرة المسيطرة الى حد واضح على أذهان عدد غير قليل من مشاهير علماء الاجتماع فى أمريكا وشبهها بجمهورية أفلاطون ويوتوبيا جورج أورول ، واذا كا قد وصفهم بأنهم موظفون لدى الشركات الرأسمالية فقد نقد أيضا تصور علم الاجتماع الماركسى لمجتمع شيوعى غير محدد بزمان معين ، مجتمع ليس فيه طبقات وليس فيه صراع طبقى تؤكد الماركسية ضرورة وجوده اليوم ، وتلغى هذا الوجود فى الغد المجهول •

ويبقى لنا بعد ذلك المجموعة الثانية من القضايا ، التى تتعلق بالجوانب المنهجية فى علم الاجتماع • فاذا أخذنا التصور الماركسى لمناهج البحث فى علم الاجتماع نجد أنه أشار اليها فى عجالة دون توسع ضرورى ، حقيقة أنه أشار الى الدلالة المنهجية للمادية الجدلية ، وأنه اهتم بتحديد نقطة بدء الدراسة السوسيولوجية الموضوعية التى يرى أنها تنطلق من المقدمات المنطقية التى يستنداليها فى التحليل السوسيولوجى والتى عن طريقها يتم استخلاص التجريد ،حيث تتعلق بالافراد الحقيقيين ، نشاطهم والظروف المادية التى يعايشونها ، سواء تلك التى ينتجونها أو التى يجدونها قائمة • وهذه المقدمات يمكن التحقق منها بطريقة امبريقية خالصة (ص ٢٠) وابتداء منها يدرس علماء الاجتماع الماركسيون البناء الاجتماعى للعلاقات بين الطبقات وداخلها والنظم الاجتماعية S. Institutions التى تنظم هذه العلاقات ، ونمو وتفاعل الانظمة والتنظيمات الموجودة داخل المجتمع » • ومع ذلك لم يتوسع فى المناهج والادوات والاساليب الفنية الضرورية لعلم الاجتماع ، وخاصة أن مسألة الادوات تتسم بسمات حضارية وربما أيديولوجية أيضا • فاذا كان الباحث موجها باطار نظرى ومتأثر بتأثير ايديولوجى معين ، فان مضمون الادوات أكثر من شكلها يتأثر بهذا الاطار النظرى، فلو شاء باحث ما أن يصمم استمارة لبحثه فمن أين يأتى ببنودها وعلى أى أساس يختارها ويحددها وكيف يصوغ أسئلتها ؟ ألا يرتبط ذلك والى حد واضح بالاطار النظرى الذى بدأ منه معالجة موضوع بحثه وتحديد تصوراته ومفهوماته له ؟

ورغم أنه قصر – الى حد ما – فى توضيح هذا الجانب فى التصور الماركسى ، فانه أوضح أن تأثير الايديولوجية فى علم الاجتماع الغربى لم ينحصر فى مجال النظرية فقط ، بل تخطاه ليشمل

أيضا موضوعات الدراسة ويترك آثاره فوق استخدام المناهج وأدوات جمع البيانات ، حيث نلحظ الاسراف فى تدليل الكم والهوس الاحصائى والمبالغة فى النزعة الامبريقية المقتضبة التى تلمس من شجرة المجتمع - ان صح التشبيه - سوى الذوايات الغضة السهلة الاحتواء والبعيدة عن الجذور والفروع وما تدلل عليه من تناقضات بنائية ، وكل ذلك بهدف العزل والتجزئة وتسهيل التفسير ، بل وصبه فى قوالب أغراض وأهداف محددة سلفا ، الامر الذى حول علم الاجتماع الى نوع من المعرفة الوصفية الهشة .

يتضح اذن من العرض السابق لبعض قضايا « أوزيبوف » ورغم ايجازه أن ثمة قضية رئيسية تعترض قيام علم اجتماعى علمى موضوعى - نسبيا - تتمثل فى اخضاع العلم للايديولوجية ، وهذا يجعل منه عدة علوم وليس واحدا ، يرتبط تعدده بتعدد المجتمعات والبلدان والايديولوجيات ، كما نلحظ أيضا أن التأثير الايديولوجى كما أوضحه مؤلف الكتاب لا يقف عند حدود النظرية بل يؤثر أيضا وبصوره من الصور فى المنهج ، ومن ثم يمكن القول أن ثمة علم اجتماع برجوازيا وآخر اشتراكيا لأن وضع العلم - كما يتضح مما سبق - تكون نسبته الى الايديولوجية أقوى من نسبته الى أسس وقواعد علمية منهجية . وقد يعترض البعض على ذلك بدعوى أن علماء الاجتماع فى أمريكا لا يوافقون على المسميات الايديولوجية رافعين أمامنا أسطورة الموضوعية التى لا يتم تحقيقها الا عند كتابة مؤلفات لمناهج البحث وحيث لا تتعدى هذه الموضوعية أغلفة هذه الكتب وأرفف المكتبات . وهنا نود أن نتساءل : هل من المفيد لصالح علماء الاجتماع فى أمريكا ان يعترفوا بالمسمى الايديولوجى ؟! ونقول لمن يرفعون شعار الموضوعية المجردة ، كيف ومن أين نأتى بهذه الموضوعية ونحققها ، اذا كانت المؤثرات الخارجية تحيط بالباحث فى الاطار النظرى وفى الادوات ، وفى التفسير المستند الى التوجيه النظرى ؟

وقبل الانتهاء من هذا العرض نود أن نهمس « لأوزيبوف » قائلين انه اذا كان قد استند الى الايديولوجية فى نقد علم الاجتماع الغربى ، فان هذا البعد هو هو الذى صاغ على أساسه ملامح وأطر علم الاجتماع الماركسى ، ألم تتضح من تسمية العلم فى الاتحاد السوفيتى بهذا الاسم أن ثمة مسمى أيديولوجيا رسميا يتأثر بسياسة حزب واحد هو الحزب الشيوعى ؟ ألم يؤيد ذلك تحليل « يارجا ليتونين Y. Littunen أستاذ علم الاجتماع بجامعة تامبر Thamper فى مقاله حول « الوحدة والتعدد النظرى فى البحث الاجتماعى » والذى نشره بمجلة Sociologia سنة ١٩٦٤ ، (العدد الثالث) ، وفيه يشير الى أن علم الاجتماع الشيوعى علم محدد بنظرية واحدة وبرنامج حزب واحد ومن ثم يتسم بالتحدد النظرى والافتقار الى الشواهد الواقعية ، فى حين أن علم الاجتماع الامريكى يتسم بالتعدد النظرى فى الوقت الذى يفتقر فيه الى الاصول والاسس النظرية العلمية . واذا كان من الجائز أن نربط بين أوجه القصور فى هذين الاتجاهين فى علم الاجتماع و بين المؤثرات الايديولوجية ، فانه من الضرورى أيضا الانتجاهل ما أوضحه « ريمون آرون » فى كتابه عن **المجتمع الصناعى** حيث ربط بين الخلافات بين اتجاهات علم الاجتماع وبين تاريخ نشأة هذا العلم التى توضح رغبة العلماء فى الوصول الى الدقة والموضوعية التى هى جزء لا يتجزأ من هدف العلم ، والهدف التركيبى الذى يجعل منه نسقا متميزا عن العلوم الاجتماعية الاخرى . ولذلك نجد البعض يتعصب للموضوعية والامبريقية لتحقيق الدقة العلمية ، فى حين أن بعضا آخر يتعصب للغاية التركيبية والتحدد النظرى . ولكنه لا يوجد علم تم تعريفه على أساس الدقة العلمية فقط ، لأن التدقيق قد يؤدى الى جعل البحث شيئا جافا فاصلا ، ولأن هذه الرغبة فى التدقيق والموضوعية ليست دليلا على تحقيق الموضوعية !؟ كما أنه ليس بمقدور نظرية سوسيولوجية واحدة أن تحتوى الواقع الاجتماعى وصفا وتفسيرا وتحليلا مهما قدر لها أن تتألق نظريا ومنهجيا .

وأما عن الترجمة العربية التى قام بها الدكتوران سمير نعيم وفرج أحمد ، والتى اعتمدنا عليها كثيرا ، واستفدنا منها فى فهم هذا الكتاب فقد كانت المكتبة العربية متعطشة ومتلهفة اليها كما كانت أمينة صادقة دون اخلال ، الى حد بعيد ، فقد حافظت على الكتاب مبنى ومعنى ، باستثناء بعض الملاحظات البسيطة التى نشير اليها هنا فى عجالة . فأولا : فيما يتعلق بعنوان الترجمة العربية « قضايا علم الاجتماع - دراسة سوفيتية نقدية لعلم الاجتماع الرأسمالى » نجد أن ربط الدراسة النقدية بالمسمى السوفيتى قد يرجع الى أن « أوزيبوف » سوفيتى ، ولكن هل كانت مصادره وانتقاداته مستندة الى دراسات سوفيتية

أو دراسات خاصة قام هو بها ؟ الواقع أنه كما أشرنا قد رجع الى انتقادات واقتباسات معظمها غربية أثيرت من داخل علم الاجتماع البرجوازى نفسه • كما أن كلمة قضايا مطلقة الى حد كبير ، لأن الكتاب ناقش قضية تأثير الايديولوجية فى النظرية السوسيولوجية باسهاب ، فى حين ناقش تأثيرها فى المناهج باقتضاب ، وليس أكثر من هاتين القضيتين العامتين فى هذا الكتاب • وفيما يتعلق ببعض الاصطلاحات السوسيولوجية سوف نورد منها بعض النماذج ، فنجد أن مصطلح مثل Institution ترجم أحيانا على أن معناه « مؤسسة » وأحيانا أخرى على أنه « نظام » وقد يكون ذلك صحيحا اذا كان المؤلف يقصد استخدامه بالمعنيين كل فى موضوعه ولكن الحقيقة أنه كان يشير فى معظم الاحوال الى معنى « النظام » والذى كان يستخدم أحيانا فى الترجمة فى مقابل الكلمة الانجليزية system

(أنظر ص ٢٦٨ ، ٨٩ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١١٦ من الترجمة العربية) • ويكاد يكون هناك شبه اتفاق على ترجمة Institution بنظام system بنسق الا اذا كان أحد الباحثين يقصد به معنى معينا فى نسقه النظرى •

والمصطلح quoup ترجم على أنه مجموعة ، والسائد أنه يترجم جماعة • وقد يكون المترجم حرا فى ترجمته على شرط أن يقدم لنا تبريرا لترجمته هذه • وأما مصطلح S. disorganisation فقد ترجم كمقابل « للتفكك الاجتماعى » وقد تكون هذه الترجمة مقبولة خارج علم الاجتماع البورجوازى ، لأننا لا نتوقع من علماء هدفهم الحفاظ على الاوضاع القائمة وتبريرها ، أن يعترفوا بوجود تفكك اجتماعى ، ففى هذا ما يتناقض مع أهدافهم الايديولوجية • ولذلك فهم يستخدمون الاصطلاح كمقابل لخلل التنظيم الاجتماعى ، وحتى اذا ترجمناه نحن « بسوء التنظيم » فتلك ترجمة معيارية لأن المفهوم العلمى ليس من شانه أن يصدر حكم قيمة على الشيء بانه سيء أو حسن • والاهم من كل ماسبق هو ترجمة عناوين الابواب والفصول ، فالفصل الثانى الذى عنوانه General Sociological theory جاء عنوانه فى الترجمة العربية ، النظرية الاجتماعية العامة ، وما يقصده المؤلف هنا هو نسبة النظرية الى علم الاجتماع لا الى اجتماعى ، ومن ثم قد تكون الترجمة الاقرب الى الصواب « النظرية السوسيولوجية العامة » الى حين يتمكن المترجمون من تقديم بديل يحافظ على المعنى ، وخاصة ، وأن الفصل الثالث فى الكتاب والذى عنوانه Societal theory ترجم أيضا بالنظرية الاجتماعية ، والذى يقصده المؤلف النظرية المجتمعية التى تلتصق بالمجتمع ومكوناته بشكل أقل تجريدا عنها فى الفصل الثانى •

•••

هاينريش مان

فى ذكرى مرور ١٠٠ سنة على ميلاده

عرض وتقديم : د. عبد الغفار مكاوى

يحتفل العالم الأدبى فى هذه الأيام بذكراه . ويحتفى القراء والدارسون وأحباب الأدب باليوم السابع والعشرين من شهر مارس الذى شهد مولد هذا الكاتب الروائى قبل قرن من الزمان . وتعقد الندوات التى تتلى فيها صفحات من انتاجه الضخم فى القصة والرواية والمسرح والمقال ، وتعرض الأفلام التى تصور بعض رواياته التى ذاع صيتها فى أيام غير هذه الأيام . ولعل أحد هذه الأفلام ــ وهو الملاك الأزرق ــ لم يغب عن ذاكرتك حتى الآن . ولعل قراءتك لاسمه الذى يتصدر هذه السطور قد لفت انتباهك الى شقيقه الأصغر الذى فاقه شهره ومجدا ، وأصبح اليوم من أعلام الرواية فى القرن العشرين . ومع ذلك فلم يكن شقيقه الذى يكبره بأربع سنوات أقل منه حظا من الفن والجهاد من أجل الانسان ، والنضال فى سبيل الحرية والعدل والانتصار على الزيف والطغيان .

ومن طبيعة الاحتفال بذكرى عظيم أو حدث جسيم أن يتيح لنا الحياة فى زمن غير زماننا ، والتأمل فى ظروف عقلية وروحية غير ظروفنا . وليس هذا مجرد وفاء للعظيم الذى مات أو الحدث الذى انقضى ، ولا هو من قبل البكاء على الأطلال أو الوقوف عندها ، بل هو برهان متجدد على أن الانسان هو الكائن الوحيد الذى يستطيع أن « يتذكر » ، أى يعيش فى التاريخ ، أى يجعل من الماضى قوة تدفع دماء الحياة فى شرايينه ، بل تجعل هذا الماضى نفسه حاضرا ومستقبلا يتدفقان بالقوة والحياة .

عندما ولد هينريش وتوماس مان فى سنتى ١٨٧١ و ١٨٧٥ على الترتيب، كانت الامبراطورية الالمانية أو ما يعرف « بالرايخ الثانى » قد تأسست قبل مولد أكبرهما بشهور قليلة ، على يدى بسمارك وفيلهلم (أو غليوم !) الأول . وجاءت هذه الامبراطورية كما وصفها هينريش مان بعد ذلك بسنوات عندما قال ان الشعب لم يفكر فيها ولم يساهم فى انشائها بنصيب . فقد أعلنت فى قصر فرساى بباريس ، على أرض فرنسا المهزومة التى تنكرت لمبادىء الحرية والاخاء والمساواة ، فرنسا الامبراطورية الرجعية المعتدية التى جثت على قدميها أمام عدو أشد

* بتصرف عن محاضرة القاهها فى السابع والعشرين من مارس الماضى بالمركز الثقافى الالمانى بالقاهرة .



هـ . مان

منها رجعية وعدوانا . وكان هـذا العـدو هو ألمانيا البروسية التى دخلت عصر فتوحاتهـا الاستعمارية وقوتها الصناعية والاقتصـادية ، وبدأت تفرض نظاما مستبدا على البلاد الالمانيـة نفسها من الداخل ، وتحكم القيود والأغـلال حول الحركة الاشتراكية الديموقراطية الناشئة على هيئة القانون الذى أصدرته سنة ١٨٧٨ باسم « قانون الاشتراكيين » .

بلغت هذه الامبراطورية اذا قمة ثرائها وقوتها ومجدها فى السنوات التى جاءت بعد اعـلان قيامها . ولكن الثروة والقوة والمجد ظلت مقصورة على الغشاء الخارجى . أما من الداخل فكانت تمر بنهايه مرحلة تطورها البرجوازى . وتعانى أزمات الانحلال والتدهور والانهيار . وهذه الأزمات هى الموضـوع الأسـاسى الذى تدور حوله روايتان شهيرتان فى الأدب العالمى الحديث كانتا كذلك سببا فى شهرة صاحبيهما وحصول أحدهما على جائزة نوبل المعروفة سنة ١٩٢٩ ، وأعنى بهما رواية « آل بودنبروك » لتوماس مان التى ظهرت سنة ١٩٠١ ، ورواية « الخاضع » لهيزيش مان التى ظهرت سنة ١٩١٤ .

حاول الأخ الاصغر أن يصور فى روايتهانهيار أسرة من اعرف الأسر فى مدينه «لوبك» الواقعة على بحر الشمال ، وهى المدينة التى ولد فيها وعاش سنوات طفولته وصباه وشـبابه الى أن هاجر منها مع شقيقه بعد وفاة أبيهما سنة ١٨٩٣ ، وجاء تصويره لهذا الانهيار من ناحيتيه الاقتصادية والمادية التى سـتؤدى الى الموت والخراب ، والروحية والفنية التى تلازم الرقى فى العقل والسـمو فى الروح والرهافة فى الاحساس . وظل الصراع بين الحياة والفن ، بين الطبيعة والعقل بين رجل المجتمع ورجل الأدب هو محور حياته الطويلة مع القلم وعذابه المستمر مع الشكل والتعبير .

أما شقيقه الاكبر فقد انقطع سنوات طويلة لتصوير بطله « الخاضع » ديدريش هيسلنج ، وجمع المادة الكافية لرسم شخصية هذا الرجل الكريه المريب الذى اتحد فيه الحقد والغباء ، والفساد والغرور ، والبلادة الذهنية والنشاط

العملى والاجتماعى حتى أصبح أنموذجا لشخصية السياسيين فى ذلك الحين ، أو وجها مكررا من القيصر البروسى الكئيب .

هكذا نرى كيف تنهار عائلتان من تلك العائلات ذات النزعة الانسانية والبرجوازية التى «لاتقدم الا على الأعمال التى تتيح لها بالليل أن تنام» .. وهما عائلتا بودنبروك وبوك امام عائلتى هاجشتروم وهسلنج اللتين تملكان من الجشع والقبح والقدرة على المغامرة ما يقتل فيهما كل ضمير واحساس ، ويجعلهما بحق ممثلين للطبقة الجديدة الزاحفة فى أواخر القرن التاسع عشر .

• • •

تحدثنا حتى الآن عن هينريش وتوماس مان ، وكأننا نحرص على النطق باسميهما فى نفس واحد ! فهل يرتبط الاسمان حقا فى أذهان القراء المحدثين ؟ وهل يذكرون أحدهما حين يذكرون شقيقه الاصغر الذى لا شك فى أنهم عرفوا عنه الكثير أو القليل ؟

لقد غادر كل منهما وطنه هربا من الزحف النازى ، وتشتتا فى البلاد الاوروبية قبل أن يستقر بهما المقام فى الولايات المتحدة الامريكية وعاش أكبرهما منسيا أو كالمنسى فى مهجره ، وقدر له قبل وفاته أن يدعى لرئاسة أكاديمية الفنون فى برلين الشرقية فحال الموت بينه وبين العودة الى وطنه ، كما قدر للآخر أن يشهد تحرير بلاده ويزورها ويحاضر فى الاحتفال بذكرى شاعريها الخالدين جوته وشيلر وينهال عليه التكريم من مختلف الجامعات والمحافل العلمية والأدبية قبل وفاته فى سويسرا سنة ١٩٥٥ . فهل يعنى هذا أن اسمهما قد أصبح عنوانا على فكرة واحدة تجمع بينهما ، أم أنهما ظلا من حيث الروح والانتاج طرفين متقابلين متباعدين ؟

لقد وجد هذا التقابل بالفعل . ولا بد لكى نتبينه على حقيقته أن نرجع بالذاكرة الى ما قبل الحرب العالمية الأولى . فقد كان القراء ينظرون الى « هينريش » نظرتهم الى الكاتب المنفر الذى تضيق به صدورهم . انه الكاتب الذى ألف رواية « فى بلد الأحلام » (١٩٠٠) وتوقعوا منه أن تصور لهم شخصيات مترفة رقيقة مرهفة الاحساس ، فاذا به يفاجئهم بشخصيات أخرى مسرفة فى الفساد والغلظة والغباء ، التقطها من مستنقع برلين الذى يسبح فيه رجال البورصة والصحافة . وهو الذى صدرت له رواية « الأستاذ انرات » سنة ١٩٠٥ التى كشفت لهم القناع عن شخصية ذلك المعلم البروسى البشع ، وصورت بأسلوبها الساخر المر كل ما فى هذه الشخصية من قذارة واستبداد (وهى نفس الرواية التى قام عليها فيلم الملاك الأزرق الذى لعبت بطولته الممثلة الراقصة المشهورة مارلين ديتريش صاحبة أجمل ساقين فى العالم !) .

أما شقيقه الاصغر « توماس » فكان فى نظرهم هو الكاتب « المريح » الذى يستمتعون بأسلوبه المتهكم الرقيق ، وموسيقاه العذبة الرصينة ، ولغته المكثفة الرائعة التى يشيع فيها نغم فاجع حزين ، كأنه نشيد جنائزى يعزف فى موكب عالم جليل منهار ، وروحه الانسانى المتسامح الذى تتردد فيه أصداء من تشاؤم فلاسفة الحضارة الاوروبية وعمق التحليل النفسى وسخرية الحكمة الشرقية وعذاب الرومانتيكية الألمانية وصرامة العقلية البروسية .

انتهت الحرب العالمية الأولى بالهزيمة المعروفة فبدت الأمور على صورة أخرى . وبدأ الناس ينظرون الى هينريشن مان نظرتهم الى كاتب ينتظره مستقبل رائع . فهو الناقد الذى لايرحم لعصر « غليوم الأول » ، وهو الملهم الذى تنبأ بانهيار ذلك العصر وسقوطه ، والجمهورى المتحمس لقيم الحق والتقدم والعدالة الاجتماعية أما شقيقه فقد تصور الناس حينا من الزمن أنه الكاتب الرومانتيكى الحالم الذى قال كل ما عنده ! وأسعفتهم الأسماء والصفات والقوالب التى يسرعون بحشر الأدباء المساكين فيها ! ووجد نقادهم أن أنسب صفة يطلقونها على هينريش هى « الكاتب » .. أما توماس فسموه « الأديب » .

هل معنى هذا أنهم طمسوا الفوارق التى تميز بين الأخوين ؟ وهل صحيح أن هذه الفوارق لم يكن لها وجود ؟

لا شك أن هناك ما يفرق بين الكاتبين أو الاديبين ، ولكن بمعنى آخر ومن وجهة نظر أخرى لا تستطيع أن تكشف عنها التفرقة الشاحبة بين الكاتب والاديب .. وقد نحتاج لبيان هذا الى الرجوع مرة أخرى لماض غير بعيد .. ليتضح لنا أن مسافة البعد فى الزمن كفيلة بمحو الفروق الظاهرة بين الادباء والمفكرين أو تقريبها على أقل تقدير ، وتأكيد أن روح المعاصرة

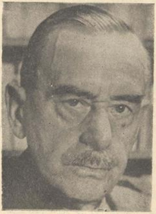
قد لا تنكشف الا بعد وقت طويل . هنالك يبدو الأدباء الذين تختلف بينهم الامزجة والطبـاع أطرافا تكمل بعضها البعض وتسعى - على دربين متباينين - الى هدف واحد كبير .

والقارىء يعلم بغير شك أن هذه ظاهرة تتكرر في كل الآداب ، كمـا يذكر من قراءاته أن الشاعرين الكبيرين جوته وشيلر قد ظنـا فترة من الوقت أو ظن النـاس بهما أنهما قطبـان لا يلتقيان .. ولقد أبعـد الخلاف في الطبيعة والمزاج بينهما الى حد الكراهية والبغضاء .. ثم اعترف كل منهما بعبقرية صاحبة وتبين أنه لا يكمل الا به .. ونشأت صداقة خصبة نادرة في تاريخ الأدب أو في سيرة العظماء .. وأصبح الشاعران علما على الحركة الكلاسيكية في الأدب الألماني ، ورمزا لما يمكن أن تصنعه المحبة من آثار قوية رائعة على مر الأجيال .

كتب شيلر في احدى دراساته الفلســفية والجمالية رسالة عن الشـاعر الساذج والشـاعر العاطفي ، حاول فيها أن يصنف الشعراء بوجه عام الى نمطين أو نموذجين أساسيين تحددهمـا طبيعتهما وموهبتهما وموقف كل منهما من الواقع والحياة . فالشاعر الساذج هو الشاعر المطبوع القريب من الارض والطبيعة ، وهو الشـاعر الذي يبدع بغير جهد ولا مشقة وكأنه ينهل من نبع متدفق طوع يديه ، أشبه بالطبيعة العظيمة التي تخلق ما تخلق بغير عناء ، وقد وجـد أن الشعراء القدامى يحققون هذا النموذج على أكمل وجه ، وبخاصة هوميروس أب الشعراء وأنـه لا ينطبق على أحد من الشعراء المحدثين كما ينطبق على جوته وشيكسبير . أما الشاعر العاطفي فهو فهو الذي يحلق مع الفكر والخيـال والمثـال ، ويسـتمد مادته من الفكرة لا من الواقع ، فاذا أوغل في التحليق عرض نفسه للوقوع في أخطار التجربه أوأن يتفوق على صاحبه الساذج المطبوع، أو أمكنه على أقل تقدير أن يقف منه موقف الند للند ! (وقد كان شيلر يدافع عن قصد أو غير قصد عن نفسه ازاء عبقرية صاحبة جوته وموهبته السخية الطيعة !) . ونموذج الشاعر العاطفي ينقسم بدوره الى نمطين يميل أحدهما الى التهكم والسخرية ، وتغلب على الآخـر نغمة بكائيـة فاجعه .

ويعنينا من هذا كله أن الكـاتبين الكبيرين اللذين نتحدث عنهما يندرجان تحت النموذج الذي سماه شيلر النموذج العاطفي .

ولا شك أن النغمة الحزينة الباكية تغلب على



ت . مان

أعمال توماس مان ، وان كان هذا لا يمنع انه يكسر هذه النغمة بالدعابة الصافية والسخرية الذكية الهادئة ، والحرص البالغ على سرد التفاصيل الواقعية الدقيقة . أما شقيقه الأكبر فتغلب عليه السخرية المرة والتهكم الجارح والنقد الذى يصل الى درجة العداء الصارم للمجتمع المنهار الذى عاش فيه — وليست هذه أساليب أدبية يلجأ اليها كما كان يفعل شقيقه بصورة أكثر رقة وشاعرية ، بل هى عناصر أساسية فى تكوينه الفنى . ولا بد من القول بأنه قد تطرف تطرفا شديدا فى هذه النزعة الساخرة القاسية حتى انصب جل اهتمامه على تجميع المادة السلبية المدمرة واهمال الجانب الايجابى البناء ، مما أكسب رواياته طابع الجمود فى بعض الاحيان ووصل بها فى أحيان أخرى الى طريق مسدود . واذا جاز لنا أن نرجع مرة أخرى الى شيلر الذى وصف الاديب الساخر فى مقاله السابق بأنه « مثالى مهان » ، لوجدنا أن هذا الوصف يمكن أن يصدق على هينريش مان . فنحن لا نكاد نجد فى رواياته مكانا للمثل الاعلى ، باستثناء روايته الكبرى عن هنرى الرابع . والسبب فى هذا كما قلت هو تطرفه فى السخرية والتهكم الى حد مدمر . أما مقالاته العديدة فتكشف عن صورة كاتب انسانى مناضل ، دافع طوال حياته عن الحقيقة والعدل والعقل والتقدم ، ورفع راية هذه القيم الخالدة وسط خرائب عصره المنهار وطبقته المتدهورة التى وصلت الى الحضيض عندما ارتمت فى سنة ١٩٣٣ فى أحضان البربرية الفاشية .

ويكفى أن نذكر موقفه من حريق الكتب المشهور الذى ألقى فيه النازيون بمؤلفات أكثر من مائتى كاتب وشاعر ألمانى كان معظمهم قد مات أو انتحر أو فر الى المهجر أو فرض عليه الصمت . لقد راح وزير الدعاية جوبلز فى ذلك اليوم الملعون يلقى خطبته المسمومة عن أولئك الادباء المنحلين ، ويبارك النار والدخان المتصاعد من الضحايا العاجزة المسكينة . وكانت كتب الشقيقين الغائبين من بين هذه الضحايا التى احتفل هذا الساحر الهمجى باحراقها على صياح الجماهير المجنونة المخدوعة . تحدث هينريش مان بعد ذلك عن هذا العار الاسود فقال : « من الواجب أن تهتدى العقول الراقية الى الحقيقة الانسانية البسيطة ، وأن يصبح احساس الكاتب هو نفس احساس العامل . عندئذ لا تحرق الكتب أبدا .. »

* * *

كان الأب تاجرا غنيا من تجار الغلال فى مدينة « لوبك » وشخصية سياسية مرموقة فى ذلك الميناء الشمالى العريق . ولا بد أنه حاول أن يجعل أبناءه رجالا محترمين مثله .. ولكن ما العمل اذا كانت ربات الفن أو شياطينه قد سكنت أجسامهم ؟ انه يدون مشروع وصيته قبل وفاته فى صيف سنة ١٨٩١ بشهور قليلة ، ويلزم الاوصياء بتربية أبنائه تربية عملية . ثم يبدى رأيه فى ولده الاكبر هينريش ويكلف الوصى أن يرده للعقل ويقاوم ميوله الادبية المزعومة ! ذلك لأن هذه الميول الأدبية التى ظهرت أعراضها عليه لا ترجع فى رأيه الى موهبة حقيقية ، وانما ترجع الى طبيعته الحالمة وعدم اكتراثه بغيره وعجزه عن التفكير ! والنجاح فى الحياة الادبية يحتاج لدراسة عميقة ومعرفة شاملة يفتقر اليهما هذا الولد الضال ! .

ويوصى الأب أخاه أن يؤثر على ابنه ويعصمه من السير على طريق سيؤدى به حتما الى كارثة (وهى نبوءة صادقة بوجه عام ، لأن الاشتغال بالادب والفكر فى حد ذاته كارثة !) . ويختم وصيته بقوله : « يجب على ولدى أن يضع النهاية نصب عينيه ولا يستسلم لرغباته الراهنة » .

ونحن اليوم نحمد القدر الذى لم يحقق وصية الاب . بل ان هذا القدر قد شاء أن يعاند الاب الحريص على مستقبل أبنائه ، فاتجه ابنه الثانى توماس الى «النشاط الادبى المزعوم » ، وجرب الثالث — فيكتور حظه فى الكتابة دون نجاح يذكر واحترفت احدى بناته التمثيل وانتهت حياتها بمأساة الانتحار .

ولكن ألم يكن الاب المسكين على حق ؟ ألم تصبح المشكلة الاساسية فى أدب ابنه الثانى هى مشكلة الهوة الفاصلة بين الفن والحياة وبين الفنان والبورجوازى ؟ ألم يقل على لسان شاعر فى احدى رواياته المتأخرة ان الزهور هو الحلف الذى نعقده مع ربة الفن ، وان الحياة هى البستان الذى حرم على الفنانين أن يدخلوه ؟ — ومع ذلك فان المشكلة كامنة فى روح العصر ، وهى شىء يتجاوز رغبات الآباء أو طموح الأبناء .

* * *

رحل هينريش مان فى الثانية والعشرين من عمره الى فرنسا ، ثم سافر منها الى ايطاليا ،وظل

يعيش متنقلا بين مدينة ميونيخ وايطاليا حتى اندلعت نيران الحرب العالمية الاولى • وظلت كذلك حياته فى فرنسا وايطاليا هى التجربة الحاسمة التى أثرت على شخصيته وأدبه • ولا بد انه سأل نفسه هذا السؤال الذى شغله طوال حياته لماذا عجز الأدب الألمانى فى القرن التاسع عشر عن الوصول الى مستوى الادب الواقعى العظيم فى انجلترا وفرنسا ؟ هل يرجع السبب الى طبيعة هذا الأدب أم الى طبيعة الحياة الالمانية ،التى شقيت بالاستبداد وحرمت من الحرية ؟ ولم يكن غريبا أن يرتبط هينريش مان بالتراث الادبى الفرنسى ويلتمس مثله الاعلى فى أعمال بلزاك وفلوبير وموباسان وزولا ، ويتأثرهم فى رواياته الاجتماعية والنقدية الكبيرة • ولم يكن غريبا أن يقع فى أخطاء كثيرة من الناحية الفنية والاجتماعية والسياسية ويتعرض لما تعرض له المثقفون بوجه عام فى أواخر القرن التاسع عشر من احساس بالتشاؤم العميق فى مستقبل الحضارة وشك فى معانى التقدم والتطور ، وارتياب فى الحركات والتيارات الاجتماعية الجديدة • كانت فلسفة نيتشه قد زلزلت الارض تحت أقدام الجميع ، فلم ينج أحد من التأثر بنقده للحضارة ، وهجومه على الجماهير ، وتمجيده لأرستقراطية الثقافة • لقد صب غضبه الرائع على رؤوس المدعين والمتحذلقين وتنبأ بانهيار الحضارة البرجوازية ، وأعلن أنه أخر « العدميين » أى آخر المشيعين لجنازة أخلاقها الهشة وفكرها المتداعى ، المبشرين بمواكب الانسان الاعلى المنتظر ، الذى سيمجد قيم الحياة والارض والقوة والارادة والبطولة •• ولكن نقده لهذه الحضارة ظل فى صميمه نقدا جماليا لم يتجاوزه الى الناحية الاجتماعية • ولعله قد أدى بغير قصد منه الى التشكيك فى فكرة الحضارة نفسها • ولعله أيضا بدعوته الى الارستقراطية العقلية والروحية والانسان الأعلى وارادة القوة والفعل قد ساعد كذلك على اساءة فهمه من قبل الاوساط والأغبياء ، ومهد ـ بغير ذنبه ـ الى حكم الأسياد المتبجحين وبربرية « الوحش الاشقر » •

لم يستطع « هينريش مان» أن يرى هذا كله رؤية واضحة ، ولم ينج بطبيعة الحال من التأثر بهذه الفلسفة المتشائمة • أضف الى هذا أنه تأثر أيضا بفلوبير • والمعروف أن الكاتب الفرنسى الكبير هو عدو البرجوازى لا البرجوازية وعبارته المشهورة « البرجوازى فى رأيى هوالذى يفكر تفكيرا منحطا » ، تدل على أنه لا ينظر اليه نظرة اجتماعية بل أخلاقية وجمالية • ومن هنا جاءت عنايته بالشكل والأسلوب • فالمجتمع البرجوازى قد خلا فى رأيه من كل قيمة جمالية ، وأصبح عاجزا عن الهام الفنان واثارة الحماس فى نفسه • ولذلك فهو يصرف كل جهده الى الشكل ، ليجد فيه الجمال الذى لم يجده فى المضمون أو الذى عجز هذا المضمون عن تقديمه له • وتستوى بعد ذلك المادة التى يصفها ،فليس المهم ما يصفه بل كيف يصفه •

ظل هينريش مان متأثرا بهذه النظرة الجمالية الخاصة حتى استطاع أن يتخلص منها الى حد كبير فى روايته الكبرى التى ذكرتها من قبل ،وهى رواية « الخاضع » التى انتهى من تأليفها سنة ١٩٤١ • فقد أثبتت قدرته على التحليل والنقد الاجتماعى ، ودلت على اتساع أفقه السياسى والفكرى •

وكانت الرواية كسبا كبيرا للأدب الألمانى فى بداية القرن ، ففتح لها الادب العالمى أبوابه ، كما فعل مع رواية شقيقه (آل بودنبروك) التى ظهرت قبلها بثلاث عشرة سنة • ونجحت الرواية نجاحا ساحقا فوزعت منها مائة ألف نسخة فى ستة أسابيع ، وضمنت لصاحبها الذى أتم السابعة والأربعين من عمره موردا ماديا يكفل له شيئا من الاطمئنان فى حياته الزوجية التى كان قد أسسها قبل ذلك بأربع سنوات •

خرجت ألمانيا من الحرب العالمية الاولى محطمة مقهورة • فقد اقتطع منها جزء من أراضيها (كالالزاس واللورين التى ضمت لفرنسا) وفقدت مستعمراتها ، وفرضت عليها التعويضات الفادحة فى معاهدة فرساى ؛ وباتت مهددة بالخراب الاقتصادى والثورة الاجتماعية •

وكان هينريش مان من أوائل المكافحين فى سبيل تأسيس الجمهورية المعروفة بجمهورية « فيمار » ، التى استمرت من سنة ١٩١٩ الى سنة ١٩٣٣ عندما قضت عليها الفاشية الهتلرية • فقد آمن بها ، وجاهد مع صفوة الادباء والعلماء لتصبح جمهورية ديموقراطية تنقذ المجتمع وتغيره من جذوره ، وتنشر فيه مبادىء الحرية التى يبدو أنه لم يستطع أن يألفها عبر تاريخه الطويل • ودفعه هذا الايمان الى تأسيس « مجلس سياسى» فى مدينة ميونيخ سنة ١٩١٨ يكون بمثابة برلمان يضم صفوة المثقفين الاحرار •

استمر هذا الوهم ما يقرب من عشر سنوات ولم يستطع أن يغير شيئا من رأى هينريش مان

فى هذه الجمهورية التى ولدت عجوزا متداعية . ثم تتابعت التجارب الأليمة ، انهارت الجمهورية ، وزحفت النازية ودقت طبول الحرب والدمار . وكتب يقول فى سنة ١٩٤٣ عن تلك المحاولة الفاشلة :

« كانت الجمهورية كذبة مخيفة . وكان هذا هو السبب الحقيقى فى اخفاقها . انها لم تعترف أبدا بحقائق الحرب السابقة ، وظلت السلطة كما كانت من قبل فى أيدى رجال الصناعة وكبار الملاك » .

وقبل أن تنهار الجمهورية بقليل ويقفز ذئاب الفاشية الى السلطة ، اشترك هينريش مان فى توجيه نداء الى أهالى برلين وقع عليه معه العالم أينشتين والرسامة كيته كوليفتش طالبوا فيه بتوحيد حزبى العمال فى ذلك الحين لمواجهة الخطر الزاحف .

وعلقت اللافتات التى تحمل النداء فى كل الشوارع لكن الوقت كان قد فات ، واضطر فى الخامس عشر من شهر فبراير سنة ١٩٣٣ أن يخرج من أكاديمية الفنون البروسية التى كان يرأس القسم الأدبى فيها ، وغادر بلاده فى الحادى والعشرين من نفس الشهر ، وأفلت بهذا من الاعتقال المحتوم .

واستمرت حياته فى المنفى حتى وفاته سنة ١٩٥٠ . قضى سبع سنوات فى فرنسا ، فلما أحس بزحف الذئاب الشقر فر منها فى ظروف محفوفة بالمخاطر مع زوجته وعدد من أصدقائه الادباء الى البرتغال ومنها الى الولايات المتحدة الامريكية التى قضى فيها السنوات العشر الاخيرة من حياته ، وحيدا ، منسيا ، لا يكاد يجد من يعرفه أو يفهمه . وهناك استقر فى لوس انجيلوس بالقرب من هوليود ، فى بيت مجاور لبيت شقيقه توماس مان وصديقه ليون فويشتفانجر . ولو قرأنا اليوم مقاله المشهور عن « اميل زولا » لهزتنا هذه العبارات التى لا شك فى أنه كان يقصد بها نفسه : « أما أصعب شىء على نفسه فكان احساسه بالنفى وتعرضه لشبهة الفرار من السجن .. واضطراره للتخفى فى بلد غريب ، والتورط فى مغامرات مضحكة نتيجة جهله بلغة أهلها ، والهروب من العيون المتطفلة ، والتعزى بالكتمان . كان هذا هو الاطار الذى عاشت فيه أفكاره الوحيدة ، واحساسه بالالم الذى يعانيه المشرد الطريد الذى تصله أنباء وطنه كأنها صدى الجنون والرعب ، ويظل ينتظر الحدث المجهول الذى يدعوه الى الوطن » .

◆ ◆ ◆

واصل العمل فى منفاه فى فرنسا على الرغم من بلوغه الثانية والستين من عمره . وبلغ ذروة ابداعه فى روايةتاريخية من جزئين عن « هنرى الرابع » (١٥٥٣ – ١٦١٠) تعد من أعظم الاعمال الادبية فى القرن العشرين . ولا بد أن تفكيره فى مصير بلاده والمأساة التى تعانيها على أيدى الجلادين الفاشيين هو الذى ألهمه فكرة هذا العمل الضخم ، كما ألهم بعض زملائه بروايات تاريخية عديدة ظهرت كلها فى الثلاثينات والاربعينات (مثل توماس مان وليون فويشتفانجر وبرونو فرانك وستيفان زفايج) .

لقد راح الجميع يتأملون أسباب هذه المأساة ، ويرمزون للحاضر المظلم بصور من الماضى البعيد وينقبون فى طبقات التاريخ عن شخصيات انسانية يفتقدونها فى واقعهم أو يحاولون أن يواجهوا بها مواجهة المذنب الاثيم للشهود والقضاة العادلين !

وقد خطرت له فكرة هذه الرواية سنة ١٩٢٥ عندما وقف أمام قصر الملك هنرى الرابع فى سفح جبال البرانس أثناء طوافه بفرنسا فى رحلة سياحية وبقيت الفكرة هاجعة فى صدره حتى بعثتها الكارثة التى ألمت ببلاده ، فعكف على كتابتها وهو فى منفاه على أرض فرنسا نفسها . وراح يعمل فى روايته الضخمة بلا كلل ، يربط بين الحاضر والماضى ، ويستخرج من التاريخ أنبل ما فيه من كفاح فى سبيل الانسان . وجعل من حياة ذلك الملك البائس العظيم مثلا أدبيا عاما يصدق على جوهر الانسان . ويكفى أن نقرأ آخر كلماته التى وجهها الى معاصريه لنعلم أنها جديرة بأن نسمعها منه اليوم ونتأمل معانيها : « ان السعادة موجودة حقا . والعدالة والرخاء طوع بنان كل انسان . وليس فى مقدور أحد أن يقتل الشعوب لا تخافوا السكاكين التى يهزونها فى أيديهم . لقد خفتها من كل أعماقى . فكونوا خيرا منى اننى انتظرت طويلا . الثورات لا تأتى تلبية لدعوة داع . لهذا ينبغى عليكم أن تخلصوا لها حتى النهاية ، وتبذلوا لها كل ما فى طاقتكم من قوة » .

عنى هينريش مان بتوضيح الرمز الذى قصد اليه ، وتعمد أن يشد خيوط الحاضر الى الماضى

ويجعل التاريخ مرآة تعكس وجه الواقع · وعبر بهذا عن رأيه فى الرواية التى لا يجوز لها أن تكون مجرد سرد للتاريخ وتوضيح له ، ولا أن تكون حكاية مسلية ممتعة ، بل مثلا صادقا ورمزا كاشفا عن حقائق أشمل وأعم · لقد صور فى هذه الرواية عصبة من كبار ملاك الاراضى وحكام الاقاليم الشرهين الى السلطة والمال ،مزقوا أوصال المملكة ودمروها وخانوا قضيتها · وزعموا أنهم يدافعون عن عقيدة ومذهب ، وأنهم لذلك يستحقون الثناء والحمد لوقوفهم فى وجه الفوضى والالحاد · وهى حجة لا يزال يلجأ اليها كل من يقف فى وجه العدالة والثورة وحق الشعوب فى الحرية ·ولقد تصرف هنرى الرابع معهم تصرف الثائر العظيم ، لهذا دمغوه بالمروق والزندقة وجعلوا منه مثلا لكل شجاع ثائر تنهشه كلاب السلطة وذئاب المال والاستغلال ·

ويكفيه أنه كان وحده « جبهة شعبية » ،ومثلا ورمزا لكل الذين تخلوا عن روح التدمير ،وداسوا الحرب والعدوان بأقدامهم ، وطرحوا التعصب وراء ظهورهم ، وأحسوا بمحنة شعبهم والشعوب الاخرى فكافحوا بقدر طاقتهم فى سبيل اسعادها ·

◆ ◆ ◆

يصعب علينا أن نتصور العبء الذى تحمله هينريش مان فى منفاه · انه الآن شيخ تجاوز الستين ، غريب ووحيد ومهدد بالاخطار فى كل لحظة · ومع ذلك فهو ينهض بأمانة القلم وأمانة الوطن بشجاعة وقوة يحسدها عليه الشاب ·· ها هو ذا يتم روايته التاريخية الضخمة ، ويشرف على أعمال اللجنة التحضيرية التى يرأسها فى المنفى لتأسيس جبهة شعبية ألمانية ، ويلتزم بكل الأعباء التى تفرضها عليه : مقالات يكتبها فى الصحف اليومية والاسبوعية ، أحاديث يبعث بها الى الاذاعة السرية بالقرب من مدريد ، منشورات ترسل خفية الى داخل ألمانيا الفاشية ، نداءات حارة الى الكتائب الدولية المحاربة فى صفوف الجمهوريين فى الحرب الأهلية الأسبانية ، خطب فى المؤتمرات الدولية للعمال والمثقفين ·· وانتخب رئيسا لاتحاد الكتاب الألمان المهاجرين ، وأسس « المكتبة الألمانية الحرة » لتعيد نشر الكتب التى أحرقها النازيون ·

ويواصل نشاطه الخلاق بعد أن تجاوز السبعين فيتم ثلاث روايات أخرى ويبدأ رواية رابعة لم يتمكن من اتمامها عن « قصة فريدريك الاكبر المحزنة » · ويفرغ من تدوين مذكرات حياته (مشاهدة عصر) التى تسجل ايمانه بالواقع واعترافه بأنه هو مصدر كل جهد عقلى وغايته ، ومعياره · ولقد تنبأ فى هذه المذكرات بميلاد انسانية جديدة استطاعت أن تصرع الوحش النازى المغرور وبدأت فى بناء عالم جديد يعمل مخلصا فى سبيل الحرية والسلام · وما أجمل هذه الكلمات التى يقولها تحية للشعوب التى خرجت ظافرة من حرب التحرير ، وبخاصة شعوب الاتحاد السوفييتى : « هنا يبدأ انسان جديد وعصر جديد وتبلغ قدرة الانسان على التحول والتغير حدها الأقصى ، ويبزغ عالمَ أخلاقى ليس له مثيل ولم يسبق له وجود · لا جدوى من السؤال عن تأثير ذلك على مجرى الأحداث الدولية · فالمهم أن هذا العالم قد وجد بالفعل وأنه سيواصل وجوده ويحافظ على بقائه ويعيش أطول مما عاشت الثورة الفرنسية وينتصر على مظاهر الضعف والمرض والاضطراب فى طبيعة الانسان ·· ان هذا العصر يستحق الثناء لأنه كشف فى النهاية عن أفضل جانب فيه وأكثره عدلا وحقا · »

◆ ◆ ◆

انتهت الحرب بهزيمة ألمانية الهتلرية واندحار فلولها المجنونة العمياء · واستسلم الوحش الاشقر فى شهر مايو سنة ١٩٤٥ · ووجه هينريش مان فى نفس الشهر نداء الى سكان برلين الممرغة فى دماء الهزيمة وعارها يدعوهم الى الاعتبار بالماضى والحذر من المستقبل · وتم انتخابه رئيسا لأكاديمية الفنون فى برلين · ودعى للعودة الى وطنه ، ولكن الموت عاجله قبل أن يلبى الدعوة ·

ان الاحتفال فى هذه الايام بمرور مائة سنة على ميلاد هينريش مان يذكرنا بهذه الابيات العميقة التى قالها الشاعر العبقرى الوحيد فريدريش هولدرلين (الذى احتفل العالم فى العام الماضى بذكرى مرور مائتى سنة على مولده فى نفس السنة التى ولد فيها هيجل وبيتهوفن · وذكرنا نحن هنا الفيلسوف والموسيقى ولكننا نسينا الشاعر المسكين !) · تقول هذه الابيات التى تدعونا أن نعيش لحظة فى معانيها التى يتحد فيها الالم الاقصى والفرح الاكبر : —

تطلعت روحى الى الأعالى ،
لكن الحب جذبها (الى الأرض) جذبا جميلا ؛
والعذاب قهرها فى عنف ؛
هكذا أعبر قوس الحياة
وأعود الى حيث جئت !

الأدب وقانون العائد المتناقص

ترجمة : أحمد إحسان

فى رواية سولزنستين « **الدائرة الاولى** » ، يناقش بعض الناس التقدم العلمى • وفجأة ينفجر أحدهم ، وهو جليب نرزين صائحا :

التقدم ! من يريد التقدم ؟ ان ما أحبه فى الفن هو بالضبط أنه لا يمكن أن يكون هناك أى « تقدم » فيه • فمثلا — فى القرن السابع عشر كان **رامبرانت** ، ولا يمكن لأحد أن يحسن فيه ، بينما تبدو لنا تكنولوجيا القرن السابع عشر الآن فجة الى أبعد حد ••

ثم يأخذ فى الحديث عن التطورات الهائلة فى الهندسة منذ سبعينات القرن التاسع عشر ، ويتساءل : « لكن هل حدث أى تطور فى « أناكارنينا » التى كتبت فى ذلك الوقت ؟ » •

أما الموقف المضاد فقد اتخذه سارتر فى مقاله « ما هو الادب ؟ » حيث قارن الكتب بثمار الموز التى لا يتلذذ بها المرء الا طازجة • وطبقا لهذه النظرة لابد أن تكون « أناكارنينا » قد تعفنت منذ زمن بعيد • ويعبر عن نفس الموقف بطريقة أكثر استفزازا المتحدثون بلسان الرواية الجديدة والجماعات الطليعية الاخرى ، التى تضم بعض الطلبة الغاضبين الاكثر صراحة • وقد لخص **انتونين ارتو** هذا الموقف بعبارة ذات مغزى : « **ان روائع الماضى تنتمى للماضى ، وهى ليست لنا** » •

ويعكس بطل سولزنتسين النظرة التقليدية القائلة **ان العلم يتقدم بطريقة تراكمية ، حجرا على حجر ، كما يعلو البرج ، بينما الفن غير محدود بزمان ، انه رقص كرات ملونة على تيار نافورة ، يعزف تنويعات على الحان قليلة خالدة •فاذا قبلت هذه النظرة ، فانه يكون من العبث أن تبحث عن محك موضوعى « للتقدم » فى الشعر ، أو التصوير ، أو الدراما ، فان الفن عندئذ لا يتطور، بل انه يقتصر على صياغة ، واعادة صياغة ، نفس التجربة الاصلية بلغة العصر ، ورغم أن اللغة المستخدمة تتعرض للتغييرات — بما فيها اللغة البصرية للمصور — فان المعلومات التى يحتويها اى عمل فنى عظيم تظل محتفظة بقيمتها لايمسها سهم الزمن** •

أما النظرة المضادة — القائلة بأن أعمال الماضى تصلح للماضى ، ولا تصلح للحاضر — **فتتضمن الرأى القائل أن الفن يتقدم ويتطور بالفعل • ذلك أن المرء لا يستطيع ببساطة أن يرفض تولستوى أو رمبرانت أو التصوير الاتروسكى بناء على الحجج النسبية القائلة انهم يتكلمون بلغة مختلفةعن لغتنا**،فالرفض يتضمن الايمان بأننا قد

(*) **نص المحاضرة التى ألقاها أرثر كوستلر حديثا فى تشلتنهام** •

اكتشفنا أشـــكالا للتعبير أكثر ملاءمة وقيمة من أساليب المـــاضى • وفى الواقع فان بعضا من المتحدثين باسم طليعة عصرنا ، بل وطليعـــة العصور الماضية قد أكدوا بأعلى صوتهم أنهم كانوا حملة مشعل التقدم الموضوعى فى الفن • ويظهر ذلك عند الانطباعيين ، والتعبيريين ، والتجريديين، ولا يكاد يكون هنـــاك كاتب ، فى الماضى أو الحاضر ، لم يعتقد أو لا يعتقد فى قرارة نفسه أن أسلوبه وتكنيكه فى الكتـابة أقرب الى الواقع عقليا وعاطفيا ، من أسلوب وتكنيـــك الماضى • فلنعترف بذلك صراحة : فاحترامنا لهوميروس أو جوته تحليه لمسة تواضع لا تختلف عن موقفنا من الاطفال المعجزين : لكم كانوا أذكياء بالنســـبة لعصرهم ! يكادوا يكونون حديثين !

هذا الايمان بأن الاشكال الفنيـــة للحاضر أرقى ، أو على الاقل أرقى من بعض النواحى ، من تلك الماضية ، يمكن السير به الى حدود متطرفة مضحكة • فمثلا ، **نشرت صحيفة الجارديان منذ بعض الوقت مقالا عن « جامعات المستقبل » لخص موقف الطلبة الغاضبين كما** يلى :

وجدت الجامعات لتدرس المستقبل ••• من يحتاج الى أغنيـــات هوراس ، أو مارفل ، أو كيتس ؟ ان النموذج المطلق المؤثر للشعر الايقاعى أو شعر الجيتار قد جعل فضائلهم المدعاة نسبية جدا •

لكن اذا طرحنا جانبا هذه التطرفات ، فان مشاعر المرء لا يمكن الا أن تنقسم ـ أو بالاحرى ، تتبادل ـ بين المعسكرين: بين أمثال جليب، نرزين الذين يعتقدون أن الفن لايمسه سير التقدم المبتدل، وبين هؤلاء الذين يعتبرون الفن نوعا من الالعاب الاولمبية ، حيث يسجل الرياضيون أرقاما جديدة كل أربع سنوات بفضل أنواع التكنيك المعدلة (تذكر هيمنجواى عندما كان يفاخر بأنه لا يزال البطل) • وكما هو مالوف فى مثل هذه الخلافات، يشك المرء أن كلا الفريقين مذنب اذ يرمى طفـل الخصم ما يرميه من ماء الاستحمام •

دعونى أنتقل لحظة من الادب الى الفنـــون البصرية • وهذه لعبة قديمة استخدمها كوينتليان فى القرن الاول : فلـــكى يشرح تطور الخطابة اللاتينية من صرامتها الاولى الى شكلها « الحديث » المزدهر ، قارنها كوينتليان بتقدم النحت الاغريقى من جموده القديم الى نعومة ورشاقة القرن الرابع ق•م• وسأستخدم حيلة مماثلة وأورد نصا لمؤرخ الفن الاثير لدى ، أ•هـ• جومبريش Gombrich ، يساند فيه الرأى القائل بأنه يمكن أن يوجد تقدم تراكمى فى الفن ، كما فى العلم :

فى الازمنة القديمة كان من المحتم أن تتركز مناقشة التصوير والنحت على تقليد (الطبيعة) ـ أى على المحاكاة Mimesis • بل انه يمكن القول أن تقدم الفن نحو ذلك الهدف كان يمثل بالنسبة للقدماء ما يمثله تقدم الوسائل التكنيكية بالنسبة للمحدثين : أى انه المثل الاعلى للتقدم • وهكذا قص بلينى تاريخ النحت والتصوير على انه تاريخ الابتكارات ، ناسيا منجزات محددة فى نقـــل الطبيعة الى الفنانين الافراد : فالمصور بوليجنوتس كان أول من يقدم الناس بأفواه مفتوحة وأسنان ، والنحات فيثاغورس كان أول من ينقـل العروق والاعصاب ، والمصور نيكياس كان مهتما بالضـوء والظل • فتاريخ هذه السنوات (٥٥٠ ـ ٣٥٠) ق•م• كما ينعكس فى كتابات بلينى أو كوينتليان، قد نقل الينا بوصفه ملحمـــة من الانتصارات ، وقصة ابتكارات •• أما فى عصر النهضة فقد كان فاسارى هو الذى طبق هذا التكنيك على تاريخ الفنون الايطالية من القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر • **ولم يتـــوان فاسارى ابدا عن الاشادة بفنانى الماضى الذين اســـهموا بدور متميز ، كما يرى هو ، فى اتقان التشـخص • ويقول فاسارى : « ان الفن قد صعد من بدايات متواضعة الى قمة الكمال » لأن العباقرة بالطبعة امثال جـــوتو اضاءوا الطرق ، وبذلك اتاحوا لآخرين أن يبنوا فوق منجزاتهم •**

وهكذا يبدو أنه النفى التاريخى لفرض نرزين القائل ان الفن خارج الزمن • وقد قال **نيوتن** : « **اذا كنت ارى أبعد من الآخرين ، فذلك لأننى اقف على اكتاف عمالقة** » • وكان يمكن أن يقول **ليوناردو** نفس الشىء ـ وقد قاله بالفعل • فقـــد كتب « **انه تلميـــذ خائب ، ذلك الذى لا يفوق أســـتاذه** » • وقد عبر **ديرر** وآخرون عن آراء مماثلة • لكننا اذا أخذناهم حرفيا ، فسوف ننتهى ثانية الى رأى ممتنع • فمن الواضح أن ما كانوا يقصدونه هو أنه خلال فترة التطور الساحق الذى بدأ منه جيوتو حوالى سنة ١٣٠٠ ، كان كل جيل جديد من المصورين يكتشف حيـــلا وأساليب تكنيكية جديدة ـ مثل ضغط مقدمة الصـورة ، والمنظور ، ومعالجة الضوء ، واللون والبنـــاء ، والتقاط الحركة وتعبير الوجه ـ وهى ابتـكارات

يمكن للتلميذ أن يأخذها من الاستاذ ويستخدمها كنقطة بداية لانطلاقات جديدة ·

لكن هناك تحفظين يطرآن توا على الذهن · أولهما أن هذا النمو التراكمي يشـــير الى ازياد المهارات التكنيكية ، ويمكن أن يدعى « تقــدما » فقط اذا كان الكمال التكنيكي هو مقياسك للحكم على عمل فني · أما اذا كانت مقاييسك مختلفة ، فربما فضلت الاشـــكال الاغريقية القديمة على تماثيل العصر الذهبي ، أو أعمـــال البدائيين الايطاليين على أعمال ذروة النهضة · والاعتراض الثاني على تفاؤل ليوناردو هو أنه يصـلح فقط لفترات معينة دون أخرى · ففي كل تاريخ الفن الغربي ، هناك فترتان نجد فيهما تقدما تراكميا سريعا ومتصلا في تشخيص الطبيعة ، يـــكون واضحا كالتقدم في الهندســـة : الاولى تمتـد بالتقريب من منتصف القرن السادس الى منتصف القرن الرابع ق·م· والثانية تمتـــد من بداية القرن الرابع عشر حتى منتصف القرن السادس عشر · وقد دامت كلاهما من ستة الى ثمانيـــة أجيال ، في خلالها كان كل عملاق يقف بالفعـل على أكتاف أسلافه ، ويســـتطيع أن يلقى نظرة أبعد · وبالطبع يكون من المسخف أن نقول أن هاتين كانتا الفترتين **الوحيدتين** للتقدم التراكمي ، ونتجاهل ،مثلا، الاكتشافات البصرية للانطباعيين · لكن لا يقل عن ذلك صدقا أنه بين فترتي التطور السريع هاتين توجد امتـدادات أطول بكثير من الركود والانحدار وعلاوة على ذلك فهناك العمالقة المتفردون Einzelgänger الذين يبدو أنهم يظهرون من العدم ولا يمكن أن يكون لهم مكان في أي هرم محدد من لاعبي الاكروبات الذين يتـوازنون على أكتاف بعضهم في سيرك التاريخ ·

ماذا نستنتج من هذا ؟ اظن أننـــا يجب أن نستنتج أن نرزين مخطىء بالتأكيد ـ فهناك تقدم في الفن بمعنى محدود ، في اتجاهات محـــدودة خلال فترات محدودة · لـــكن هذه الومضات القصيرة البراقة تخفت ان عاجلا أو آجلا ، ويصبح كل ما حولها غسقا واضطرابا ·

الا أن هناك بعض العزاء في التفكير بأن الخريطة التاريخية لتطور العلم لا تقـــدم صـورة أكثر تماسكا · وعنـــدما يشير نرزين الى التضاد بين تطور التصوير وتطور التكنـــولوجيا منذ أيام رمبرانت ، فانه يغش ، لأن الذي حدث هو أن النمو التراكمي للعلم بدأ على وجه الدقة في قرن **رمبرانت** ، الذي هو أيضا قرن **جاليليو** ، **وكبلر** ، **ونيوتن** ـ لكن ليس قبل ذلك : ففي خلال هـــذه الثلاثمائة سنة الاخـــيرة فقط أو في حدودها ، أصبح تقدم العلم مستمرا وتراكميا ، لكن هؤلاء الذين يجهلون تاريخ العلم ـ وبينهم أغلبيـــة العلماء ـ يميلون الى الوقوع في الاعتقاد الخاطىء بأن اكتساب المعرفة كان دائما صـــعودا خالصا ومنتظمـــا عبر مسار مســـتقيم في اتجاه القمة النهائية ·

ولكن الحقيقة أنه لا الفن ولا العلم تطور بطريقة مستمرة · وقد لاحظ **هوايتهيد** مرة أن أوربا في سنة ١٥٠٠ كانت تعرف أقل من **أرخميدس** الذي مات في سنة ٢١٢ ق·م· وبمنظار الماضي لم تكن هناك سوى خطوة واحـــدة تفصل **أرخميدس عن جاليليو ، أو أريسطارخوس مواطن ساموس عن كوبر نيكوس** · لكن هذه الخطوة استغرقت حوالى ألفي عام لكي تتم · وخلال هذه المدة الطويلة كان العلم في سبات · فبعد القرون الثلاثة المجيـــدة القصيرة للعلم الاغريقي ، التي تطابق بالتقريب فترة تراكم الفن الاغريقي ، تأتي فترة ســـبات أطول منها حوالى ست مرات ، ثم فترة صـــحوة عنيفة ، لم تدم سوى ما يقارب عشرة أجيـــال · وحتى في الفتـــرة البراقة ، التي يفترض أنه سادتها الموضوعية المنطقية والتفـــكير المجرد عن الهوى ، فان أصوات الخلافات العلمية تدوى في التـــاريخ بعنف أشد حتى من المشاحنـــات بين الادباء · وفي هذا عزاء لنا حقا ·

التقدم ، اذن ، في العلم كما في الفن ، ليس مستمرا ولا مطلقا ، لكنه تقدم بمعنى محدود خلال فترات محدودة وفي اتجاهات محدودة ، وليس في منحنى مستمر ، لكن في خط منكسر ، مهتز ، متعرج · لكنني اعتقد أن من الممكن تبين ايقاع أو تكوين متكرر في تطـــور كل من العلم والفن · فكر ، مثلا ، في تتابع الاتجاهات الادبية الرئيسية في غرب أوربا في مـــدى القرنين الماضيـــين : **الكلاسيكية ، الرومانتيكية وال «عاصفة والاندفاع** Sturn und Drang **الرواية الطبيعية ، السريالية والدادية ، الرواية الواعية اجتماعيـــا ، رواية شريحة الحياة ، الوجـــودية ، الرواية الجديدة ·** وبالطبع ليس ممكنا أن نعزل ، بمعنى محدد ، أي حركة أدبية أو مدرسة فكرية ، فهناك دائمـا تفاعل وتداخل ، ورغم هذا **فان كلا من هـــذه الحركات لها شكلها الخاص ودورة حياتها ·**

وكقاعدة ، تبدأ دورة الحيـــاة برفض وثورة متحمسة ضد المدرسة التي كانت سائدة ، وانطلاق

الى آفاق جديدة . وتتحرك المرحلة الثانية من الدورة فى جو من التفاؤل والانتعاش مقتفية أثر خطوات العمالقة الظافرين . وهنا يتحرك الاتباع الى المجالات التى فتحت حديثا ليكتشفوا ويستغلوا امكانياتها الوفيرة . **وهذه هى مرحلة سيادة التقدم التراكمى السابق شرحه ، وفترة تدعيم الرؤى الجديدة ، وتهذيب الاساليب الجديدة ، والوسائل التكنيكية والوصول بها الى الكمال . وتاتى المرحلة الثالثة بالتشبع ، الذى يتبعه الاحباط والتدهور . أما المرحلة الرابعة ، فهى فترة تجريب يائس وفوضى ، تعد للثورة التالية ، وتحفز التحرك فى اتجاه جديد . وهكذا تبدأ الدورة من جديد .**

دعونى أتكلم ، باختصار ، عن المرحلة الاولى . هدمت الثورة الفرنسية الباستيل واستخدمت أحجاره الضخمة لرصف ميدان الكونكورد . وبعبارة أخرى ، فان الثورات هادمة وبناءة . **فالقيود والتقاليد القديمة تطرح جانبا ، ويركز الضوء فجاة على مجالات الخبرة الانسانية التى كانت مهملة أو مكبوتة . ويحدث تغيير المجال التوكيد ، واعادة غربلة للمعطيات ، واعادة تنظيم للترتيب الرأسى للقيم والمعايير دلالة الاعمال . وهذا ما حدث عند كل نقطة من نقط التحول فى أساليب النثر القصصى – من الكلاسيكية الى الرومانتيكية ، الى الطبيعية ، الى آخره . وهذا ما حدث فى التغيرات الدرامية المتعاقبة فى ادراك الفنان للجسم البشرى ، من التصوير المصرى الى بيكاسو ، او فى نظرة الفنان الى العلاقة بين الجنسين ، أو فى موقف المصور من الطبيعة .** فخلال عصر النهضة ، وحتى فنانى فينسيا المتأخرين ، كانت المناظر الطبيعية تعتبر ، بدرجة أكبر أو أقل ، كخلفيات مجسمة للأشكال الانسانية فى المقدمة . ويبدو أن مؤرخى الفن يتفقون على أن « زوبعة » جورجيونى هى أول لوحة اوربية تشاهد فيها الطبيعة – لذاتها – فالعاصفة البرقية فى الخلفية تتنافس فى جذب اهتمامنا مع المنظر الريفى فى المقدمة .

أما الادب فقد كان أبطأ فى استيعات الطبيعة كما هى . وقد كتب **ليستول** فى كتابه « **تاريخ علم الجمال الحديث** » :

اذا وضعنا فى اعتبارنا حجم الادب الاغريقى وقيمته ، وتفوق أثينا الفنى ، فان الاحساس بالطبيعة .. لم يكن قد تطور الا قليلا بين قوم أصبحت انجازاتهم فى فنون الدراما والنحت لايعلى عليها ، فهذا الاحساس كان ينقص هوميروس بشدة .. ولا يمكن أن يقال أنه تخلل الدراما الاغريقية .. وفى الحقيقة ، كان على عالم الطبيعة أن ينتظر حتى الحركة الرومانتيكية فى القرن التاسع عشر حتى يكتشف اكتشافا دقيقا وشاملا : وكان بيرون ، وشيللى ، ووردزورث ، وجوته ، أول من ضموا بين جوانحهم المحيط ، والانهار ، وسلاسل الجبال .

وحتى الدكتور **جونسون** أهمل الجبال على أنها « **أشياء فظة** » .

وهذا لا يعنى أن الفنانين الذين رسموا مثل جورجيونى لم يكونوا يرون الطبيعة ، أو أن الشعراء قبل الحركة الرومانتيكية كانت تنقصهم الاستجابة العاطفية ، لكن رؤيتهم واستجابتهم كانتا مختلفتين عن رؤيتنا واستجابتنا ، وكانت تشكلها روح العصر ، تماما كما وضعت المدارس الفلسفية المتتالية تفسيرات مختلفة لنفس المعلومات . فبالنسبة لهوميروس كانت عاصفة فى البحر تعنى ثورة بوسيدون ، والفجر كانت تلونه أصابع أورورا الوردية ، وبدت الطبيعة لفرجيل اليفة وريفية ، وتطلب الامر عددا من التغييرات الثورية لمجال التوكيد واعادة غربلة المعلومات حتى تعلم الناس أن يروا تفاحة من خلال عين سيزان أو سهلا يغطيه الجليد خلال عين فيرلين . وليست الصفة « ثورية » نوعا من المبالغة ، رغم أننا لو نظرنا الى الوراء لبدت هذه الثورات أليفة تماما . ففيرلين ، على سبيل المثال ، لا يبدو أنه كان جسورا أكثر من اللازم حين شبه اللون غير المؤكد للجليد بالرمل اللامع الذى يغطى « سأم السهول المترامى » ، وحين شبه السماء بنحاس كئيب فيه « عاش القمر ومات » . واليوم أصبح على تلاميذ المدارس الفرنسيين أن يحفظوا هذه القصيدة عن ظهر قلب . لكنها حين نشرت ، هاجم كاتب وناقد مشهور **فيرلين** بالصوت المجلجل لبائعه السمك الأدبية :

كيف يمكن أن يعيش القمر ويموت فى سماء نحاسية ؟ كيف يمكن أن يلمع الجليد كالرمل ؟ وكيف يمكن أن ينسب الفرنسيون مثل هذه الأهمية لهذا الشويعر الذى هو أبعد مايكون عن المهارة فى الشكل

والذى هو حقير وسوقى لأقصى درجة فى الموضوع ؟ •

أما بائعة السمك فهى الكونت **ليوتولستوى،** وأما مصدر النص فهو مقاله الذى كان يوما عظيم الأهمية ، « **ما الفن ؟** » •

واذا حاولنا ان نحدد ماتشترك فيه هذه الثورات فى العصور المختلفة وفى أشكال الفن المختلفة ، فاننى أزعم أن السمة الواضحة التى يشتركون فيها جميعا هى التغيير الجذرى لمجال التوكيد الانتقائى Shift in Selective emphasis فالفنان مثل العالم ، يهتم بوضع رؤيته للواقع فى وسط معين ، سواء أكان هذا الوسط هوالالون، **أو الرخام ، أو الكلمة ، أو المعادلة الرياضية • لكن ناتج مجهوداته لا يمكن أن يكون نسخة دقيقة من الواقع ، حتى لو تمنى بسذاجة ان يصنع نسخة كهذه • انه فى المحل الأول يواجه خصائص وحدود الوسط الذى يتعامل معه • فليس للوحة الرسام** التركيب الدقيق لشبكية **العين ، والحجر تنقصه** مرونة **النسيج الحى ، والكلمات رموز ليست لها** رائحة ، **ولا تبتسم ولا تنزف** • وفى المحل الثانى ، فان ادراك الفنان ونظرته للعالم لها هى الأخرى خصائصها وحدودها التى تفرضها عليه التقاليد الضمنية لعصره • ويتبادل العنصران التأثير ، فهناك تفاعل مستمر بين اللغة والفكر ، بين الصلصال تحت أصابع الفنان والصورة التى يحاول تجسيدها • **والتوتر الدينامى بين العقل المتحيز والوسط العنيد يضطر الفنان الى اتخاذ قرارات عند كل خطوة يخطوها (رغم أن اتخاذ القرارات لا يلزم ان يكون واعيا) : يضطره الى ان يختار ويؤكد ملامح الواقع التى يعتبرها ذات دلالة وأن يتجاهل تلك التى يعتبرها فى غير محلها • فبعض مجالات التجربة يستعصى على التصوير ، وبعضها لا يمكن ان يصور الا بطريقة مبسطة أو ملتوية ، وبعضها يستلزم تصويره بالضرورة التضحية بغيره •**

وهكذا يتضمن مصطلح « التوكيد الانتقائى Selective emphasis » دائما **ثلاثة عناصر بعضها ببعض : الانتقاء ، والمبالغة ، والتبسيط• وهذه العناصر تعمل فى كل أشكال الفن : فى رواية الحوادث التاريخية أو القصصية ، وفى التمثيل البصرى للمناظر الخلوية او للشكل الانسانى ، فى الصورة الشخصية (البورترية) والكاريكاتيرية** لكن التوكيد الانتقائى يعمل أيضا فى معمل العالم : فكل خريطة جغرافية ، وكل رسم احصائى ، وكل نموذج نظرى للانسان أو الكون هو كاريكاتير رتب عمدا للواقع ، مبنى على أساس تكنيك اختيار وابراز الملامح ذات الدلالة ، مبسطا أو متجاهلا غيرها ، طبقا لمعايير الدلالة Criteria of revelance لذلك المذهب أو المدرسة الفكرية • **وفى علم النفس ،** مثلا ، نجد معايير دلالة مختلفة جذريا بين **دعاة الاستبطان فى القرن التاسع عشر ، والسلوكيين المعاصرين ، واتباع فرويد ، واتباع يونج ، وعلماء النفس الوجوديين ، يناظرها اختلافات فى التوكيد الانتقائى ، ينتج عنها صور مختلفة جذريا للانسان** ، نفس الاعتبارات تسرى على تاريخ الطب • وفى الفيزياء ، التى هى مثال العلم المضبوط ، هناك انتقالات جذرية من التشبيه بالانسان عند أرسطو الى ميكانيكية نيوتن ، ومن وجهة النظر الحتمية الى الاحتمالات، ومن القوى الى المجالات • وحتى النظرة السريعة الى تاريخ العلم تجعل المرء يعتقد أن معايير الدلالة له يمكن أن تخضع لتغيرات تثير الدهشة بنفس درجه تغير الأسلوب فى الفن ، والمقارنة بين المجالين تجعل تاريخ الفن يبدو أقل ارباكا لأنها تظهر لنا على الأقل الخطوط العامة الباهتة لنمط أكثر شمولا •

وهكذا يمكن **وصف الانتفاضات الثورية المتتالية** للمضمون **والشكل فى الانتاج الأدبى بأنها تغيرات فى معايير الدلالة وفى التوكيد الانتقائى • والمرحلة الثانية فى الدورة التاريخية هى استكشاف الموضوع الجديد ، واتقان الأساليب والحرفيات الجديدة ، التى لا يجب أن نتوقف عندها هنا • لأن المرحلة الثالثة فى الدورة هى التى لها أهمية خاصة (وهى الصداع الرئيسى) لكل من يمارس مهنتنا : واعنى بها مرحلة التشبع وما يتلوها من احباط للكاتب وجمهوره)•** وقد اقتبست من قبل صيحة تولستوى المزدرية ضد قمر فيرلين الذى يموت فى سماء نحاسية ، واليوم يصعب فهم ما أثار تولستوى الى هذا الحد • فتشبيهات الأمس الجريئة هى كليشيهات اليوم • ونداءات الأمس هى مالوفات اليوم ، فالبرجوازى لم يعد سريع الدهشة، épatable والجنس الفاضح ، مثل القمر المجرد من سحره وغموضه ، يتضح أنه مجرد فوهات براكين خامدة ونتوءات •

وهذه نتائج حتمية لخاصية أساسية للجهاز

العصبى . فرجال الاسعاف المحنكون لا تهتز فيهم شعرة واحدة لرؤية المصابين الممزقين ، وحتى نزلاء معسكر الاعتقال فى أوشعتين تكونت لديهم درجة من المناعة الانفعالية . وهنا توجد ظاهرة يسميها علماء النفس بالاعتياد . فانت لا تسمع دقات الساعة فى حجرتك ، لكنك تسمع أنهـا توقفت فجأة . ولا تحس بضـغط الكرسى على ظهرك ، لكنـك تحسه عندما تغير وضعك . فالخلايا العصبية لا تلتقط التشابه ، بل تلتقط التضاد فقط . ولا يقتصر الاعتياد على الانسان . فحديثا وجد دكتور هورن Dr. Horn من كامبريدج خلايا عصـبية مفردة فى منتصف مخ الارنب تستجيب بشدة لنغمة تنبعث بتردد قدره ألف ذبذبة فى الثانية ، لكنهـا تكف عن الاستجابة بعد تعدد تكرار المثير . ورغم ذلك لا يمنع اعتياد نغمة الألف ذبذبة الاستجابة القوية لنفس الخلية عندما تنبعث نغمة لا تختلف عنها كثيرا ذبذبة تسعمائة . وقدم دكتور هورن أمثـلة لظاهرة مشـابهة فى حيوانات مختلفة اختلاف الجراد ، وسمك الحبار ، والقطط .

واذا كانت سمكة الحبـار ذاتها يمكن أن تضجر الى هذا الحد ، فكيف يستطيع الكاتب أن يأمل فى محاربة قانون العائد المتناقص ؟ . ان الدورات المتتـالية من ركود ، وأزمة ، وثورة وانطلاق جديد تبدو ناتجة أساسا عن الاعتياد المتزايد لكل من الفنان والجمهور على أى تكنيك ، أو أسلوب أو موضوع مستقر ، وما يستتبعه ذلك من فقدان القابلية العاطفية ، وفقدان قوة الاثارة . ولسوء الحظ ، فهذا الفقدان لا يمكن تجنبه ، لانه حالما يصبح الأسلوب الجديد ساكنا ومألوفا ، لا يعود القارىء محتاجا لاجهاد مخيلته ليستوعب المقصود ، ويحرم من جهد اعادة الخلق ، وينحط الى مجرد مستهلك . وليس من شك فى أن الجزء الاكبر من كل الادب ، (ربمـا منذ اليـونان فصاعدا ، لكن بالتأكيد منذ اختراع آلة الطباعة) يتكون من بضائع استهلاكية رديئة ، كتبت فى فترات الركود الطويلة خلال الدورة المتكررة . لكن هذه الكتلة الضخمة من اللباب قد تحللت واختفت عن الانظـار ، ولم يتبق الا عينـات استثنائية الجودة تكون مادة تاريخ الأدب .

* * *

ان أى شكل فنى ، مهما كان مايبدو عليه من ثورية فى البداية ، يصبح بعد فترة متعبـا راكدا ويفقد تأثيره على الجمهـور . والركود يكمن بالطبع لا فى الشـكل ذاته ، الذى ربما يصمد للزمن ، بل فى شهية المستهلك المفقودة .



ففى ١٩٣٣ ، عند قمة المجاعة السوفيتية الكبيرة ، لم يكن لدى المتجر التعاونى للخبراء الأجانب فى خاركوف مايبيعه سوى الكافيار . وهكذا عشت هناك لشهور عـديدة على رطل من الكافيـار فى اليوم ، ويمكنك تصور النتيجة . والواقع أن من الممكن كتابة تاريخ الأدب على أساس صراع الفنان ضد تأثيرات التشبع القاتلة . ولن يكون الذنب ذنبه اذا كان يحارب معركة خاسرة . فهـو قد ينتج كعكة بالجبن ، أو كافيارا ، ولكنه مع ذلك عاجز كل العجز ازاء عملية الاعتياد الأساسية التى تعمل فى مخ الأرنب كما تعمل فى الجهاز العصبى للقارىء . وتأثيرها على الفنـان هو الاحساس المتزايد بالاحباط ، والادراك المتزايد ـ الذى يمكن أن يكون واعيا أو لا يكون ـ بأن الحرفيـات التقليدية لعصره أصبحت غير دقيقة بوصفها وسطا يقـوم بالتوصيل والتعبير عن النفس .

يبـدو أنه قد جربت ، مـرارا وتكرارا ، طريقتان متضادتان لتحسين الاتصال بالجمهور : الصرا خ والهمس . الأولى تحاول أن تنقل رسالتها الى الجمهور بالالتجاء المكشوف الى العواطف ، من خلال الاعمال التى تستدر الدموع ، والميلودراميات أو الاشتقاقات الأرقى لها ، انها تحاول أن تزود الشهية المجهدة بعرض حريف بدرجة أكبر ، وأن تغطى عجـزها بالحـركات وضروب التصنع

الزاهية . وفى الفنون البصرية يجد المرء بعض هذه الأعراض أو كلها وقد ظهرت فجأة فى الفترات المتعاقبة لتدهور النحت المصرى ، والاغريقى ، والرومانى ، وفى الأساليب المتكلفة لعصر الباروك المتأخر ، وفى المناظر المرعبة للعصر الفيكتورى ، وهكذا . **ان الاتجاه العام فى فترات الانحطاط ينحو الى التوكيد المبالغ فيه والتصريح المبالغ فيه ، ومن ثم لا ينبغى ان نشغل انفسنا أكثر من ذلك .**

اما الطريقة المضادة لمواجهة العائد المتناقص من تطور الفن فلها اهمية أكثر بكثير . فبدلا من الالتجاء الى المؤكد والصريح ، تميل الى الاقتصاد والتضمين . ومن المعتاد أن ينسب الى الحركة الرمزية الفرنسية ـ مالارميه ، وفيرلين ، ورامبو ـ فضل المبادرة بالانتقال من العبارات الصريحة الى الاشارات الضمنية ، وأن ينسب الى المدرسة التأثيرية الفرنسية انجاز مواز من التصوير . الا ان هذا التحول من البديهى الى الغامض يمكن ملاحظته فى الفترات والأشكال الفنية الأكثر تنوعا كترياق فعال للتخمة والتدهور . ورغم هذا فالأمر يستحق أن نورد مقطعا يحدد فيه مالارميه برنامج الحركة الرمزية .

يبدو لى انه لا يجب ان يكون هناك سوى الاشارات التلميحية . والصورة المتبخرة للاحلام التى تبعثها هذه التلميحات ، هى مايصنع الأغنية : اما البارناسيون (الحركة الكلاسيكية للكونت دى ليل ، وهريديا ، وغيرهم) الذين يقدمون عرضا كاملا للموضوع ، فيفقدون السحر بهذه الطريقة ، لأنهم يحرمون ذهن (القارىء) من المتعة اللذيذة ، متعة تخيل انه يخلق . فتسمية الشىء تعنى ترك ثلاثة ارباع متعة القصيدة ـ التى تستمد من تفسيرها بالتدريج ، بالتخمين الممتع : التلميح بالشىء يخلق الحلم .

الا أن هذا التكنيك قديم قدم الفن ذاته . وهو يبدأ مع الميثولوجيا . فالباجافاد جيتا استعارة يفسرها كل دارس هندوكى وصوفى كما يحلو له ، وسفر التكوين ملىء بالرموز ، والمسيح يتكلم بالأمثال ، والعرافة بالالغاز ، وأورفيوس بالربابة . وليس الغرض غموض المضمون ، بل على العكس ، جعله أكثر بريقا باجبار المتلقى أن يعمل كشاشة مضيئة ، أن يستخرج المضامين بجهده الخاص ، أن يعيد خلقها . ولفظة **ضمنى** implicit مشتقة من الكلمة اللاتينية plicare وتعنى ((**مطوى**)) ، كلفافة من الجلد . والرسالة المضمنة يجب أن يبسطها القارىء ، لابد أن يفسرها ، ويملأ الثغرات ، ويحل الألغاز . لكن بمرور الوقت ، يتعلم القارىء أن يرى ماوراء الحيل ، وتصبح الحجب شفافة ، ويحرم ، كما يرى مالارميه ، ((من المتعة اللذيذة ، متعة تخيل أنه يخلق)) . وهكذا سيسعى الكاتب أو الشاعر اللفافة مطوية بطريقة أكثر احكاما .

وقد سميت هذا مرة ((**قانون الطى** The law of infolding **ويبدو انه اكثر الردود فعالية ضد قانون العائد المتناقص . وهو يتكرر كنوع من اللحن المميز** leitmotif **خلال تاريخ الأدب** . فالملاحم الهوميرية كان ينشدها فى الأصل المنشدون الجوالون الذين كانوا يشخصون أبطالهم بالصوت والتمثيل ، وهى أكثر طرق الرواية مباشرة وتوكيدا . وفيما بعد ، حوالى القرن السابع ق.م. ، جمعت الملاحم فى شكلها الحالى ، لتنشد فى الاحتفالات ، الا أنها الآن ، قد طويت فى لفافات يشخص فيها المنشد ، ويقلد المغنى ، وتنتظر الكلمة المكتوبة فك طلاسمها . فزوج من علامات التنصيص تكفى لترمز للصوت الانسانى ، وحبر المطبعة عموما أكثر فعالية فى اثارة العاطفة من الالقاء التشخيصى . وقد تركت ضروب التشخيص للمسرح والسينما ، لكنها هى الأخرى تخضع لقانون الطى . فميلودراما العصر الفيكتورى أصبحت شيئا يدعو الى السخرية من هذا النوع الأدبى ذاته ، والأفلام التى لم يمض عليها سوى عشرين عاما ، والتى كانت تحرك مشاعرنا فى وقتها تبدو الآن ـ مع التسليم دائما بالاستثناءات ـ قديمة بدرجة مدهشة ، وبديهية جدا ، ومبالغا فيها ، وصريحة أكثر مما يجب . أما الموسيقى التصويرية فهى ببساطة غير معقولة .

ان أفضل صديق للكاتب هو قصصه . وفى نصيحة لكاتب ناشىء كتب هيمنجواى : ((كلما كان الجزء اللعين الذى تحذفه أكبر ، كانت روايتك اللعينة أفضل)) .. فقانون الطى

يتطلب عدم اعطاء القارىء أبدا شيئا فى مقابل لاشىء ، فيجب أن نجعله يدفع بالعملة العاطفية باثارة خياله ، والا حصلنا على رد الفعل المفزع « وماذا بعد ؟ » « أحست كارولين أن قلبها يتعلق ببيتر » • وماذا فى ذلك ؟ • فليتعلق به كما يشاء • والكلمة الألمانية لنظم الشعر هى dichten ـ يضغط • لكن الضغط يمكن أن يعمل أيضا فى مجال المعانى ، بتركيز عدة معان، أو عدة مستويات للمعنى ، فى جملة واحدة • ولقد كان فرويد يظن ان هذا هو جوهر الشعر ، و « السبعة أنماط من الايهام ambiguity لامبسون هى تنويعات على نفس اللحن • وغنى عن القول ، ان اساليب الطى يمكن استخدامها بطريقة خادعة لتخلق غموضا متعمدا • وقد قيل أن فينوس ميلو كانت ستفقد الكثير من جاذبيتها لو احتفظت بذراعيها ، لكن ليس من المحتمل أن صانعها كسرها عمدا • لكن من يستطيع ان يرسم مثل فيرمير ، أن ينسى أنه قد رأى على اللاشعور ؟ ان جزءا كبيرا من **الرواية الجديدة** nouveau roman ومن « **السنة الماضية فى مارنيباد** » يذكرنا بطريقة فى لعب البوكر تخفى فيها أوراقك ليس فقط عن خصمك ولكن عن نفسك أيضا • وهذه فى بعض الأحيان استراتيجية مربحة ـ لكن ماذا تعنى « مربحة » فى هذا السياق ؟ •

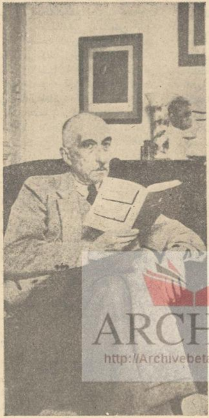
وهناك مجالات أخرى كثيرة يمكن للمرء أن يراقب فيها عمل قانون الطى • **فالفكاهة قد اجتازت طريقا طويلا من كاريكاتيرات مجلة بنش Punch الى ألغاز صحيفة النيويوركر New Yorker المعقدة • والاستعارات تنكمش الى كليشيهات مجففة ، وتستبدل بموارد جديدة من نوع اقل بديهية ووضوحا • والأوزان والبحور تطورت من دفقات بسيطة ، متكررة ، الى تركيبات معقدة ، تتضمن ايقاع الطبلة الأول ، الا أنه لم يعد واضحا • والقافيه كأوضح شكل للتنغيم ، تخضع للطى أو التعقيد •**

أما الفنون البصرية المعاصرة ، فان هذه العملية أوضح من أن تحتاج الى تأكيد • ففى أيامنا ، لا يمكن ، الا لمزيف ، أن يرسم بأسلوب فيرمير (رغم كمال تكنيكه) لأن على الفنان ، كى يرسم مثل فيرمير ، أن ينسى أنه قد رأى على الاطلاق لوحة لمانيه أو سيزان• لهذا فهو اما مزيف أو « ريب فان فينكل » ظل فى سبات منذ القرن السابع عشر • لكن من الخطأ الاعتقاد بأن الاتجاه نحو الضمنى يوجد فقط فى التصوير الحديث •

فقد ابتكر ليوناردو تكنيك السفوماتو Sfumato أو الشكل المحجب ، مثل الحدود المائعة عند أركان عينى الموناليزا ، اللتين لم تفقدا سحرهما أبدا ، وابتكر تيسيان فى شيخوخته تكنيك مايسميه فاسارى « بالنقط وضربات الفرشاة الملطخة بغير اتقان » التى لا يمكن تبينها بالنظر اليها عن قرب ، والتى تدع اللوحة تنكشف فقط عندما نخطو الى الوراء ، ومر رمبرانت بنفس الدور ، من ضربات الفرشاة المدققة المضبوطة الى ضربات الفرشاة الفضفاضة الموحية فى رسمه للنمنمات • ويمكن مضاعفة الأمثلة • فمثلا يمكن القول أنه فى قمة فترة التصوير الصينى كانت اللوحة تتكون مما يطرح جانبا • ولا أستطيع مقاومة نقل جملة واحدة فقط من مرجع صينى من القرن السابع عشر (أدين به لجومبريش) : « الأشكال ، حتى لو رسمت بلا عيون ، لابد أن تبدو كأنها تنظر وبلا آذان ، لابد أن تبدو كأنها تسمع ••• وهذا هو التعبير بصدق عن اللامنظور ••• » •

ولنشر اشارة أخيرة الى العلم ، **فنجد أن قانون الطى يعمل حتى فى هذا المجال • فقد كان أرسطو يعتقد أن كل الاكتشافات والاختراعات الممكنة قد انجزت بالفعل فى عصره ، واعتقد بيكون وديكارت ان حل كل اسرار الكون لن يستغرق سوى جيل واحد آخر ، وحتى علماء القرن التاسع عشر اعتنقوا هذه المعتقدات المتفائلة • ولم نبدأ الا حديثا فى ادراك أن تكشف أسرار الطبيعة تصاحبه عملية طى موازية ، لأنه كلما اكتسب الفيزيائى معرفة أكثر دقة ، كان عليه أن يستخدم رموزا حسابية أكثر غموضا ووهما ، ولم يعد يستطيع صنع نموذج معقول للواقع ، ولا يستطيع سوى الاشارة اليه بمعادلات مجردة •**

ومجمل القول اننى حاولت الاشارة الى نسق متكرر فى تاريخ العلم والفن اللذين يبدو ، عموما ، أنهما يتحركان معا فى دورات من الثورة الى التماسك الى التشبع الى الأزمة ثم الانطلاقة الجديدة • فالثورات تتميز بتغيرات فى التوكيد الانتقائى ، أما فترة التماسك فهى فترة تقدم تراكمى ، والفترة الثالثة هى نضال مستمر ضد قانون العائد المتناقص ، واحد الردود الفعالة يحدده قانون الطى • ولابد أن أسألكم الصفح لكل هذا التقنين والتأمل ، لكن اذا كان للخالق هدف من تزويدنا بعنق ، فهو قطعا أنه كان يريد منا مدها الى الأمام •



فرنسوا مورياك

سمير عوض

بعد الحرب العالمية الأولى ، انحسرت فى فرنسا موجة الرواية الواقعية والتاريخية ، واتجه الكتاب للبحث عن مجالات جديدة فى اللاشعور والمغامرة . فريق انطلق ينقب عن القوى الغامضة فى مجاهل النفس البشرية متأثرا فى ذلك بنظريات فرويد وتفسيرات التحليل النفسى للصدمات التى خلفتها كوارث الحرب ، وفريق آخر آثر التحليق فى عالم الحلم والفانتازيا والسيريالية .

فرانسوا مورياك الذى ظهر معظم انتاجه بين الحربين ، ينتمى الى الفريق الأول قلبا ، لكنى ينتمى الى القرن التاسع عشر قالبا . وهو من حيث العقيدة ينتسب الى جيل الكتاب المسيحيين : دانييل روب وبرنانوس وجرين . وقد استطاع مورياك أن يبتكر بأساليب تقليدية عالما روائيا شخصيا ونمطا من الرواية لم يلجأ فيه الى تصوير الطبائع والأخلاق ، بل عكف فيه على تصوير شخصيات عصرية ، وجعل دراما الطبيعة البشرية تمثل فى رواياته جميعا لقد اختار مورياك المشكلات التى تشغل فكره كمسيحى عميق الايمان: مشكلات الشر السائد فى العالم ، الخطيئة ، وهم اللذات، حب الذات ، سقوط البشرية ، الخلاص، قدر الانسان .

ولد فرنسوا مورياك فى ١١ اكتوبر ١٨٨٥ فى بوردو بفرنسا ، ونشأ فى أسرة بورجوازية تمتلك مزرعة وتشتغل بالتجارة . وكان مورياك الابن الأصغر لخمسة أخوة . مات أبوه بعد عام ونصف من ميلاده ، وكان ملحدا بعكس زوجته التى كانت كاثوليكية مؤمنة ، تعهدت ابنها فرنسوا بتربية دينية صارمة ، وألحقته بمعاهد بوردو ، وأظهر نبوغا أثناء دراسته بليسيه بوردو . كانت ترتسم على وجهه أمارات قلق عميق وتشع عيناه بحزن دفين .. شغف فى صباه بقراءة باسكال وراسين ورامبو . وبعد حصوله على البكالوريا درس فى كلية الآداب وحصل على الليسانس عام ١٩٠٦ ، وسافر الى باريس ليستعد للالتحاق بمدرسة « دى شارت » لكنه لم يواصل دراسته . خاض مورياك أولى تجاربه الأدبية مع الشعر ، ونشرت له صحيفتا « الزمن الحاضر » و « الشبيبة » بواكير انتاجه التى جمعها فى ديوان نشر له عام ١٩٠٩ بعنوان « الأيدى المعقودة » . انتخب رئيسا لاتحاد الطلبة الكاثوليك وتزوج فى يونيه ١٩١٣ جان لافون ابنة وكيل أعمال وأنجب منها كلود وجان وكلير ولوسى . وعندما اندلعت الحرب العالمية الاولى استدعى للخدمة العسكرية وأرسل الى سالونيك لتمريض الجرحى . وعقب انتهاء الحرب توزعت اقامته بين باريس ومزرعته التى تقع على مقربة من بوردو .

فى عام ١٩٢٥ منحته الاكاديمية الفرنسية للآداب الجائزة الكبرى للقصة عن روايته «صحراء الحب» . وفى عام ١٩٣٢ نال جائزة نوبل للآداب عن أعماله مجتمعة ، وفى العام التالى عين عضوا بالاكاديمية الفرنسية وأصيب فى العام نفسه بسرطان الحلق وأجريت له عملية جراحية بالأحبال الصوتية .

ومورياك كاتب غزير الانتاج عرف شاعرا وروائيا ومؤلفا دراميا وكاتبا للسير وناقدا ومعلقا سياسيا . ظل يؤلف بانتظام حتى عام ١٩٥٤ ثم توقف تقريبا عن انتاج الأعمال الروائية التى تشكل الجانب الأكبر من مبتكراته ، لكنه واظب بعد ذلك التاريخ على كتابة يومياته ومقالاته الفنية فى الصحف الأدبية . ويبلغ ما أصدره من مؤلفات أكثر من ٩٥ كتابا .

لفت مورياك الأنظار اليه لأول مرة عندما نشر له ديوان «الأيدى المعقودة» (١٩٠٩) . وقال عنه موريس باريس وقتئذ : «مورياك شاعر عظيم أعجب به ، شاعر متزن رقيق وعميق ، لا يحاول أن يرفع صوته .. اننى جد سعيد اذ أصبح لنا شاعر» . وقال عنه آلان فورتييه: «ان شعر مسيو مورياك محموم ، لكنه يتسم بالحكمة .. يبدو أن الطاعة عنده فضيلة طبيعية ، انه أيضا شعر طفل حاد الذكاء لم يتلوث قط أثناء لهوه .. ويتردد الى الكنيسة أيام الآحاد .»

تتميز طفولة مورياك بأنها حزينة وقلقة ومتشائمة . وسوف تظل هذه السمات المزاجية ملازمة له طوال حياته كما تصطبغ بها معظم أعماله الروائية والدرامية . كان فى صباه يتعذب لترفع الطلبة الأثرياء عنه . وكان يراوده احساس مرير بأن عليه أن يواجه مستقبلا طاحنا وهو ما يفسر طابع التشاؤم والقلق فى مؤلفاته ، رغم أن مورياك نفى عن نفسه نزعة التشاؤم هذه . عرف أيضا بانطوائه الشديد ، اذ انغلق على ذاته كما لو كان حبيس قلعة موصده المنافذ ، كان يتحاشى اللعب مع زملائه وكان سريع البكاء . وفى المعاهد التى درس بها كان كل شىء على حد قوله يدمى قلبه . عنف المدرسين ، الدروس الغامضة ، الامتحانات، تعذر الحياة عمن كان يحب ـ يقصد أمه .. وتصفه احدى زميلاته بكلية الآداب بأنه كان يشاهد دائما فى فترة امتحانات الليسانس عصبيا قلقا سئما .



« الطفل المكبل » (١٩١٣) أول رواية طويلة كتبها مورياك ، وبطلها منقسم على ذاته ، ممزق بين العالم والله . ثم كتب « الرداء الأبيض المطرز بالأرجوان » (١٩١٤) التى جاءت أكثر احكاما من الأولى ، لكنها مرت دون أن يلتفت اليها أحد . والرواية منسوجة من ذكريات الطفولة والمراهقة وتتلون بسخرية مسلية . واذا كان تكنيك المؤلف لم يكن قد نضج بعد هنا ، الا أنه كشف عن رؤياه الفنية فى بعض العلاقات الانسانية المؤلمة التى صورها فيما بعد ببراعة . ويعالج مورياك فى « اللحم والدم » (١٩٢٠) الموضوعات التى تتكرر دوما فى كتاباته القادمة : توترات المراهقة .. العقيدة الدينية ، الصراع العاطفى ، المادية الجامدة التى تطبع الحياة الاقتصادية وسلوك الطبقة المتوسطة فى بورديه واقليم لاند . وفى رواية « البصائر » (١٩٢٠) يشن هجوما على الطبقة الارستقراطية . ويصور فى «قبلة للأبرص» (١٩٢٢) عذاب شخصيات تتصارعها طفرات الايمان مع رغبات الحياة ، كما يصف النفور المؤسف بين زوجين . وبهذه الرواية بدأت شهرته تذيع كروائى بارع .. وبعد أن كتب « جنتركس » (١٩٢٣) ، وهى قصة كئيبة تصور حبا آمويا محفوفا بالوساوس وجه عناية خاصة ، مثل باسكال من قبل ، لتصوير شقاء البشرية بدون الله . وتتضمن «صحراء الحب » (١٩٢٥) رؤية مورياك للعزلة الأخلاقية المفزعة للبشر ماداموا يعيشون فى قلق التماسا للايمان . وفى أعمال تالية يحاول اثبات أن الانسان يستطيع الاعتماد دائما على اللطف الالهى ، لأن رحمة الله تمس أيضا الذين ينغمسون فى الخطيئة . وتتناول «تيريز ديكيرو» (١٩٢٦) حالة محاب شاب يقيم فى أحد الاقاليم ، استهدف لاحساس جاثم بمصير محتوم حين يراوده اغراء الجريمة . والبطلة امرأة مدفوعة لمحاولة قتل زوجها بباعث لاشعورى .. وتعود هذه المرأة « تيريز » الى الظهور فى رواية « نهاية الليل » (١٩٣٥) التى كتب عنها سارتر مقالا بعنوان « سورياك والحرية » لمناقشة مفهوم الحرية عند مورياك على نحو ما جاء فى تلك الرواية .

وتعتبر « عقدة الأفاعى » أعظم روايات مورياك .. وهى تصور عجوزا أنانيا كارها للبشر ، ردت السكينة الى نفسه القلقة المرهقة ، بقبس من النور الالهى . وأهم رواياته التالية « سر فرونتكان » (١٩٣٣) وهى أقل أعماله كآبة . وفى « الملائكة السود» (١٩٣٦) يكتشف البطل الاحسان والمحبة الالهية بعد حياة خليعة . ثم « طرق البحر » (١٩٣٩) . ويقدم مورياك فى «الفريسية» (١٩٤١) تحليلا للنفاق الدينى والرغبة فى التسلط . وبعد الحرب العالمية الثانية نشرت له قصص قصيرة هى : ساجوين ، جاليجاى ، الحمل .

بين عامى ١٩٢٣ – ١٩٣٠ مر «مورياك» بأزمة روحية عندما اعترضته المشكلة الآتية: انه كانسان متدين ينبغى أن يجدد ايمانه وأن يدعمه ، وهو كفنان لابد أن يوفق بين واجبه كروائى والتزاماته ككاثوليكى مؤمن . وبعبارة أخرى كيف يصور الشر فى الطبيعة الانسانية دون أن يثير اغراء القراء ؟ وقد سجل مورياك هذه الصراعات فى « الله ومامون » (١٩٢٩) و «آلام وسعادة المسيحى» (١٩٣٦) . ويأتى كتاب «حياة المسيح» (١٩٣٦) تعبيرا كاملا عن اهتمامه بالموضوعات الدينية . والى جانب هذه الأعمال الروائية ألف مورياك دراسات عن بعض الشخصيات التى أعجب بها ، وهى : « لقاء مع بسكال » ، « حياة جان راسين » ، ثلاثة عظماء أمام الله » ، « بليز بسكال وأخته جاكلين » ، « حياة سانت مرجريت دى كورتون » و « ديجول » . ان مورياك يبدو فى كل ما قدمه من دراسات ملاحظا عميق النظرة للجنس البشرى فى ضوء الأبدية .

بين عامى ٣٤ – ١٩٥٢ نشر مورياك يومياته التى كان يكتبها فى بعض الصحف وخاصة الفيجارو الأدبية والاكسبريس . وهى تتضمن آراءه ونظراته

في السياسة والأخلاق والمشاكل المعاصرة والأدب والفن والموسيقى • وسيظل التاريخ يذكر لمورياك مواقفه المشرفة في مجال السياسة • فقد خاض في الثلاثينات معارك ايديولوجية أدان الاتجاهات الشمولية بكافة صورها ممثلة في الاشتراكية القومية بالمانيا النازية ، كما فضح عدوان الفاشية في أثيوبيا واسبانيا • وأثناء الاحتلال النازى لفرنسا انضم الى الجبهة القومية للكتاب واشترك في تحرير النشرات السرية المعادية للسلطات المحتلة ، كما صدرت له عام ١٩٤٣ « الكراسة السوداء » التي عبر فيها عن ايمانه بالقيم الأصيلة للانسان •

والآن نتساءل : أين يقع عالم مورياك ؟

عالم مورياك هو اقليم لاند ومدينة بوردو بجنوب غرب فرنسا • وهو الديكور الذى يحتوى القارىء والمتفرج • هناك في تلك المنطقة مساحات شاسعة من غابات الصنوبر التي تفوح برائحة الراتنج ، وتحف بها حدائق الكروم التي يشتهر بها الاقليم• ومورياك شديد الايمان بالكاثوليكية الرومانية ، شديد الارتباط ببرجوازية الأقاليم • وعلى مدى حياته الطويلة لم يفكر قط في التخلى عن ايمانه أو طبقته الاجتماعية ونزعته الاقليمية ، فهو حاضر دائما في عالم لاند الصغير ، كل رواية من رواياته تجسد أزمة أو صراعا في احدى أسر لاند ، لهذا نجد أن معظم أعماله تدور أحداثها في تلك المنطقة وأن شخصياتها تنتمى الى البرجوازية الكاثوليكية •

هذا العالم المسيحى هو عالم الخطيئة الذى كان برنانوس يعجب برائحة أجوائه •• لكن الانسان تحت أبصار الله وكهنته هو أيضا هذه الرائحة القوية التي تفوح من كتيبة جند ، هو العرق والعفن ممتزجين ، وهو أيضا المرارة والأنفاس الكريهة والشقاء • ان ضعف الانسان ، أحزان الجسد ، نداء الجريمة والعنف ، كلها صفات ملتصقة بسلالة قابين ، لكن شخصية مورياك غالبا ما تسلك كما لو كانت على موعد في مكان ما ومع شخص ما ، وهذا الشخص هو الله •

يعتبر مورياك كاتب البرجوازية التي انغلقت عليه بقدر ما استفاد من نماذجها ومن مؤسساتها وأفرادها لكى يقدم نموذج ومؤسسات وأسرة انسان مورياكي ، لهذا جاء عالم مورياك مغلقا متقوقعا • ثمة خاصية أخرى بارزة في أعمال مورياك هي وحدة ديكوراته وثبات مشاهد بيئته : اقليم لاند ، أشجار الصنوبر وحدائق الكرم التي تحرق شمس الصيف أوراقها ، قاعة قصر أصبحت مقر ادارة الحدائق ، أوكار المشبوهين الذين يتحينون الفرص ، العواطف الطبيعية ، الصحراء التي تحف بالغابات ، أمواج البحر التي تلتطم برمال الشاطىء •

لقد عرف مورياك هذه البيئة معرفة واعية •• وخالط سكانها وخبر معيشتها ونفذ الى خبايا مجتمعه بحكم نشأته واقامته الطويلة به وتردده بانتظام على ضيعته وتعلقه الروحى بتلك البيئة طوال حياته • من هنا كانت التربة التي التصق بها عمره هي المنجم الذى استمد منه ثروة من الأفكار والأحداث ، وموضوعات الصراعات التي كانت تمزق عائلات اقليمي لاند وجيروند بعنف والتى صاغ منها رواياته • والواقع أن مورياك لم يكن يحفل بالصراعات في حد ذاتها مثلما حرص على تصوير صداها في الوعى ، لهذا كان يكثر من المونولوجات الداخلية ، حيث تعمق كل شخصية فرديتها الخاصة وتتساءل بقلق عن مصيرها : **ان حياة كل شخص تتطور وتتشابك مع الأخرى دون أن تتأثر بها** • ويظل استحالة الاتصال بين الشخصيات أحد المفاهيم الاساسية عند مورياك ، ونفس الحال بالنسبة للحب • لكن الحب الالهى وحده هو الذى يتفتح للانسان يحتويه ويصهره فيه ، غير أن الانسان لا يستطيع ادراك هذا الحب الا بالتجرد من لذات العالم ونزواته وبالعزوف عن الخطيئة • وليس أشق على الانسان من أن ينتزع نفسه من مغريات العالم !

واذا كان هذا هو عالم مورياك فان رؤياه ككاتب تقوده الى استكشاف جوهر الحياة في هذا العالم ، الحياة السوداء والجحيم الباطنى • ولاشك في ان هذا المضمون يجعل مورياك وريثا لمنطق وتراث باسكال ومونتين ، فمن الواضح أن هذا الكاتب الكلاسيكى شديد الاخلاص لباسكال وأخته جاكلين •• وهو أيضا تلميذ فينيلون وبوسويه ، انه في الحقيقة الرومانتيكيين الفرنسيين قلبا والهاما •• ووريث مونولوج شاتوبريان وروسو وتأملات ديكارت وبودلير ورامبو وبارس• ان عاطفة الطبيعة •• فكرة قدر الانسان ، قدر الخلائق ، قدر الخليقة الساقطة المفتداة ، نهاية الحياة هي نهاية الليل ، كل هذه تشكل رومانتيكية كاملة على نمط مسيحى تصطبغ بها أعمال مورياك وتغذيها ، وبدونها لا يمكن تصور رواق هذه الأعمال ومشاهدها وأجوائها وأبعادها الخلفية •

وليس من شك في أن حساسية الكاتب تستند



على قاعدة وثنية : لكن الطبيعة عند مورياك استحقت الخلاص بالصليب • وعلى امتداد أرض الشهوات ، تمثل أبراج الكنائس علامات على الطريق الذى تسلكه النفوس • ان تفتح حواس مورياك وعنف استجاباته الجسدية امام اغراء العالم وحرصه على الاغتراف من اللذات تعد من العوامل الرئيسية المحركة لقلقه وقلق شخصياته الروائية والمسرحية ؛ لأنه يوضع دائما فى مواجهة أليمة مع مبادىء الايمان المسيحى التى تدعو المؤمنين الى الترفع عن نزوات الجسد •

ولعل آندريه جيد أقرب الكتاب الفرنسيين المعاصرين الى مزاج مورياك • كلاهما ولع باللذات الحسية يقبل عليها بنهم • كلاهما حاول أن يصف وأن يستفيد من القوى اللاشعورية المزعجة • وكلاهما كان يأبى زخرفة الحقيقة للمؤمنين • لكن بينما تخلص جيد البروستانتى من ايمانه ، ظل مورياك الكاثوليكى وفيا أمينا لعقيدته الدينية فحاول جاهدا أن يوفق بينها وبين الدوافع الحسية الشهوية التى كان يزعجة سرها العميق • وهذه الحسية نلقاها فى كل موضع عند مورياك ، فى خياله ، فى أسلوبه ، فى اختيار موضوعاته التى تناولت كافت اللذات الجسدية تقريبا ، وفى توجيه دفة هذه الموضوعات حيث يحلل المؤلف رغبات ومتاعب شخصياته دون أن يجعلنا نختبرها •

من حق الفنان أن يزهو بروعة صوره وأن يفخر بنجاحها • لكن المسيحى لا يلبث أن ينزعج ، عندما يقوم بتصوير الفساد ، ألا يتعرض هو أيضا للفساد ؟ وهكذا قدر لمورياك ان يحمل صليبه طول حياته : أن يعيش ممزقا بين التزامات فنه وهواجس وعيه • ومن هذا الصراع المستعر يتولد القلق الشخصى الذى يشيع فى دراما كائناته كآبة وعتامة • واذا كان مورياك مثل «جيد» يرى فى اللاوعى زخيرة قوانا الحية ، فانه يختلف عنه من هذه الناحية : «**يجب ألا نقبل أنفسنا ببساطة بل أن نخلق أنفسنا ، وبقدر ما نرفض أن نفعل ذلك ، ستظل أقرب الى الوحوش ، ان حياتنا تساوى ما كبدتنا من جهود**»

ان عظمة مورياك كما يقال ، ترجع الى أن رواياته ومسرحياته تتجه كثيرا الى الانسان • الا انه أشد اهتماما بالانسان ذاته من مشاكله التى هى الجنس والحرية والثورة والموت على نحو ما فعل سارتر وكامو • واذا كان كامو يرى أن البشر يموتون وهم غير سعداء ، نجد مورياك يقول ان الانسان وحيد ، والبشر جميعا يقاسون الوحدة ، كل فرد ممزق منقسم على ذاته ، يقف ضد غرائزه ، ضد اسرته والآخرين ، ويدور الجميع حول عالم مغلق كالكواكب البائسة •

وقد عبر مورياك فى أعمال عدة له عن احساسه الاليم بالعزلة • فى رواية «صحراء الحب» تقول ماريا كروس « اننا نلمس الطريق الوحيد الممكن الا أنه لم يؤد بنا الى ما نبحث عنه • هناك بين ما كنت أريد أن أمتلك وبين ذاتى ، تمتد دائما بلدان عفنة ، هذا المستنقع وذاك الوحل ... انهم ما كانوا يفهمون ، كانوا يظنون اننى اناديهم لنندمج سويا » • وتعبر الشخصيات فى عبارات أخرى كثيرة عن نفس المشاعر التى لا يكاد يخلو منها عمل من أعمال مورياك :

ان بينى وبينها تمتد هذه الصحراء حيث كل شىء يتساقط ويموت (طعنات السكين ـ ١٩٢٦)•

«بين الآباء والأبناء يرتفع جدار شاهق من الخوف والخجل وسوء الفهم • ولكى تمنع قيام هذا الجدار كان لابد من ازهاق نفس ما » (رجل شاب ـ ١٩٣٦) ... وفى موضع آخر يقول «الانسان وحيد والآخرون ليسوا الا الآخرين ، انهم عشيرة غريبة عنه يتعذر الوصول اليها ، انها تشبه الجدار ، هناك اللامبالاة ، الانفصال درع ثلجى لجسم ينسحب من الآخر ، الذى سيعود يتحد به ثم لا يلبث أن يبتعد عنه من جديد » •

والحب عند موریاك يلقى نفس المصــــير . فى « صحراء الحب » يقدم المؤلف الوانا من الحب: حب رجل فى الخمسين ، حب ابن لأبيـــه ، حب الابن لامرأة يحبها الأب . ومع ذلك نجد الجميع غـــير متحابين . ففى كل مكان نصادف جدبا ، العائلات الآباء ، الأزواج ، العشاق ، الأبنــاء ، الجميــع يصطدمون بنفس الجدار ونفس المتـــاعب وهى استحالة الاتصال ، سوءالتفاهم بين كائنات يعذب كل منها الآخر فى الخواء ، دون ان يلتقى الواحد بالآخر أو يفلح أحدهما فى امتلاك الآخر .

يمكن ايجاز خصائص الرواية عند موریاك فيما يلى :

ان ابرز سماتها الفكرية انما تاتى كـملاحظة محمومة لاستحالة تحقيق التوازن والانسجام بين الجسد والروح ، بين الطبيعة واللطف الالهى، بين العالم والله . ان المؤلف يعاود غرس فــكرة جانبية تقول ان المسيحيين الحقيقيين هم وحــدهم الذين يهبـــون الله كل شىء وأن الله يريد من مخلوقاته خضوعا مطلقا ، وأن انسان الشارع لا يستطيع ممارسة العقيدة مهمـــا كانت ارادته طيبة .

تتميز أعمال موریاك أيضا ببساطة خطهــا الكلاسيكى وخليفاتهـــا الرومانتيكية . وهى فى تقدير بعض النقاد الفرنسيين عبـارة عن قصص قصيرة ممطوطة ذات ايقاع صاعد . والقطعة عنده – وهذا شأن مسرحياته كذلك – تتنــاول أزمـة تحركها شخصيات مركبة ، تتأجج فيهـا مشـاعر قلقة وتتصارع فى أعماقها دوافع مكبوتة وتؤرقها وخزات الضمير . ويحتل اللاوعى مكانه خاصـة فى عالم موریاك لأنه مستودع احتيـــاجات الحب، والرغبات الخفية . وهذه الروايات تدور أحداثها غالبا ، كما ذكرنا ، فىاقليم لاند وفى بوردو حيث البيئة ملائمة لتفتح العــواطف واطلاق العنـــان للشهوات . وهى فى نفس الوقت بيئة برجوازية كاثوليكية تمثل الماضى الذى ظل موریاك مشدودا اليه – دون الحاضر أو المستقبل – فى معظم أعماله الروائية .

وتعتبر «عقدة الأفاعى» (١٩٣٢) أفضل روايات موریاك ، اذ توفرت لها كافة الموضوعات المحببة عنده . وهى تشتمل على تصــوير دقيق ، فى اطار كلاسيكى لحيـــاة أسرة برجوازية كاثوليكية اقليمية ، أشبه بلوحة لمسيحى القرن العشرين . وهى تتناول بالتحليل (من وجهة نظر كاثوليكية) شخصية انسان جشع حقود ، عدو لذويه ولنفسه .. عجوز ساخط يجرى حساباته فى مغيب حياة تشبه بقعة قاحلة جرداء ، سماؤه مظلمة وقلبه مثل وكر الأفاعى . ان بطل هذه الرواية شهيد وحشية الطباع، يتوهم أن يمتلك الارض والكائنات ويود لو امتد به العمر ليعوض ما فاته أثناء حياته .. وقبل أن تغرب حيـــاته يعكف على استرجاع ماضيه ، لكن يقوه بعين الحاضر أيضا . لقد بلغ الثامنة والستين من عمره ، ونعلم أنه يفـكر على مدى الخمسين سنة الماضية فى الانتقام من زوجته وأسرته بان يترك خزانته خاوية عند وفاته . لهذا يحرر لذويه رسالة يبلغهم فيها أنه قرر حرمانهم من كل شىء .

لاشـــك فى أن لهذا القرار عواطف ومبررات حيوية استند اليها العجوز المزعج الذى شرع فى تســجيل اعـــترافه ، وهى : « **الفزع من أسرته ، حب المال ، كراهية الدين** » .

ويروى القسم الأكبر من القصة كيف استعدت هذه الشخصية الممقوتة التى تقمصهـا البطـل ، لانزال القصاص بالزوجة لأنها قامت أثناء الخطبة وفى بداية الزواج بتمثيل كوميديا الحب ، ولأنها أخفت عنه حبها لشخص آخر . لكنه أدرك شيئا فشيئا أنه حيث يكون كنزه لا يكون قلبه ، لهذا يريد أن يغادر ذويه . وهو يعبر لهم عن أسفـه وتقززه من الحيـــاة التى أمضـاها فى كنفهم .. الراوى – أى البطل – محام كبير وشـــاهد على سقوطه الداخلى ، انه يعلم أنه يعيش غريبـا عن أسرته ، ويعلم أنه ما من أحد يقدم له خدمة الا اذا كان يحمـل كيس نقـوده . ويدور أمامه شريط حياته : الطفولة وأحزان المراهقة ونجاحه الأول فى المحاماة ، لكم كان يتمتــع فى طفولتــه بحب جم ورعاية فائقة وعيش رغد ، الا أنه كان يعامل أمه بخشونة ، بل أنكر عليها ما أسبغته عليه من حب مفرط . ويدلى العجوز فى اعترافه « كنت شرسـاً .. كنت لا أجيب على أسئلتها الا بكلمات مقتضبة أو أثور فى وحشية لأتفه الأسباب أو دون عذر » ، ثم يعترف بأن المرارة تمـلأ فؤاده لأنه لم يـكن يتمتع بشباب غض وان صادف بعض الحـظ فى حياته : كنت من أؤلئك الناس الذين يقال أنهم بلا شباب .. اننى عبوس ما بى نضرة ، وكنت بمنظرى وحده أنفر الناس .. لم يـكن شـبابى سوى انتحار طويل .. »

ان « **عقـدة الأفاعى** » رواية مركبـة تدور فى أزمنـة عـديدة وعلى شرائح مختلفة من الحيـاة ،



وتنزلق الواحدة فوق الأخرى كالتى ستأتى بعد ثلاثين عاما عند ميشيل بوتور . الا أن التكنيك الذى اتبعه مورياك لا يعد جريئا أصلا ، اذ أن هذه الحيلة معروفة تماما منذ أكثر من قرن ، وهى حيلة بسيطة كان الهدف منها ألا يختلط القارىء بين المؤلف والراوى ، وألا يرى فى القصة اعترافا يحوى سيرة حياة البطل .

ويلاحظ أن تكنيك مورياك الروائى ينتمى دائما الى أسلوب أقرب الى التأليف الدرامى . فالكثير من قصصه ـ كما يقول مورياك نفسه ـ هى قصص كاتب درامى ، فهى تنهض فى معظمها على شخصية يتناولها المؤلف فى لحظة تشابك مصيرها ، أو بعبارة أخرى، تولد الشخصيات المورياكية وتنمو بوصفها شخصيات أزمة . والديمومة عند مورياك لا وجود لها لأنه يستبدلها بالشدة والتوتر . وهذا ما يفسر الى حد كبير تلك السرعة المحيرة والايجاز اللذين أثرى بهما رواياته .

وقد هاجم سارتر الطابع الدرامى لروايات مورياك فى مقاله « مورياك والحرية » المنشور بالجزء الأول من « مواقف » الذى جاء فيه :

« انما بسبب حبه للايجاز تتحدث مخلوقاته كما لو كانت على خشبة المسرح . وهو لا يهدف الا الى أن يجعلها تعبر بأسرع وبأوضح قدر ممكن عما ينبغى أن تقوله .. انه يلون تلك الخطب الواضحة أكثر مما ينبغى بضرب من السرعة من السرعة العنيفة ، انه مسرحى فى جوهره ، بل ان الكثير من عباراته تصلح للالقاء لا للقراءة ، انه ينتمى الى المدرسة الكلاسيكية التى تقوم على البلاغة والمسرح » .

ويهاجم سارتر مورياك فى نفس المقال لأنه جرد رواياته من الديمومة ، ويتهمه بأنه لايحب الزمن وأن زمن مخلوقاته حلم ، وهم بشرى أكثر مما ينبغى . وهو حين يتحرر من الزمن فانه يأخذ مكانه عن عمد على صعيد الأبدية ، وهذا فى رأى سارتر يكفى لحمل مورياك على الاقلاع عن كتابة الرواية : « ان الروائى الحقيقى يهوى كل ما يبدى مقاومة .. انه يريد دائما ـ أى مورياك ـ أن يقتصد فى الزمن حتى على حساب حوار شخصياته .. ويعتبر سارتر هذا الاقتصاد فى الزمن أكبر أخطاء الكتاب .. وان مورياك بقطعه المفاجىء لحوار شخصياته فى اللحظة التى بدأت تثير فيها اهتمامه ، انما يرمى به خارج زمنها وخارج تاريخها **ويقول سارتر :**

« ان الحوار لا يتوقف . اننى أعرف أنه مستمر فى مكان ما .. لاشك فى أن المؤلف سيسمى هذه التوقفات المفاجئة المتبوعة بانطلاقات مفاجئة «ايجازا» أما أنا فسوف اسميها عطبا . واذا كانت للايجاز ضرورة فهذا لا يعنى أن القصة يجب أن تفرغ فجأة من ديمومتها . »

وفى عالم المسرح خاض مورياك تجارب محدودة طغت عليها شهرته كمؤلف روائى . وقد اتجه مورياك للتأليف المسرحى فى سن متأخرة قليلا ، وأولى مسرحياته هى « ازمودى » التى عرضت بنجاح كبير فى الكوميدى فرانسيز عام ١٩٣٧ . وهى مسرحية ذات بناء كلاسيكى محكم بطلها على قدر من الدهاء ، والغموض الذى يذكر بتارتوف موليير . وقد روى مورياك دخوله المسرح مؤلفا : « ان اغراء التأليف للمسرح راودنى لأول مرة فى سالسبورج عندما كنت أشاهد عرضا لأوبرا دون جوان لموتسارت التى أيقظت فى نفسى الرغبة فى المعالجة المسرحية . »

ويقـــول مورياك أنه التقى فى خريف ١٩٣٦ بأدوار بورديه المدير الجديد للكوميدى فرانسيز الذى طلب منه كلمة عن كورنى بمناسبة عرض مسرحية « الوهم الكوميدى » التى أخرجها لوى جوفيه ، فأجاب مورياك غاضبا « **ان كورنى هو الكاتب الوحيد فى القرن ١٨ الذى لا أتذوقه** » . واتفق مع بورديه أن يكتب له عوضا عن ذلك مسرحية عن تارتوف عصرى باسم « أزموديه » ، وهو مشروع قديم ظل راقدا فى درج مكتبه بضع سنوات . لكن بورديه كان يشك فى مقدرة مورياك على ابتكار عقدة تناسب المسرح . فأجاب مورياك « **ليس لدى سوى شخصيات** » . ووافق بورديه لأن الشخصيات هى الشىء الوحيد الذى يعنيه وبها تكتمل المسرحية . والواقع أن مورياك قدم شخصية رئيسية واحـــدة هى كوتور : تارتوف عصرى ، تأثر مورياك فى رسمها بالشيطان الأحدب للكاتب ليساج ، وأصبح على يده الشيطان ازموديه الذى يهتك أسرار البيوت .

وخلاصة المسرحية أن أرملة فى الثامنة والثلاثين تدعى مارسيل دى بارتا تقيم فى ضيعتها بريف « لاند » . وقد أوكلت تربية أطفالها الى معلمة ومعلم يدعى بليز كوتور ، وهو رجل غريب الطباع كاهن سابق خلع من وظيفته لسوء خلقه واستبدت به شهوة السيطرة والاستبداد بالآخرين . ويعشق كوتور المدرســـة ثم يطمع فى السيدة بارتا التى يمارس عليها نفوذا قويا وسيطرة مؤلمة . وفى فتـرة الصيف تتبـادل بعض الأسر أبناءها لاستضافتهم . فتستقبل بارتا شابا انجليزيا وسيما يدعى هارى فاننج ، بينما يسافر ابنها الى انجلترا حيث يحل ضيفا عند أسرة فاننج . وسرعان ما نتبين أن هارى مثل ازموديه الذى كان يهتك أسرار البيوت ويطيح بأمنها واستقرارها .

ويفجر هارى بحضوره الآلام الدفينة ويثير عواطف ربة الأسرة . ويطلب كوتور الذى عذبته الغيرة اعفاءه من عمله ويغادر البيت لكنه يعود على الفور .. ويبوح هارى بحبه العميق لابنة جارتا ويطلب الزواج منها ، لكن الام تحاول أن تصرف ابنتها عن هارى ، وترضخ فى النهاية لمشيئتهما ويتم الزواج ، بينما تظل بارتا أسيرة فى قبضة كوتور تئن تحت عاطفته المريبة المتسلطة . ويعتبر كوتور مثل تيريز من أعمق شخصيات مورياك . وليست خطيئة هذه الشخصية التهالك على لذات الجسد كما هو شأن معظم أبطال مورياك ، بقدر ما هى تسعى لاغتصاب النفوس والتسلط عليها .

وكتب مورياك بعد ذلك مسرحية «اللامحبوبين» (١٩٣٩) التى لم تمثل الا عام ١٩٤٥ . وهى دراما من ثلاثة فصول مجردة من الحدث تماما ومكتوبة بأسلوب جاف ، حيث يصور المؤلف شخصيات مؤلمة تتعذب على الدوام . ثم كتب مسرحيات أخرى هى « عبور الماكر » و « شعلة على الأرض » ، « بلاد بلا دروب » التى لم يصادف عرضها نجاحا يذكر .

وانتاج مورياك الدرامى امتداد لأعماله الروائية .. والمؤلف يشيد عوالمه فى اقليم لاند ، وفى هذا الاطار تتطور شخصيات شيطانية أو ملائكة سود استغرقتها دوامة اللذات الحسية وطحنتها الخطيئة .. ونجد أن مورياك يلح فى معظم أعمـــاله على تصوير نفوس مستبدة تتحكم فى النفوس الأضعف التى تقع تحت سيطرتها ، لكنها لا تستطيع فى الوقت نفسه أن تتخلص من حاضرها .

الا أن التكنيك الدرامى قـد فرض على مورياك قيودا معينة ، ويقول بشأن مسرحية «اللامحبوبين»: «وفقا للمبدأ الراسينى ، كنت أريد على مدى ثلاث فصول ألا يقوم الحدث الى على عذاب شخصياتى» ، ان تتابع الوقائع على الخطيئة، يكشف عن الاعماق المضطربة فى النفوس ، لكن الشخصيات تظل فى نهاية الأمر مستبعدة لمصيرها . والواقع أن الرؤيا المسرحية قد حملت مورياك على اختيار لغة خاصة .. ففى رأيه أن الكاتب الدرامى يجب عليه التغلب على مشكلتين :

أولا : أن المسرحية اذ تهدف الى تقديم كائنـات بشرية فى زمن محدد بدقة ، يصبـح ضروريا أن يأتى الحوار مباشرا وأن يشمل ما هو أســاسى ،



كما يجب على الكاتب أن يستبدل بأسلوبه الخاص ولهجته الشخصية بلغة مشتركة مفهومة ·

ثانيا : يجب أن يستمع الجمهور فى المسرح الى مناقشة عادية ، الى أسلوب الحياة بلا زخرفة ولا تعقيد · لقد أعاد مورياك الى المسرح السيكولوجية المحضة التى كان قد تخلى عنها كتاب تلك الفترة· لهذا تتميز مسرحياته برشاقة وبساطة خطوطها التراجيدية الراسينيةوثرائها السيكولوجى وتأزم شخصياتها · وأكثر المشاهد تمضى بأقصى درجة من الشدة الدرامية الممتزجة بالعنف ·

الا أن هذا المسرح لم يقدم دليلا على أن مورياك كان مستعدا لتحطيم قيود الرذيلة التى تكبل شخصيات تحيا كالسجناء · وينكر جاك فييه فى كتابه « الادب تحت المشرط » على البعض قولهم بأن مورياك قادر على تطهير المسرح ·· ويقول فى نقده لمسرحية « ازموديه » :

« لقد أدخلنا مورياك فى أسرة جيرونديه (نسبة الى اقليم جيروند بفرنسا) تعيش حياة غامضة ، أسرة مضطهدة ، تعسة ، شديدة التدين تقع فى قبضة طاغية مستبد · ان الجمهور ليرتعد من فكرة الدمار الباطنى الذى حل بالأسرة الفرنسية التى تعتنق ديانة صارمة تثير الآلام والهواجس · وبالرغم من أن الضيف الانكليزى هارى لا يتجاوز العشرين الا أنه يستطيع أن يحرك فى قلب الأم حبها الأخير · ان هذا الشاب الملحد يصمم على الزواج من الابنة ايمانويل رغم معارضة أمها التى توافق فى النهاية مكرهة ·

وهكذا يبعث الشاب الانجليكانى القوة فى تلك الأمزجة التى أقفرها ميراث كاثوليكى جامد · وعلى فرض أن الكاتب ينجح فى تقديم تفسير مناسب للانسان عندما لا يصف سوى ما يتعاقب فى ذاته من حصر الخطيئة واحساسه بالتقزز منها ، فانه يضع نفسه فى مستوى أقل من المستوى الذى يحدد وصفها فيه بالنسبة للحقائق الايديولوجية والانطولوجية التى تحفل بها مشاهد الحياة قطعا» ·

ان شخصيات مورياك على المسرح ، كما هو شأنها فى رواياته ، كائنات شقية ساقطة شيطانية تسبب للآخرين آلاما وأوجاعا ، وتؤدى دور الجلاد لذويها ولذواتها فى نفس الوقت الذى تكون فيه معذبة ومتألمة · وهذا لم يمنع من ظهور شخصيات نقية فى بعض رواياته بعد عام ١٩٣٠ ·

ان تلك الشخصيات تحاول التوفيق بين حب الله وبين مطالب طبيعتها الحسية ، وكثيرا ما تظل ممزقة بين واجبها نحو الله وبين ضغط غرائزها والحاح شهواتها ، وهى لذلك صورة لجماعة منهكة محطمة من جراء نزواتها · ان العجوز فليسينه بطلة « جينتركس » أم شرسة تنطوى على أنانية وقسوة · ويبدو أنها أفادت مورياك كنموذج لشخصياته المسرحية · كما نجد السيد فيرلاد فى مسرحية « اللامحبوبين » نمطا مذكرا لتلك العجوز

فهويمارس سلطانا طاغيا على ابنته الكبرى ليزابيث التى يحبها بشدة أكثر من ماريان التى لا تكترث به . لهـذا يريد الأب عرقلة زواج اليزابيث من صديق طفولتها ألان لأنه يريد أن يحتفظ بها بأى ثمن. وعندما يتقدم ألان طالبا الزواج من اليزابيث يعتبره الأب بأن ماريان تحب شابا تراوده فكرة الانتحار . وتضطر اليزابيث للتضحية بصديقها وتتزوج ماريان من ألان ، الا أن ألان واليزابيث يتفقان على الهروب بعد أن استيقظ حبهما ، لكن اليزابيث تعود فى الحال أثر وجع مباغت وتعود ماريان الى زوجها الذى يظل متعلقا بأختهـا .. وهكذا يتعذب الثلاثة بسـبب استبـداد الأب ، وتقول ليزابيث . « ومع ذلك سنبقى متحابين » ، تقصد هى وألان .

ان هذه الشخصيات وغيرها تحب وتتشاحن ف آن واحد . وبعبارة أخرى فانها لا تحب الآخرين الا بقدر ما نحقق سعادتها وترضى أهواءها . فالحب فى عالم مورياك ليس الا حب الذات ، حب لايعرف السكينة ولا الحلول ، حب تولد فيه رغبة سارية للسيطرة والتعذيب . ومع ذلك نجـد هـذه الشخصيات متلهفة الى الحنان الذى لا تستطيع الحصول عليه فى هذه البيئة .

ويروق لمورياك المؤمن أن يمزج طفرات الايمان باحتياجات الجسـد بطريقة متعسفة . ومع ذلك ينتهى الأمر بسيطرة أبطـاله الذين يئنون فى نفس الوقت من التزامات الحيـاة الشـاقة ، ويعيشون تحت رحمة مصـائرهم ، لأن الكائنات لا تسـتطيع الافلات من مصـيرها بدون الله . فى « أزمودية » نجد بارتا توافق على زوج هنرى من ابنتهـا وتعود لتستأنف حياتهـا تحت سيطرة كوتور الطاغية. واليزابيث فى «اللامحبوبين» بعد أن شرعت فى الهروب مع من تحب ، لم تجد الارادة الكافية لاتمام الخطة ، فتعود لتسـتأنف حياة العبودية فى كنف أب جلاد ، لكنها لا تكف عن التفكير فى ألان كما كانت تفعـل من قبـل . وهكذا تعود الشخصيات الى سيرتها الماضية ، لان الانزلاق فى الخطيئة هو العامل الاساسى لقلقهم المزمن ، ان الخوف فى رواياته ينشأ معه محاولة تلك الشخصيات الفاشلة لأن تتسـامى بغرائزها الى الفضائل المسيحية . والخلاصة أن شخصيات مورياك من خلق مزاج صاحبها . يقـول مورياك « حالمـا أعكف على العمـل ، فان كل شىء يتلون أمامى وفقـا لألوانى الابدية . ان شـخصياتى يكسوها ضوء كبريتى من صنعى . »

ويعيب سارتر على مورياك أن تلك التعميمات النهـائية التى يحشرها فى القصـة تؤكد أنه لايتصور شخصياته كما يجب. فهو يحدد ماهيتها قبل أن يكتب . وحين تبحث شخصية تيريز من زاوية الابدية فانه يجعل منها شيئا . وبعد ذلك يضيف اليها كثافة كاملة من الوعى لكن بلاجدوى، ذلك أن من أهـم قوانين الكائنات الروائية أن الروائى يسـتطيع أن يكون شاهدها أو شريكها المتواطىء معها لا الاثنين معا. ولان مورياك لم ينظر الى هذه القوانين بعين الاعتبار ، فانه يغتال وعى شـخصياته . وحين تلخص تيريز ـ بطلة رواية نهاية الليل ـ قصتها : «الانسلاخ عن الحضيض ثم السقوط فيه من جديد ، ثم الانسلاخ عنه الا ما لانهاية ، طوال سنوات لم تكن تعى أن هذا هو ايقاع مصيرها ، لكن ها هى قد خرجت من الليل وباتت ترى بوضوح » . فان مورياك حين يصور هذه النظرات الخارجية، على أنها جوهر مخلوقاته، فانه يحـولها الى أشياء ، والاشياء لا تملك الا مظـاهرها ، أما الوعى قليس كائنا مثلها ، انه يتكون . وعلى ذلك فحين يبحث مورياك شخصية بطلته من وجهة نظر الابدية فانه يجعل منها شيئا أولا .

لقد أوقع التزام مورياك بنظرة دينية محددة المؤلف فى مازق تعرض بسـببه لهجوم مفكرين مؤمنين وغير مؤمنين على السواء . فالمسيحية عنده تمتزج بعـاطفة الخطيئة التى يغلب عليها نزعة تشـاؤمية حادة تتعارض مع المنظورات المسيحية والانسانية ، وهذه الخطيئة تقتصر على الشـهوة الجسدية ، مما جعل الرواية عنده تبدو فقيرة فى صراعاتها ، تمضى على وتيرة واحدة . وهذا مايضع مورياك فى مسـتوى أقل بكثير من أولئك الذين كونوا عن الانسـان فكرة أكثر كمالا واستطاعوا أن يقـدموا صراعاته ومساجلاته على المسرح الذى يليق به .

ومن ناحية أخـرى ارتكب مورياك خطأ فنيا حين أدخل المطلق أو وجهة نظر الله فى الرواية. وهـذا ما جعله يخسر على حد تعبـير سارتر .
لقد كتب مورياك ذات يوم ان الروائى بالنسبة الى شخصياته كالله بالنسبة لمخلوقاته . أى أن مورياك يمتلك معرفة كاملة عن كل ما يتصـل بعـالمه الصـغير . فهو يفسر ويصف شـخصياته دون اسـتثناف ، واذا ما ارتفعت الرواية الى المطلق ، فان شريط الديمومة يتوقف تماما وتتبخر الرواية، ولا يتبقى منها سوى حقيقة ذابلة منظورا اليها من وجهة نظر الابدية .

التفسير الوجودى لقصص العهد القديم (سادوم)

تأليف : عيدى شموئيلى

ترجمها عن العبرية : رشاد عبدالله

فى القرن السادس عشر أخضعت التوراة للنقد كأى كتاب بعد أن كان يعتبر من الزندقة أو الكفر أن يوجه أحد أى نقد للكتاب المقدس • وقد بدأ فريق من العلماء المسيحيين فى دراسة التوراه دراسة نقدية ، وخرجوا من دراساتهم ببعض النتائج أهمها أن التوراة لم تكن من عمل موسى ، وانما كتبت بعده بقرون طويلة •

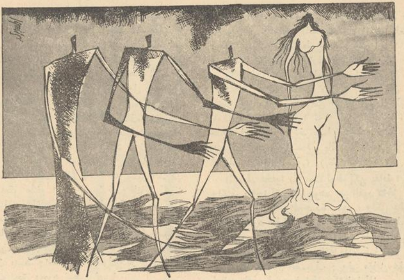
وقد بدأت الدراسة النقدية بشكل جدى فى القرن ١٨ عندما نشر الطبيب الفرنسى « جين استروك » أستاذ الطب بجامعة بومباى / باريس كتابا بالفرنسية عام ١٧٥٣ بعنوان « ملاحظات على الأصول التى رجع اليها موسى عندما ألف التكوين » • وقد كان اكتشاف « استروك » فى هذا المجال فاتحة جديدة فى النقد الذى يسمونه « النقد الموضوعى » أو « التاريخى » • وبالاضافة الى مجموعة هؤلاء النقاد الموضوعيين ظهر « النقد النصى » الذى اهتم بدراسة النص والتحريفات التى حدثت فى نصوص « العهد القديم » •

وقد استمر هذا الخط النقدى فى تناول « العهد القديم » بأشكال مختلفة الى أن بدأ أخيرا بعض أساتذة الفلسفة فى الجامعة العبرية فى تفسير الجانب القصصى الموجود فيه ، وخاصة الناحية السلوكية للشخصيات التى تتناولها هذه القصص تفسيرا وجوديا •

وكاتب هذا المقال « عيدى شموئيل » هو من اليهود الذين يتناولون قصص « العهد القديم » بالتفسير الوجودى مؤكدا بذلك امكانية تناول اجزاء هذا المجلد الدينى اليهودى الضخم بالتفسير والتحليل والاستنباط وفقا للاتجاهات التى تتمخض عنها المدارس الفكرية الحديثة ، وعلى الأخص المدرسة الوجودية التى يفسر على ضوئها المؤلف القصتين اللتين تتناولهما المقالتين وهما قصة «سادوم وعمورة» وقصة «النبى يونان»(*)

المترجم

(*) المقال الثانى فى العدد القادم



يبدو لى أن لقصة «العهد القديم » عن سادوم وعمورة مغزى عميق، يمس مسألة حرية الانسان؛ وأن هذه القصة من الممكن أن تستخدم كنموذج للافكار السائدة فى الفلسفة الوجودية التى تبحث هذه المسألة • وفيما يلى سوف نحـاول تحليل القصة والاشارة الى الدروس المستفادة منها •

حينما تجمع رجال سـادوم على مدخل منزل لوط وطلبوا منه أن يخرج اليهم الضيوف الاجانب (الملائكة) ؛ حاول لوط أن يثنيهم بكل جهده لكى يتخلوا عن مطلبهم هذا • ومن ناحية أخرى فانه حينما أخرج الملائكة لوطا وزوجته خارج المدينة ، فانهم حذروهمـــا من عدم التطلع الى الوراء •

وفى كل من هذين الحدثين نشهد محـاولة للتوجه نحو الحسم والبت الحر للانسـان ، وهو الامر الذى كان مصيريا فى كلتا الحالتين ، ولكن أحدا من سكان سادوم لم يتنازل عن مطلبه ،وقد أبيدوا جميعا ، وحتى زوجة لوط ، هى الاخرى، لم تتحكم فى غريزتها الجنسية وتحولت الى عمود من الملح •

ان المقارنة بين هذين الحدثين ظاهرة للعيان ، بالرغم من أن زوجة لوط لم تكن تابعة لمعســكر رجال سادوم • وبالفعل فانه صحيح أن زوجة لوط لم تكن خاطئة ، كما أنه صحيح كذلك ان مصيرها التراجيدى يمس شغاف قلوبنا ، بينما يبدو موت أهل سادوم بمثابة أمر طبيعى • ولكن اذا تجاهلنا التقييم الاخلاقى وركزنا البحث فقط فى وصف سلوك رجال سادوم • وزوجة لوط ، فاننا سندرك أن كل جانب قد أظهر بالفعل نفس النمط من السلوك ، وقطع بذلك على نفسه بنفس الحكم •

ان هذا السلوك هو تحجر الانسان واصراره على طبعه الانســاني ، ويرمز الى هذا المعنى فى قصة « العهد القديم » بعمود الملح •

ان طابع الحياة الخاص بسكان سادوم كان طابعا محددا ، وقد كانوا يمارسونه دون تردد أو شك أو ندم• ان الشك أو الندم هما دليلان على التفكير فى داخل الانسان ، وعلى الانعكاس الذى يعرف كيف يزن الاحتمالات ، ويسأل نفسه لماذا لايمكن التصرف على نحو آخر •

ولكن رجال سادوم لم يتميزوا بهذه الصفات• انهم ما أن عرفوا بمجىء المـلائكة حتى أسرعوا « من الحدث الى الشـــيخ » (تك ١٩ : ٤) • وأحاطوا بمدخل بيت لوط ، فى بهيمية الحيوانات الذين يستجيبون بصورة آلية لغرائزهم الملحة• وخرج لوط اليهم وخاطب فيهم مشـاعرهم ، وعرض عليهم كذلك بنـاته ، وحاول أن يوجه غرائزهم الملحة بهذه الطريقة نحو موضوع آخر• ولكنهم أصروا على مطلبهم • **ان غريزتهم الجنسية** كانت محددة ، ولا تقبل التـأويل ولا تحتمل

موضوعا جنسيا غريبا عما تعودوا عليه • ولم تؤد توسلات لوط الا الى ازدياد غضبهم ، وذكرتهم بأن لوطا نفسه ليس من أبناء المدينة وأنه انسان غريب جاء منذ فترة ليست بعيدة لكى يقيم وسطهم : « ثم قالوا جاء هذا الانسان ليتغرب وهو يحكم حكما • الآن نفعل بك شرا أكثر منهما » (تك ١٩ : ٩) •

انها حياة قاطعة لا تحتمل أنصاف الحلول ، ولا يغير هذا أى نوع من الحياة القاطعة المقصودة• وكلما التصق الانسان بهذه الحياة ، فانه يكره فى هذه الحالة منافسا له أو (كما فى حالة لوط) أكثر وأكثر الاجانب والغرباء • انه يعتبر الغريب عنصرا يعكر صفو استمرار الموقف القائم لكونه موقفا شاذا • لقد حقق لوط أمام أهل المدينة صورة مختلفة من السلوك ، وقد كشف سلوكه أمامهم بالذات عن غربته عنهم • واذا كان السكان قد كرهوه ، فان هذا يرجع الى كونهم هم أنفسهم مرتبطون بنمط واحد من السلوك ؛ والى رفضهم الاعتراف بحق وجود نمط آخر •

ان هذا الارتباط بهذه الصورة من الحياة الواحدة « ونموذج من نماذج تحجر روح الانسان، **وذلك لأن النمطية ذات اللون الواحد هى من الامور الغريبة على طابع الانسان • ان الانسان فى أساسه لايشبه الحجر أو الحيوان ، وطابعه ليس محددا بتركيب معين ومحدد من الصفات النفسية والبيولوجية•** ويكفى أن نتطلع الى الطفل لكى ندرك مدى ضخامة الاختلاف بين الانسان والحيوان • ان الحيوان يعرف كيف يميز الغذاء الحيوى من أجل وجوده وان يمتنع عن تناول الاشياء الغريبة • أما الطفل فى مقابل هذا ، فانه قد يبتلع أى شىء لا يزيد حجمه عن حجم حلقه• وهذه القدرة الموجودة لدى الطفل ، وان كانت تنطوى على خطر على حياته ، فانها تعبر عن أن الانسان أفضل من الحيوان ، وذلك لانه ليس فقط أن الرغبات البيولوجية هى التى تمكن وتتيح اللقاء بين الطفل والعالم ، ولكن حب الاستطلاع والفضول لدى الطفل يدفعه للاهتمام بما هو ليس حيويا من أجل ارضاء هذه الغرائز • وبالنسبة للانسان البالغ ، فانه يعرف كيف يتحكم فى غرائزه الملحة وأن يوجهها الى مجال مختلف فى اتجاهات تسمو بتلك الغرائز • ونحن نشهد فى كل حالة مدى مقدرة الانسان على الانفصال والخروج عن دائرة الحدود الضيقة لطباعه الفورية، وعلى تعدى هذه الحدود • ان هذا العزل هو الذى يحوله الى مخلوق روحى ،وهو الذى يجعله يواجه الحقائق الجديدة • وهكذا يتعرف الانسان رويدا رويدا على الظواهر المتعددة الالوان فى العالم ، وهكذا يتعلم كيف يطوع نفسه مع الجديد الذى قد يبدو منذ الوهلة الاولى غريبا عنه •

ولكن أبناء سادوم رفضوا ، كما ذكرنا ، هذا الجديد ، وهذا الغريب ، ومن الجدير أن نلفت النظر فى هذا الخصوص الى ندائهم الى لوط : « فنادوا لوطا وقالوا له : أين الرجلين اللذين جاءا اليك الليلة • أخرجهما الينا لنعرفهما (الفعل « عرف » هو « يدع » بالعبرية ويعنى الاتصال أو الممارسة الجنسية) (تك ١٩ : ٥) •

انهم لم يخفوا الى بيت لوط لكى يقابلوا لوط، ولكنهم جاءوا لكى يمزجوهم على الفور داخل نطاق العلاقات القائمة والموجودة بينهم ، ولكى يطمسوا بذلك وجود حقيقة غريبة • ولقد كان لوط فقط هو الذى عرف كيف يأخذ الحقيقة فى الحسبان ، وهو يتطلع اليها من مسافة ما ، كما تجلى الأمر فى عادات ادخال الضيوف • وفى مقابل هذا فان أبناء سادوم لم يعرفوا أن يكشفوا للغريب الا عن نوع واحد من العلاقة الجنسية • وذلك من أجل ضرورة الاقرار لهم ذاتيا ، واقرار الموقف الراهن •

* * *

ان تحجر الانسان داخل نموذج أو اطار واحد من الحياة هو من الموضوعات التى تخضع للمناقشة الواسعة فى كتابات الفلاسفة الوجوديين• وجدير بالذكر ان نشير الى كيركجورد وهيدجر • ان كيركجورد يشير الى العادة باعتبارها نموذجا بارزا لهذا التحجر ، وهو يهاجم على سبيل المثال المسيحيين فى عصرنا ، وذلك لكونهم مسيحيون « بحكم العادة » •

انهم يذهبون فى كل يوم أحد الى الكنيسة ، ومن هناك يتوجهون الى مشاغلهم العادية • وفى يوم الاحد التالى يذهبون مرة أخرى الى الكنيسة ثم يعودون الى منزلهم • انهم يعرفون طقوس العبادة شفويا ، وهم يبجلون القسس فى الشارع ويمارسون عملية العبادة والتقديس كلها بطريقة مثالية • أن هؤلاء المسيحيين قد « اعتادوا » على المسيحية ، ولا يوجد أحد منهم لديه ولو ظل من الشك فى حقيقة كونه مسيحيا طيبا ، وذلك لانه مواطن من مواطنى الدانمرك ، والدانمرك دولة مسيحية ، وهو مسئول عن المحافظة على طقوس العبادة التى يحرص عليها الجميع • **ولكن العادة كما يقول كيركجورد ، هى صمت روحى يرفع عن الانسان انفراديته ويمزجه فى داخل جمهور نمطى**

يمارس الانسان فى وسطه الاشياء التى يمارسها المجموع دون أن يكلف نفسه مشقة السؤال عن مضمون العمل او شرعيته ، ودون ان يختاره هو بنفسه .

كذلك فان « هيدجر » يكثر من وصف ضياع الانسان داخل نطاق العلاقات التى تطمس انفرادية الفرد . ان الانسان فى العالم هو انسان ذائب ومداس بواسطة نماذج عامة ومحددة مقدما من السلوك . ان الرغبات التى يواجهها فى العالم تدعوه الى استخدامها مثلما يستخدمها الجميع وحسبما يسلكها الجميع . ان السيارة ، على سبيل المثال ، « تتطلب » منه اهتماما ، وهو « مضطر » لشرائها واستخدامها . وهكذا فانه يغرق رويدا رويدا فى نماذج نمطية من الحياة أصبحت فى نظره بمثابة مطالب ضرورية . وبالفعل فان النمطية هى الصفة المميزة الرئيسية لكل طريقة من طرق الحياة فى العالم ولكل عادة .

انهم فى وسط المدينة العصرية « يسيرون » فى الشارع ، و « يسافرون » بالسيارات ، و « يشاهدون » الافلام ، والجمهور النمطى هو الذى ينفذ هذه الاعمال دون أن يشعر بأى داعى لأن يسأل نفسه السؤال التالى : من الذى يسير ، ومن الذى يسافر .

وعلى هذا النحو كذلك يبدو العمل الجنسى الذى سعى اليه رجال سادوم وذلك لانه لم يكن عملا فرديا غير مألوف ، بل عملا جماعيا طالبوا به جميعا « من حدثهم الى شيخهم » .

ان التمسك الاعمى بصورة حياة جماعية فيه ثمة فائدة . انه يعفى الفرد من أية مسئولية شخصية ، ويمنحه احساس الامان والثقة والاستقرار . انه حينما يفعل ما يفعله الجميع فانه يزيح عن كاهله بذلك عبء الحسم والتوتر النفسى الذى تتطلبه عملية الحسم .

ان السير فى خط معين فيه شىء من احساس الابدية ، أبدية الوجود المستقر، غير المتغير والذى لا توجد فيه مفاجآت ، والانسان الذى يتمسك بخط المحراث يرفض حتى الاعتقاد بامكانية اى تغيير فى وجوده الاستاتيكى .

وحينما توجه لوط الى أصهاره وأخبرهم بقرار الرب بابادة سادوم ، ضحكوا منه ، وقد ضحك مثلهم بالطبع كذلك كل سكان سادوم . ان استمرار الموقف الموجود قد بدى ذو صفة أبدية بالنسبة لهم ، وبمثابة « هكذا كان ، وهكذا سيكون ، وهكذا هو العالم » .

ولكن العادة ، والسير فى خط المحراث، والحياة النمطية داخل الجماعية ، كل هذه الاشياء تشير الى ضياع المبادرة الشخصية للانسان والى تحوله الى عجلة صغيرة فى الآلة .

وحينما يهاجم كيركجورد العادات والقيم المتحجرة لدى البورجوازيين فى عصرنا ، فانه يشير الى الجانب الآلى الذى فى تصرفهم وفى سلوكهم . انه يشبههم بساعة الحائط التى كفت عن العمل كالعادة . فبدلا من أن تدق اثنتا عشر دقة فى الساعة الثانية عشر ودقة واحدة فى الساعة الواحدة، فان هذه الساعة تدق مع لحظات توقف محددة دقة واحدة فقط ، وذلك على امتداد اليوم كله .

ان أى تقليد وأية عادة وأى صورة من صور الحياة تقبل بصورة فورية وبدون نقد تجعل الانسان بالتدريج يتحول الى موضوع Object وتسيطر عليه بصورة آلية . وهكذا تحول أبناء سادوم الى موضوعات Objects . ولا يشهد على ذلك مجرد سلوكهم « التلقائى » الذى أشرنا اليه سلفا ، بل بصورة غير مباشرة كذلك، فشلهم فى اقتحام منزل لوط من أجل تحقيق مرادهم. ان « العهد القديم » يحكى أنهم لم يستطيعوا أن يعثروا على مدخل المنزل لأن الملائكة أصابوهم بالعمى .

ان الانسان الذى يصاب بالعمى ، أو الذى يتجمد فى مكانه ، او الذى يتحرك فى فزع ، جيئة وذهابا ، يكون مثل الكرة التى يلهو بها.

ان « العهد القديم » لا يحكى لنا كيف أصاب الملائكة الشعب بالعمى ، وليست هناك أهمية لهذا الحدث . ان طريقة حياة بنى سادوم قد حولتهم الى كتلة واحدة ، وحينما يتحول **البشر الى كتلة واحدة فانهم يشكلون قوة بالفعل ولكنهم يفقدون المرونة . وعلى العموم فانه ليس من الصعب هز وزن قوة الكتلة ، وتكفى لذلك مجرد دفعة خفيفة .**

لقد أصيب أبناء سادوم بالعمى لأن تمسكهم العنادى بصورة الحياة التلقائية حال بينهم وبين أى نوع من المرونة . وحينما خربت سادوم تماما ، فانهم تحولوا الى تراب ، والى موضوع صامت . ولكنهم كانوا موضوعا كهذا حتى حينما كانوا ما زالوا على قيد الحياة .

نتأمل الآن صورة شخصية زوجة لوط التى كانت نهايتها أن تحولت الى عمود من الملح . فحينما يموت انسان فاننا معتادون على الاهتمام بسبب موته ، وعلى أن نسأل الى أى مدى كان

بطريق الصدفة ، فانه يحدث غالبا أن يتضح أن الانسان هو الذى جلب هذه الصدفة عن طريق سلوكه المهمل ، وبسبب عدم حذره ... الخ . ومن الممكن أن يشكل موت الانسان أحيانا رمزا لحياته ، ويبدو لى أن الامر على هذا النحو يتفق مع ما حدث لزوجة لوط .

انهم يقولون عن الانسان النشط والملىء بالحياة: انه ممتزج بالعالم . والجدير بالذكر مع هذا أن الكلمة « ممتزج » قد يكون فيها ما يضلل لأنها ترمز الى المزج المطلق بين هذا الانسان والعالم ، وليس الامر كذلك . **ان الانسان النشيط والحيوى هو بالذات ذلك الانسان الذى يحافظ على مسافة بينه وبين العالم . ان هذه المسافة هى المسافة اللازمة من أجل البصيرة النافذة الواعية . انه بدون هذه البصيرة لا يمكن رؤية شىء ،** وذلك لأنه اذا قرب الانسان شيئا حتى بؤبؤ عينه فانه يفقد القدرة على تمييزه ، ولا يرى الا مجرد بقعة سوداء . **ان أحيا وأن أعمل ، معنى هذا أن** أكون يقظا للوجود الذى نعيش فيه ، بينما يكون الوجود نفسه هو بمثابة مسافة عن العالم ، المسافة اللازمة من أجل التفكير والتأمل ووزن الأمور .

ان هذه المسافة تمنحنا الادراك بالزمن أو الادراك التاريخى . ولدى وقوفنا على بعد معين من الحقيقة الماثلة أمامنا فى الحاضر ، فاننا يمكننا أن نميز بصورة أقل أو أكثر مجال العلاقات الذى أدى اليها أى ـ ماضيها . وفى نفس الوقت فاننا كذلك نحاول أن نتكهن بالمدى الذى يمكن أن تؤدى بنا اليه هذه الحقيقة فى المستقبل ـ وهو الامر الذى يذكرنا بقدرتنا على المبادرة وبحريتنا . ان المغزى الانسانى للعقل «أن نحيا» هو: أن نكون ذوى بصيرة ليست تابعة للعالم نفسه ، بل تابعة للانسان الذى يخلقه ، حينما يجعل نفسه على مسافة معينة من الاشياء . ان زوجة لوط لم تكن لديها بصيرة ، وهى أيضا لم تشأ فى ذلك، وذلك لأنها رفضت أن تعيش بعيدا عن سادوم . **لقد طلب منها الملائكة الا تنظر الى الخلف أى : ان تكف عن رؤية سادوم كواقع ملموس ، وأن تنظر اليها باعتبارها مجرد ماض ، ومجرد قطعة من تاريخها الشخصى .** ولكن زوجة لوط لم تتخل عن هذا الوجود التلقائى ، ورفضت أن تظل على مسافة منه ، وحاولت كذلك احياته من جديد . لقد نظرت الى الخلف لكى تبحث عن نفسها داخل المدينة التى تعرفها .

ولكن سادوم كانت قد بدأت فى الاحتراق وفى التحول الى رماد صامت ، وتضامنت زوجة لوط مع المدينة وتحولت هى الاخرى مع المدينة الى جسد صامت .

ولا يحكى لنا «العهد القديم» شيئا عن تواريخ حياة زوجة لوط فى سادوم ويبدو أن هذا الامر ليس من قبيل الصدفة . ان زوجة لوط ببساطة لم يكن لها تاريخ ، ولم يكن لديها ذاتيا ادراك بالزمن ولا ادراك بالتاريخ . ومن الجائز بالفعل أن نفترض أنها كانت تدير الاعمال المنزلية وكانت تعيش الحياة اليومية التقليدية فى سادوم . ولكن كما أنهم لا يكتبون تاريخا عن الحركة الابدية لامواج البحر ، فانهم كذلك لا يلجأون الى وصف حياة الذين لا يملكون زمام المبادرة والتى تجرى بحكم الاستمرار الآلى . لقد عاشت زوجة لوط فى العالم ، وهذا بالمفهوم الذى يعطيه « هيدجر » لهذا التعبير . لقد كانت مرتبطة بأسلوب الحياة التقليدية ومتسقة مع مبادىء السلوك التى تختارها بصورة شخصية ، لانها لم تعرف كيف تحافظ على مسافة بينها وبين الأشياء . ولو عرفت هذه المرأة كيف تختار ، ولو كانت تتميز ببعض من المرونة أو القدرة على المبادرة لكانت قد اختارت بالطبع المستقبل الذى كان ينتظرها خارج سادوم وتوافق بالاضافة الى هذا (ولو من خلال الالم) على أن تعتبر سادوم بمثابة ماض قد انتهى . ولكنها لم ترض بالذكريات ورفضت أن تصل الى مرحلة البلوغ ، وسعت لأن تكون ذات ماض وأعطت ظهرها للمستقبل .

لقد استدارت الى الخلف لكى تجمد سير الزمن ولكى تعيش مرة أخرى فى استمرارية الوجود الابدى الذى لا تاريخ له والذى تجلى فى صورة حياتها الآلية والتقليدية حيث كانت تقيم . كذلك فان سكان سادوم احبوا استمرارية طابع حياتهم ، ومن الممكن القول بأنهم أيضا لم يكن لهم تاريخ . ان « العهد القديم » يحكى فقط عن أنهم كانوا اشخاصا ذوى أثام ، ولا يسعى لكى يذكر بالتفصيل شيئا عن أعمالهم فى الماضى ، وذلك لان الاستمرارية فى عاداتهم حولت كل حياتهم الى ليلة أبدية مظلمة . ان زوجة لوط ورجال سادوم قد تحولوا فى النهاية الى جسد صامت ، ولكن التحجر كان قد بدأ من قبل منذ أن كانوا على قيد الحياة بعد ، وتجلى فى تمسكهم التلقائى والذى لا بصيرة فيه بصورة معينة من الحياة . وحينما استدارت زوجة لوط الى الخلف ونظرت الى سادوم فان نظرتها لم تكن الا تعبيرا لتمييز

المصير الذى انتظرها هى والسكان معا •

لقـــد رأى لوط الملائكة من على بعد ، قبل دخولهم الى المدينة ، وذلك لأنه كان يجلس حينئذ فى مدخل المدينة • ومدخل المدينة هو أيضـــا حدود المدينة ، والحدود ترمز دائما الى ما وراءها، والى الافق الذى من المحتمل أن تظهر منه الحقائق الجديدة • وبالفعل فان لوط كان مستعدا لمقـابلة الجديد ، وكانت عيناه حساستان بما فيه الكفاية لكى يتمكن من تمييزه • ورأى الملائكة : « فلمـا رآها لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهــــه الى الارض (تك ١٩ : ٢) •

لقد استضافهم فى بيتـه وقدم لهم وجبة أعدها بنفسه ، وبعد ذلك خرج للدفاع عنهم ضــد السكان ، بأن أغلق خلفه باب بيته وعرض نفسه للخطر • لقد كان لوط على استعداد للتضحية بنفسه من أجل الضيوف الغرباء الذين جاءوا من بعيد •

ونحن نلتقى بالفعل مع لوط قبل أن يستوطن فى منطقة سادوم •

انه يعود الى فلسطين مع ابراهيم **بعـــد أن عاشا سويا فى مصر ، تلك الـــــلاد التى** نزحا **اليها من فرط الجوع الذى** ساد **فلسطين فى تلك الإيام •**

ان ابراهيم ولوط يعودان وهمـــا مليئين بالاحترام والممتلكات ، ثمرة عمل أيديهمـــا ، وعلاقات الصداقة تربط كل منها بالآخر • ولكن كمية الممتلكات التى كانت فى حوزة كل واحد منهما لم تمكنهما من الاستيطان فى مكان واحد، وعرض ابراهيم على لوط أن ينفصلا •

« فرفع لوط عينيه ورأى كل دائرة الارض أن جميعها سقى قبلما أخرب الرب سدوم وعمورة كجنة الرب كأرض مصر حينما تجىء الى صوعز • **فاختار لوط لنفسه كل دائرة الاردن وارتحل شرقا** » (تك ١٣ : ١٠) ، ان لوطا قد «رفــع عينيه » لكى يتطلع حوله ويختار مكانا يبنى فيــه بيتا لنفسه •

لقد تطلع نحو الافق لكى يعرف احتمـــالات المعيشة التى تنتظره فى المستقبل•ان هذه النظرة بعيدة المدى هى سر نجاح لوط وبفضـلها حلت البركة بعمله • وبهذه النظرة كذلك عرف كيف يميز الملائكة الذين جاءوا من بعيد والذين أنقذوا حياة لوط • وحينما أخرج الملائكة لوطا خارج المدينة ، أمروه بأن يهرب الى الجبل ، ولكن نظرة لوط كانت بعيدة هذه المرة أيضا : « **فقال لهما لوط لا يا سيد ••• انا لا أقدر أن أهرب الى الجبل لعل الشر يدركنى وأموت » (تك ١٩ : ١٨)**

واستجاب الملائكة لطلبه ولم يخربوا المدينـــة القريبة التى أراد أن يقيم فيها • ان لوطا حينما تطلع ، فان نظرته هذه منحته بصيرة ساعدته على الحياة والتجدد • ان نظرة زوجته ، فى مقـــابل هذا ، أدت الى تحجرها وذلك لانها كانت خالية من أية بصيرة• واذا كان لوط لديه بصيرة فانهذا بسبب المسافة التى حافظ عليها بينه وبين العالم لقد علمه تجواله أن الانسان لا يمكن الا أن يكون ضيفا فى هذا العالم ، وأن أية ممتلكات ، وأى نظام اجتماعى ، وأية حالة راهنة ، كل هذا ليس أبديا • وتدل على ذلك قدرته على اســـتقبال الضيوف ، وصبره تجاه أبناء سادوم واستعداده لأن يهجر ويترك كل شىء لكى يبدأ حياة جديدة فى كل مرة • انه لم يطلب من الملائكة أن تبقى له على أملاكه ، وقد شكرهم فى مقابل هذا ، على انقاذهم لحياته • لقد كانت حياته هى مشــــعل الحرية والمبادرة ، ولذلك فقد كانت الشىء الوحيد الذى حرص على المحافظة عليه •

ومن الجدير بالذكر فى النهاية أن نشـير الى لحظة خاصة فى حياة لوط حينما أخبره الملائكة عن رغبتهم فى تخريب المدينـــة واستحثوه على الخروج منها •

ان « العهد القديم » **يحكى ان لوط قد «توانى» لدرجة ان الملائكة اخذوا زمام المبادرة فى أيديهم وأخرجوه من المدينة** : «ولما توانى أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته ويد ابنتيه لشفقة الرب عليه وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة » (تك ١٩ : ١٧)

لقد كانت هذه بلا شك لحظة من لحظات الضعف فى قلب لوط ، لحظة من لحظات كتم الأنفاس ، وذلك لأن لوط كاد أن يبقى فى المدينة ، وكاد أن يتحول الى شىء متحجر • لقد بدى التنـــــازل بالطبع أصعب من أن يحتمل ، لأنه لم يكن شابا بعد ، وكان من الصعب عليه أن يبدأ كل شىء من جديد • ولكن امساك الملائكة بيده كان بمثـــابة صلة رقيقة ووديعة بواسطة « شفقة الرب » ، وكان بمثابة لمسة تشجيع على كتفيه • وبالفعل فان لوطا قد تماسك ، وحينما غادر المدينة لم ينظر اليها على الاطلاق ، وعاد اليه ادراكه الذاتى وبالاضافة الى هذا فانه من الواضح أن مساعدة الملائكة كانت حيوية وبدونها لا شك أن لوط كان سيبقى ويموت فى سادوم ــ لقد كان لوط فى حاجة الى لمسة يد من الغير لكى يتـــذكر قوته ومقدرته وحريته ، والى هذه اللمسة يحتاج كل انسان يحاول أن ينتقل من صورة الحياة المتحجرة الى الحياة الجديدة •

الإنسان.. والسيطرة على الطبيعة

د. بشير العظمة

يحلو للانسان المعاصر أن يضيف الى ميزاته أنه « قاهر الطبيعة والمسيطر عليها » ! . ان الانسان العاقل يدرك أن الصراع التاريخى بين العقل البشرى وبين قوى الطبيعة على اختلاف أشكالها ، ودعوى النصر والسيطرة، ليست فى حقيقتها الا صورة متبدلة للتفاعل المستمر بين العقل الانسانى وبين الوسط والبيئة الطبيعية حيث يعيش . وان جميع المكاسب التى يعتقد العلم بانه قد انتزعها من الطبيعة ، ليست عطاءات مجانية ، بل ان بعضها يهدد الجنس البشرى بمجموعه باخطار كبيرة ، قد تفرض عليه أن يتوقف فى حدود لايتجاوزها ، أو أن يراجع بعض منجزاته ، ويقوم بمحاسبة قد تكون خاسرة فى بعض مجالات مانظنه أرباحا ومكاسب خالصة .

يزداد فى العالم أجمع الاهتمام بعلم الايكولوجيا «دراسة البيئة وتاريخ حياة الاحياء» . ولقد جاء الاهتمام المتزايد بالايكولوجيا نتيجة لادراك العلماء الاخطار التى تهدد الحياة بجميع أشكالها ، اذا لم تلتزم شعوب الارض جميعا بقواعد سلوكية علمية محددة .

ان هذا العلم الحديث نسبيا لم ينته الى قواعد ونتائج علمية ونهائية ، ذلك انه لايزال فى مرحلة طرح صور عن المشاكل ، ومحاولة تحديد امكانيات الانسان فى التطابق مع البيئة . وهى دراسات بالغة التعقيد لايمكن مقارنتها أو تعميمها . فالاختلافات كبيرة جدا بين المجتمعات البشرية فى تطورها التاريخى ، بتاثير عوامل البيئة والعادات والتقاليد وعزلة بعض المجتمعات أو اختلاطها .

وسوف أستعرض فى هذا المقال صورا خاطفة للمشاكل الكبيرة التى يبعثها هذا العلم الجديد .

أولا :

الخطر الكبير الذى يهدد الحياة بجميع أشكالها على الارض ، التباعد الكبير بين زيادة السكان الكبيرة جدا وبين زيادة الاغذية وزيادة الاستهلاك ، وهى لا تتماشى ولاتستجيب لحاجات الجميع أو لتطلعاتهم .

يندفع الانسان وفى جميع أنحاء الارض ليزيل الغابات ويقلب الصحارى والمراعى الى أراضي زراعية ، دون دراسة مسبقة وواعية لنتائج هذا التبديل . وكذلك يبدل الانسان من طراز عمله ونشاطه . حيث يقل أو يكاد يزول النشاط العضلى ليزداد النشاط العقلى . ولا نزال نجهل تاثير ذلك على صحة الانسان وسلامته .

ان امكانيات الانسان فى المطابقة والتلاؤم مع الظروف المتبدلة كبيرة جدا ، وسلامة الانسان خلال قرون رغم تبدل الظروف المعاشية ، يبعث الامل بامكان استمرار تحمل الانسان للتبدلات . ولكن رغم مرور الزمن هل يجوز لنا أن نتوقع تطابقا مستمرا ودون حدود ؟ .. لقد زادت الطفرة فى التقنية التى حدثت فى العقود الاخيرة من مواردنا الاستهلاكية ، ونحن نشهد وبشكل اكيد كيف تزداد أمراض الحضارة باشكالها المختلفة ، بحيث أن عدد هذه الامراض يعادل أو يفوق أخطار الامراض الانتانية ، التى قضى عليها تقريبا .

ثانيا :

ان دراسة تأثير البيئة على الانسان ، فى المناطق المعتدلة ، والتى اختلطت فيها اجناس بشرية عديدة هى دراسة معقدة جدا ، ويتعذر ان تعطينا فكرة واضحة عن أثر البيئة فى الحياة البشرية لتشابك وتعدد العوامل المؤثرة .

وعليه يحسن ان ندرس تأثير البيئة على الانسان فى مناطق معزولة ونائية ، قريبة من القطب مثلا أو فى مجاهل افريقيا .

يعيش الانسان فى هذه المناطق متكيفا مع المحيط فالانسان فى هذه المناطق جزء من البيئة الطبيعية التى لم تقم فيها صناعات حتى الآن . وتعيش القبائل الرحالة البدائية فى هذه البقاع على موارد غذائية متوفرة فى الطبيعة ودون زراعة .

لقد بدأت أبحاث البيئة على الاسكيمو منذ عام ١٩٣٦ واستهدفت الدراسة تحديد قابلية اى مجتمع على التطابق والاحتفاظ بقدرته على التكاثر . وهى الوسيلة الوحيدة للتأكد بيولوجيا من ديمومة اى شعب ، وانه قادر على الصمود امام تحديات البيئة .

وقد تمت الدراسة على عدد محدود نسبيا من الاسكيمو لا يتجاوز ٢٢٠٠ شخص ، وفى السنغال على قبيلة تعداد افرادها ١٥٠٠ .

١ ـ الاصطفاء الطبيعى والاصطفاء المعاكس :

يتزاوج الاسكيمو بعضهم من بعض ومنذ آلاف السنين ، دون ظهور انحدار وراثى نتيجة التزاوج بالقرابة الدموية ، وهى نسبة تبلغ ١٠٠ ٪ ، رغم عدم السماح بزواج أبناء العمومة . ان ثبات هذه المجتمعات وتكاثرها دليل على ان الاصطفاء الطبيعى كان العنصر الحاسم فى صمودها . فالنساء كثيرات الولادة ، ولكل عائلة سبعة او ثمانية اطفال احياء ، يعيش منهم حتى سن الكهولة ثلاثة وسطيا . ولم يكن سبب وفيات الاطفال الامراض الانتانية ، لانها غير موجودة فى هذه المناطق . والسبب فى العدد الكبير للوفيات الاسباب الوراثية . ويؤكد ذلك الظاهرة الجديدة بالاصطفاء العكسى Contra selection

فالاسكيمو يتعرض للاصابة بأمراض خبيثة عندما يتصل بالاوروبيين ، وخاصة الحمات Viruses

مثال ذلك دخل بريطانى عام ١٩٣٥ قبيلة من الاسكيمو وعطس قريبا من احدهم ، فمات نتيجة اصابات بالزكام ١٠ ٪ من هذه القبيلة باصابات ذات القصبات والرئة الانتانية .

وكانت عادات الاسكيمو تؤكد نتائج الانتخاب الطبيعى مثال ذلك : ان العديد من الاطفال مابين العاشرة والخامسة عشرة يموتون من الصقيع والحوادث . ولم يكن يسمح للشباب بالزواج الا اذا برهن على انه صياد ماهر ، بحيث يغادر الشباب المنزل الابوى لمدة ثلاث ايام ، فاذا عاد منتصرا فى صيده ، وتغلب على العواصف واخطار الطريق ، سمح له بالزواج ، ونسبة الظافرين غالبا قليلة .

تكثر الاجهاضات العفوية بين نساء الاسكيمو بسبب التشوهات الولادية «٦ ـ ١٠» ٪ بين المتزوجات ، ويلاحظ عند القرود كذلك نسبة عالية للاجهاض ، نتيجة الانتخاب الطبيعى القاسى والذى يجعل الزيادة العددية معقولة .

وعلينا ان نؤكد بان تحريم الزواج بين ابناء العمومة والخؤولة فى هذه الاقوام ، قد خففت كثيرا من اخطار التزاوج بالقربى الدموية ، ومنع انقراض هذه الشعوب. ويمتد منع الزواج حتى الدرجة الرابعة بين أبناء العمومة والخؤولة ، واحيانا حتى المرتبة الخامسة .

٢ ـ التغذية :

يعيش الاسكيمو على الاشنيات algae يجمعونها ايام الصيف ، وبعض الحشائش بالاضافة للحوم الاسماك ، ويبلغ استهلاكهم اليومى من لحومها ١ ـ ٢ كيلوجرام مطبوخة مع ادهان نيئة . كذلك يأكلون الاحشاء المجمدة «النخاع ، الكبد ، الدم ؛ الزعانف .. الخ» .

خلاصة هذه التغذية انها غنية بالبروتينات والادهان ، وقليلا جدا من ماءات الفحم الموجودة فى الاشنيات والكبد والاعشاب .

وبالعكس تأكل قبائل شرقى السنغال مغلى الحبوب وهى غنية بماءات الفحم ، ولايأكلون الا قليلا جدا من البروتينات الحيوانية ، خاصة وان الصيد ممنوع ومنذ عدة سنوات فى مناطقهم .

لقد ظهرت تبدلات عميقة فى نوعية انسان الاسكيمو بحيث يؤكد الباحثون ان النوع الاصيل من هذا العرق قد انقرض . فقد كان الفرد منهم قادرا على مصارعة العاصفة اياما عديدة ، وكانت له حضارة خاصة به فى النحت على العظام ، وفى رواية الشعر وتنظيم حفلات الرقص والولائم .

واحتمالهم للمتاعب عجيب ، فانهم يركضون وراء الصيد ، أو يركضون احيانا بدون هدف ساعات طويلة . رغب احدهم مرافقة مركبة لبعثة دراسية وتجرها كلاب ، فاستمر يركض بسرعة ١٢ ـ ١٥ كيلو متر فى الساعة ، ولمسافة ١٢٠ كيلو متر ، وفى درجة حرارة ١٥ تحت الصفر .

واحتمالهم الجسمى يستحق دراسة علمية دقيقة لم تتم حتى الآن . لقد انتهى الاسكيمو الممتاز لان عملية الانتخاب الطبيعى قد توقفت .

وفى دراسة لاصابات الامراض الغذائية الوراثية وخاصة الديابت ، لوحظ بشكل عام زيادة نسبةالاصابات، بزيادة شرائح المتقدمين بالسن منهم ، وكذلك نتيجة تبدل التغذية وزيادة استهلاكهم لماءات الفحم . «تبلغ نسبة الديابت فى عمر فوق الاربعين ٤٠٪ فى صحراء الاريزونا «الهنود الحمر» » .

وكذلك تلاحظ زيادة فى حالات السل القرحى الجنبى بينهم ، نتيجة هذا التبديل الغذائى ، بينما كانت تقتصر أعراض اصاباتهم بالسل قديما على نفث الدم مع الصلابة الرئوية .

ويقلد الاسكيمو الدانمركيين فى تغذيتهم ، ومتى توفر لاحدهم كمية كافية من اجورهم اشتروا عدةكيلويات من السكر توضع فى وسط الغرفة ، ويتناول منها الجميع لعدة ايام ودون طعام آخر .

والخلاصة ان لهذه الدراسات ومتابعتها اهمية كبيرة فى معرفة امكانيات الانسان فى التطابق والتكيف مع الظروف الجديدة . وكذلك دراسة تفاعلات الانسان الجسمية والنفسية ، الاقتصادية والفكرية ، فى تطور الجنس البشرى البيولوجى والاجتماعى والاقتصادى .

ثالثا :

يختلف واقع الانسان فى المناطق المأهولة عن وضع الانسان «الصياد القاطف للثمار» ، فى المناطق النائية والمعزولة عن العالم ، نتيجة التبدل العميق فى الحياة الانسانية بعد الثورة «الباستورية» ، والانفجار السكانى التالى ، واختلاط الاجناس بالهجرة والتزاوج ، كل ذلك يجعل امكانية دراسة الفروق البشرية واختلافاتها مستحيلة .

لقد بدل انتقال الانسان للمرحلة الجديدة الحضارية ، بشكل جذرى علاقته الحياتية مع الطبيعة حيث يعيش .

وفى مرحلة متقدمة حدثت الثورة الصناعية ، وبدأ الانسان يحول ويبدل الظروف الطبيعية ، ورافق زيادة الانتاج ، زيادة الفضلات والتلوث فى الجو وفى الماء وعلى الارض .

وكذلك يتأثر الانسان ، وتستمر عملية التطابق والانسجام بين الجسم والعقل الانسانى ، وظروف العمل التى يعيش فيها .

ومن المستحيل ان احيط فى هذا المقال ، بالتطورات والتبدلات الجذرية والخطيرة أحيانا ، والتى يتعرض لها الانسان ، نتيجة تبدلات جذرية فى وسائل العمل والانتاج وخاصة فى البلاد الصناعية .

وبحث الآثار الجسيمة والنفسية لكل ذلك خارجة عن موضوعى هذا ، وساقصر البحث فيه على أثر البيئة على الجسم الانسانى ، وقدرة الانسان على التطابق مع الظروف المحيطية الجديدة .

تأثير البشر على الطبيعة حاليا لايقتصر على المنطقة أو الحيز الحياتى حيث يعيش ، بل يشمل ذلك الكرة الارضية فى أجوائها ومياهها ، أو على مناطق شاسعة فى الحدود الدنيا للتلوث . والخلاصة فان أثر الانسان على الطبيعة كبير جدا وشامل بحيث لاتنجو منطقة من نتائج النشاط البشرى .

فالارض وماعليها ، والاجواء المحيطة بها ، هى مجموعة واحدة تتبدل فيها الطاقات والمواد من شكل الى آخر ، ومن موقع الى آخر ، وبسرعة مختلفة ، وهى تبدلات متوازنة بحيث تبدو الحياة فى كل جزء منها وكأنها ثابتة ومستمرة بشكل عام . ورغم الثبات والاستمرار ، والتوازن العديد المحاور ، فان نشاط الانسان المتزايد يهدد الحياة، وبجميع أشكالها المعروفة على الارض ، باخطار جسيمةقد تسبب الدمار الشامل والفناء . ذلك ان هذا النشاط يكاد يمس توازنات حيوية اساسية نوجزها فيما يلى :

١ – الاوكسجين : –

لو نقصت مثلا كمية الاوكسجين فى الهواء لاصبحت الحياة غير ممكنة ، الا بالنسبة لبعض اشكال الحياة الجرثومية اللاهوائية مثلا . وكذلك فان زيادة الاوكسجين بنسبة ٥ ٪ فقط عما هى عليه تؤدى بزيادة كبيرة فى الحريق بحيث تتعرض الغابات لاخطار جسيمة .

ينسى الانسان ان الاوكسجين الذى نتنفسه هو ١٠٠٪ من انتاج الحياةالنباتية .فاذا قضى على الكلوروفيل قضاء تاما على الارض ، لاصبحت كوكبا غير صالح للحياة، ويموت كل شىء فيه اختناقا .

وكمية الاوكسجين الموجودة فى الجو تتجدد تماما خلال كل عام . فالاوكسجين هو حصيلة ، وكذلك دليل وجود الحياة على الارض ، وانتاجه وتجدده مستمر بفعل الوظيفة الكلوروفيلية .

لايهدد الحياة الحيوانية على الارض نقص الاوكسجين فان نشاط المبادلة الغازية النباتية يعوض النقص الطارىء ويعيد التوازن . «تمتص النباتات غاز الفحم وتحتفظ بذرة الفحم وتنفث الاوكسجين» . وتعمل الوظيفة الكلوروفيلية بتأثير أشعة الشمس . وتنتج الحياة النباتية فى البحار phytoplaneton ٧٠٪ من

الاوكسجين المتوفر فى الهواء ، ومصدر الجزء الباقى «٣٠٪» من النباتات الارضية ، وخاصة من الاشجار حيث يكون تنفسها اشد وانتاجها اكبر بعشرات او مئات الامثال، اذا قورنت مع انتاج حقل من الاعشاب فى نفس المساحة .

فالهواء الجوى اذن انتاج بيولوجى . واذا انتهت الحياة على الارض زال الاوكسجين ـ تدريجيا ، وعاد الغلاف الجوى الى حالته البدائية ، كما كان عليه قبل وجود الحياة على كوكبنا الارضى . وبتعبير آخر ليس الاوكسجين سبب الحياة ، بل ان الحياة هى المولدة للاوكسجين ، وبتحديد ادق : ان الحياة هى التى تسمح باستمرار الحياه .

يتعرض الاوكسجين للاستهلاك الشديد مع ازدياد وسائل النقل والاحتراق . تستهلك طائرة «بوينغ ٧٠٧» فى رحلة اطلسية واحدة مازنته ٣٥ طن من الاوكسجين . فاذا كان عدد الطائرات النفاثة المستعملة يوميا ٣٠٠٠ طائرة موجودة فى السماء «المتوسط الحالى» فى كل لحظة من الاربع وعشرين ساعة كل يوم ، فان مقدار المستهلك من الاوكسجين سنويا هو ١٦ مليون طن تقريبا . ان كل محرك هومستهلك للاوكسجين ، وقد بلغ عدد المحركات فى الولايات المتحدة فقط عام ١٩٧٠ «١.٩ ملايين محرك تلقى بغاز الفحم وتستهلك الاوكسجين» .

ومع زيادة الطائرات وضخامة محركاتها فان استهلاك الاوكسجين عام ٢٠٠٠ سوف يبلغ عشرة امثال استهلاكه الحالى . يضاف الى ذلك استهلاك المصانع وحرائق الغابات والخدمات والاستهلاك البيولوجى للاحياء الحيوانية .

هذا الضغط المتزايد على استهلاك الاوكسجين يقابله نقص متزايد فى انتاجه : يقوم الانسان باقتلاع الاشجار لبناء المساكن والتوسع بالمدن ، او لزراعة الاعشاب والخضار بدلا عنها ، وهى جميعا اقل انتاجا للاوكسجين . وفى تقدير الخبراء ان انتاج الولايات المتحدة من الاوكسجين حاليا يزيد عن ٦٠٪ مما تستهلك منه ، وانها تعتمد على انتاجه من المحيطات .

ينتج الاوكسجين احياء مجهرية تقوم بوظيفة كلورفيلية هى «البلانكتون» ، وهى حساسة جدا لعديد من المنتجات الكيميوية ، وكذلك حساسة لتعكر المياه والاجواء المحيطة بالارض ، حيث لاتصل اليها كمية كافية من الطاقة الشمسية .

يتعرض البلانكتون لاخطار كبيرة ، نتيجة استعمال المبيدات وقاتلات الاعشاب وتلوث المحيطات بالبترول من الناقلات .

لقد سبب جنوح باخرة محملة بالبترول منذ عامين تخريبا رهيبا فى بحر المانش . لو كانت هذه الباخرة محملة بمبيدات الاعشاب المكثفة ، فقد كان من المحقق بانها ستقضي على البلانكتون الموجود فى بحر المانش وبحار الشمال ولفترة مديدة غير محددة . انتاج مبيدات الاعشاب كبير جدا ، وتسرب هذه المواد الكيميوية مع الاسمدة وغيرها من المبيدات الحشرية محقق ، عن طريق مياه الامطار والانهار نحو البحار . وكلها مواد قاتلة للاحياء الدقيقة المنتجة للاوكسجين .

لقد كانت فكرة اختناق الاحياء ، وانتهاء الحياة على الارض بزوال الكلوروفيل ، خيالات واوهام قبل أعوام، ومن المؤكد حاليا ان استمرار الزيادة الاستهلاكية ، والنقص فى انتاج الاوكسجين ، سوف يهدد الانسان واحياء الاخرى كذلك بالاختناق .

فى عام ١٩٥٢ وخلال اربعة ايام توفى ٤٠٠٠ شخص زيادة عن المعدل اليومى المعتاد فى لندن بسبب smog كلمة منحوتة من ضباب fog ودخان smoke وفى طوكيو اقيم مؤخرا مركز انشاق الاوكسجين ، الاسعاف الذين يشعرون بالدوار نتيجة الزحام الشديد وتلوث الهواء . وفى شهر تموز عام ١٩٧٠ دخل لمستشفيات فى طوكيو ٨٠٠٠ شخص نتيجة سيطرة ضباب دخانى على المدينة .

وقد نجحت بلدية لندن فى التخلص من اخطار تجميع الدخان والضباب بمراقبة الاحتراق فى المصانع ، وتنقية فضلاته ، ومنع استعمال انواع من المحروقات ذات الفضلات الزائدة .

وتقدر حاليا كمية الفضلات الناجمة عن محركات الطائرات ، عند الاقلاع والهبوط وفى وشنطن وحدها ، بخمسة وثلاثين طن يوميا . وهى اضافة لتاثيرها الضار المباشر تحوى عددا من السموم ، وتحجب نور الشمس، بسبب زيادة الغيوم التى نراها فى ذيل محركات الطائرة النفاثة . يتكون بخار الماء فى الجو بفعل المحرك النفاث ، بحيث أن كل طن من المحروقات فى الطائرة يكون ١ر٢٥ طن من الماء «بشكل بخار ماء» . (باتحاد الهيدروجين فى المحروقات مع الاوكسجين الهوائى) . وتتهم الطائرات بانها سبب فى زيادة الغيوم التى تغطى الارض ، وبذلك تنقص من الطاقة الشمسية الضرورية للحياة .

ويؤكد الطيارون فى الخطوط الدولية أن الاجواء واضحة كما كانت عليه قبل أعوام مثلا . ولا نزال نجهل

تاثير زيادة الغيوم فى زيادة الامطار او انقاصها لحرارة الارض بشكل عام .

محركات الطائرات والسيارات والمصانع تلقى فى الجو بكميات من السموم ، اهمها « كاربون مونوكسيد ، اكاسيد النتروجين والرصاص ، وعدد آخر من الهيدروكاربون» .

٢ ــ العنصر الثانى الاساسى فى الحياة العضوية (الأزوت) :

نقص الآزوت مرادف للفقر والبؤس ، ومعظم الاجزاء المكونة للابدان الحيوانية تحوى هذا العنصر البيولوجى الاساسى ، بشكل مركبات بروتينية وآنزيمات وهورمونات وفيتامينات وأسيد نوكلئيك . وهى العناصر المشرفة على النمو والتكاثر . وكلما ازداد عدد سكان الارض ازدادت حاجتهم للآزوت .

يمر الآزوت فى دائرة كيميوية يتحول فيها من النبات للحيوان ثم للنبات مرة ثانية ، والعامل الفعال فى هذه الدورة الجراثيم . فالآزوت الموجود فى الهواء الجوى نتيجة لنشاط الجراثيم ، والحياة النباتية مرتبطة فى بقائها بكمية الآزوت التى تستمدها من الارض ، ويستهدف التسميد زيادة مقدار الآزوت المتوفر ، بتنشيطه لجراثيم التخمر والتفسخ ، لاكمال الدائرة الكيميوية .

وعليه فان بقاء الحياة الحيوانية على الارض نتيجة عمل عدد من الجراثيم ، وهى فى الحد الادنى ستة انواع موجودة فى التراب والماء ، وهى أساسية لتكوين الآزوت الضرورى للتبادل بين الجو والارض ، ولتكوين المواد العضوية جميعا . فاذا توقفت احدى هذه الزمرالجرثومية عن عملها نتيجة القضاء عليها بالمبيدات الكيميوية ،وتلوث المياه ، فان نتيجة ذلك نقص النتروجين من الجو او يقوم مكانه «الامونيا» .

ورغم معرفتنا بهذه البديهيات فان المصانع تلقى بالمزيد من الكيميويات وفضلات الصناعات فى المياه . والقضاء على زمرة او زمر من هذه الجراثيم سوف يجعل الهواء غير قابل للتنفس .

ان معظم انهار العالم وحتى الكبيرة منها اصبحت مجارير للاقذار . وتلوث الانهار بالفضلات الانسانية قديم ، كانت مجارى المياه تنظف نفسها بشكل عام بحيث تصبح المواد العضوية فيها اغذية للحيوانات المائية الصغيرة والاسماك ، والنهر ينقى نفسه قبل ان يصل الى قرية اخرى . ونتيجة لتحول القرى الى مدن ، والزيادة الكبيرة فى استهلاك الماء واستعماله البيتى او الصناعى ، قلت مياه الانهار وتعاقبت المساكن ، بحيث اصبحت الانهار مجارير حقيقية . وتعالج مياه الانهار فى البلاد الصناعية لتطهيرها باضافة مزارع بعض الجراثيم ، لتحويل المواد العضوية فيها لنترات غير عضوية وفوسفات . والنترات والفوسفات المستعملة فى التسميد الزراعى مغذية للاشينات ــ ولكن الاشينات بحاجة لنور الشمس لتبقى حية ،فاذا زاد مقدارها اصبحت عائقا يمنع دخول نور الشمس خلال الماء ، وتموت نتيجة لذلك الطبقات العميقة من الاشنيات، ويصبح النهر ميتا لعدم امكان عيش الاحياء فيه ،وتتراكم فى قاعة طبقة كثيفة لونها بنى . والخلاصة يموت النهر ويصبح وسطا لاتعيش فيه الاحياء جميعا ، ومنها الاسماك، نتيجة لتلوث مياهه بكميات كبيرة من الفضلات العضوية ، او بسبب تلوثه بماء الصابون والكيميويات المختلفة المستعملة فى البيوت او فى الصناعة ، او نتيجة غسيل مياه الامطار والسيول للحقول ، والقائها بكمية من المبيدات للحشرات او للاعشاب ، وتقوم الجراثيم بتخريب مابقى حيا من الاشينات ، وتزيد بذلك من استهلاك الاوكسجين .

تطرح محركات السيارات كمية من الحوامض الازوتية فى الهواء . وكذلك تلاحظ زيادة فى كميتها فى الجو ايام رش المزروعات بالاسمدة . تقدر كمية الآزوت غير العضوى، المنتشر فى الهواء فى الولايات المتحدة ، بستة ملايين طن سنويا ، والمصدر الرئيسى لهذه المقادير الكبيرة محركات السيارات .

وتقدر زيادة استهلاك البنزين خلال الاعوام العشرة القادمة بـ ٥٠٪ عما هى عليه حاليا ، وزيادة استهلال المحروقات فى الطيران ، باربعة امثال ماهى عليه حاليا خلال السنوات العشر القادمة .

والمقدار الموجود من الحوامض الازوتية فى الجو حاليا لايزيد عن خمسة اجزاء فى المليون ، فاذا بلغت ٢٤ جزءا فان تاثير هذه الحوامض فى العضوية سام وخطير ، ويعادل فى تاثيره غازات الحروب وتحدث عندئذ آفات رئوية مخربة .

واذا لم تتجاوز هذه الاكاسيد الحد الاقصى ، فانها تخفف من قدرة الكريات الحمر على الاحتفاظ بالاوكسجين، والجسم الحيوانى غير مجهز بوسائل دفاعية تجاه هذا التسمم الخطير .

يؤكد بعضهم بان بعض المركبات الآزوتية المسرطنة قد تتكون اشتقاقا من اكاسيد الآزوت المشار اليها . وعليه فقد نضطر فى المستقبل غير البعيد لتحديد استعمال الاسمدة الكيميوية ، وسوف ينجم عن ذلك وضع اقتصادى غذائى خطير . فان الركيزة الاساسية لزيادة المحاصيل الزراعية



حاليا ، الاستعمال الواسع لمختلف انواع الاسمدة وخاصة الازوتية منها .

٢ ـ مشكلة المياه العذبة والضرورية للحياة مطروحة وبشكل خاص فى البلاد الصناعية :

وتتعرض مياه الأنهار والبحار للتلوث من الارض ومن الجو كذلك ، وحتى المياه الجوفيه اصبحت فى كثير من بقاع العالم ملوثة وغير صالحة للشرب .

فى السنوات التى تقل فيها الأمطار تعانى مدينة نيويورك ومدن كاليفورنيا وهونغ كونغ والمانيا مشـاكل خطيرة لتامين المياه الصالحة للاستعمال . وتخطط مدينة هامبورج لجر المياه اللازمة لها من السويد .

لقد تضاعف استهلاك الماء بالنسبة للفرد من السكان خلال الاعوام العشرة الماضية . ويقدر الخبراء بان استهلاك الماء يتضاعف كل عشر سنوات . وزيادة استهلاك المياه مرتبط بارتفاع مستوى العيش والوعى الصحى ، والاستهلاك الصناعى . ويقدر استهلاك الفرد يوميا ب ٢٠٠ ـ ٣٠٠ لتر ، ويتضاعف الرقم اذا حسبت حاجات الصناعة .

ان كمية المياه العذبة الموجودة على الارض لا تزيد عن ٣٪ من كمية المياه الارضية جميعا ، « المياه المالحة ٩٧٪ » والقسم الاعظم من هذه المياه العـذبة «٣٪» هى كتل الجليد فى القطبين ، وهى مجمدة لايمكن ان نسـتفيد من استعمالها . وتقدر المياه العذبة المتوفرة للاستعمال ب ٥٠٠ الف كيلو متر مكعب ، ٣٥٠ منها فـوق الارض والباقية ١٥٠ الف كيلو متر مكعب فى باطن الارض ، و ١٣ الف كيلو متر مكعب موجودة فى الجـو « بخار المـاء » . وبالاضافة الى ان كميات المياه العذبة محدودة فانها موزعة بشكل غير عادل .

تتعرض المياه السطحية للتلوث وتنقيتها من المركبات الكيميوية والجراثيم باهظة التكاليف . ويستخرج الانسان المياه الجوفية ، ومعظمها مختزنة فى الارض منـذ عهود جيولوجية قديمة ، وقد تلوثت بعض تجمعاتها ايضـا بتسرب المياه السطحية الملوثة اليها ، او هى غير صالحة للاستعمال لانحلال املاح من الصخور فيها .

مياه حوض السين ملوثة وغير صالحة للاستعمال المنزلى ، وكذلك تؤكد الدراسة تلوث المياه الجوفية بالمبيدات والكيميويات فى الولايات المتحدة .

وتتلوث المياه وهى لاتزال بشكل بخار الماء فى الغيوم حيث تتعرض للتلوث بالكيميويات «ثبت وجود مادة D.D.T. ، والرصاص الناجم عن المحروقات ، على ارتفاع ستة آلاف متر فوق الارض» . وكذلك ثبت وجود الرماد الذرى فى الاجواء العليا بعد التفجير النووى الحرارى فى الصين علم ١٩٧٠ ، وهطلت أمطار فى اليابان تحوى هذا الغبار ، واثبتت العينات المأخوذة من الجو دوران بقايا هذا التفجير ثلاث مرات حول الارض .

ويتم تلويث الانسان للانهار والمحيطات بالوف المواد ذات التأثير البيولوجى غير المحدد حتى الآن . ويشمل ذلك المنتجات البترولية ، وفضلات معامل الكيمياء والمعادن ، ومركبات التنظيف الجاف ، وفضلات مشعة ؛ وغازات الحرب الكيميوية ، ومبيدات الحشرات والاعشاب ، وغيرها مئات أو الوف من المركبات المختلفة .

وكل شيء سائل نلقى به الى الارض يصل الى الانهار ومنها الى المحيطات . وكذلك فان مانلقى به فى الجو يعود ويسقط على البحار كذلك . ويقدر عدد انواع المواد المختلفة التى تسقط نتيجة لتسربها الى الماء والهواء بنصف مليون مركب كيميوى لانعلم على التحقيق تاثيراتها البعيدة .

والمشكلة الكبرى التى تواجهها المدن الصناعية الضخمة الفضلات والنفايات التى تزداد بشكل لولبى نتيجة ارتفاع الاستهلاك والانتاج .

فقد رمى الامريكيون فى العام الماضى بخمسين بليون علبة تنك فارغة للكونسروم وثلاثين بليون زجاجة فارغة ، واربعة ملايين طن من المواد البلاستيكية حتى السيارات العتيقة والمتروكة فى الشوارع والغابات او المفروشات العتيقة كلها مشاكل بالغة التعقيد . ومعظم هذه الفضلات غير قابلة للاشتعال او التفسخ او اعادة الاستعمال كما ان جمعها كذلك غير اقتصادى .

وقد ذكر «هايردال» فى رحلته الاخيرة على المركب الفرعونى ، مابين افريقيا وامريكا ، بانه لم يتمكن ورفاقه من استعمال مياه المحيط فى تنظيف أسنانهم ، رغم وجودها على بعد عدة مئات الاميال من الشواطىء ، وان بقايا الزيوت والفوارغ السابحة على سطح المياه موجودة فى كل ارجاء المحيط .

وقد تكون المنتجات البترولية الشحمية اخطر المركبات الملوثة لمياه المحيطات ، لانها تبقى سابحة على السطح ولاتتمكن الجراثيم من تحليلها وتخريبها . تكون طبقة الزيوت ، مهما كانت رقيقة ، دريئة تمنع النور والهواء من تماس سطح المياه ، وتمنع التبخر ، وتصبح المنطقة المستورة بهذه الزيوت غير صالحة لجميع أنواع الحياة فيها . وتلقى البواخر وخاصة حاملات البترول عند غسيلها او افراغها بكميات كبيرة من الزفت ومنتجات البترول فى عرض المحيط ، أو عند انفجارها أو اصطدامها .

تقدر كمية الزيوت المعدنية التى تلقى فى البحار سنويا بثلاثة ملايين طن ، وقد تبلغ اذا استمرت نسب الزيادة الحالية ، حتى الاعوام العشرة القادمة ، عشرة ملايين طن . هذا دون حساب الزيوت المنتشرة فى المحيطات نتيجة الحوادث ، وكذلك دون حساب تسرب الزيوت من الآبار التى تحفر فى البحار للبحث عن الزيوت .

٤ ـ تتضافر عوامل عديدة لتسبب اخطارا على الحياة فى منطقة او على المستوى الارضى :

معظم الانهار العالمية مهددة بالموت البيولوجى اى عدم امكان عيش الاحياء فيها ، نتيجة لموت الاحياء الدقيقة بفعل عوامل التعكر وقلة كمية المياه ، وزيادة كبيرة فى انصباب الفضلات عليها ، او بتاثير السموم «مبيدات الاعشاب ، مبيدات الحشرات ، الاسمدة» المرتشحة من الارض الزراعية او التى تحمل نفايات الصناعات الكيميوية . وهكذا فقد لوحظ فناء خمسين نوعا من الاسماك فى حوض السين الادنى «كما حدث فى «الرور» عام ١٩٦٩ حيث مات مئات الملايين من السمك نتيجة افراغ احد المصانع فضلا كيميوية» . واحيانا يحدث موت الاحياء المائية بانصباب مياه ساخنة فقط فى مجرى النهر الذى قلت مياهه نتيجة زيادة الاستهلاك .

والامر الخطر فى موضوع التاثيرات السمية للمواد الكيميوية ان هذه التاثيرات لاتكتشف الا متاخرا اى بعد مرور عشرات السنين ، ومثال ذلك مركب D.T.D. ومشتقاته .

فى عام ١٨٧٤ اكتشف فى المانيا هذا المركب الكيميوى ولم تعرف خواصه القاتلة للحشرات الا عام ١٩٣٨ وكان تاثيره كبيرا جدا فى كفاح الملاريا والقضاء عليها فى عدد من بلاد العالم .

هذا المركب يبقى فعالا لمدة طويلة بعد استعماله ، وينتقل دون تبدل من النبات الى الانهار والمحيطات ، ومنها الى الأسماك والطيور والحيوانات الاخرى ومنها الانسان .

لقد اكتشف وجود D.D.T. فى ادهان طير البطريق القطبى penguin واسود البحر phoque ولم يستعمل هذا المركب اطلاقا فى المناطق القطبية غير الصالحة للزراعة اصلا . تتراكم كميات هذه المركبات فى ادهان الاسماك الكبيرة نتيجة تغذيتها بالاسماك الصغيرة ومنها للحيوانات القطبية التى تتغذى بالاسماك .

وتاخذ الامطار الهاطلة من الجو ومن الارض كميات

من هذه المركبات ، وتلقى بها الى الانهار والبحار ،تحتفظ البلانكتون بهذه المركبات وتتغذى عليها الاسماك . تحوى الاسماك الصغيرة فى البحار على عشرة اجـزاء فى المليون منها ، فاذا ابتلعتها الاسماك الكبيرة بلغ تكثفها ١٠٠ جزء ، واذا اكلها الانسان بلغ التكثيف ١٠٠٠ جزء من المليون .

هذه المركبات لاجمة لنقل السيالة العصبية ، واذا حدث التحام بينها وبين النورونات حدث ارتباك عقلى واهلاس وفقد الذاكرة ، ونوب هـذيان . وقـد يسبب D.D.T حالة جنون تام تجريبيا عند الحيوان .

وكذلك يؤثر D.T.D. ومشتقاته فى تكوين انزيمات كبدية تشرف على تكوين الاوستروجين – التناسلية . وتؤكد المشاهدات كيف ان بيض بعض الطيور يصبح غير قابل للانتاش اذا كانت كمية هذا المركب فى عضوية الام فى حدود سمية .

اجريت كذلك دراسات فى كلية طب «ميامى – الولايات المتحدة» فتبين منها ان انسجة الاشخاص الذين ماتوا بالسرطان تحوى كمية من الـ D.T.D. تبلغ ضعف مقدار مايوجد منه فى انسجة اشخاص ماتوا بالحوادث .

وتؤكد دراسات اخرى وجود D.D.T. فى ابدان الامريكيين بشكل عام بمقدار ١٠ اجزاء فى المليون ، بينما لاتزيد كميته فى بريطانيا عن خمسة اجزاء ، وفى السويد سبعة اجزاء ، ويرتفع الرقم فى اسرائيل الى ١٩ جزء ويبلغ فى الهند ٢٩ جزءا ، حيث يستعمل الـ D.D.T. بشكل واسع جدا .

وكادت حملة كفاح الملاريا فى ماليزيا ان تؤدى لظهور وباء بالطاعون . فبعد تنظيم رش البيوت بالمبيدات لقتل البعوض والصراصير ، لوحظ موت متزايد فى بعض انواع الزواحف ، نتيجة اكلها للحشرات المسممة بالـ D.D.T او مشتقاته . وكذلك نقص عدد القطط التى تاكل هـذه الزواحف ، وانتهى ذلك بزيادة عدد الجرذان ، وقـد تخلصت من اخطار القطط ، وازداد عدد البراغيث المحمولة فى فروة الجرذان ، وازدادت حوادث الطاعون المستوطن . وبادر خبراء منظمة الصحة المشرفين على كفاح الملاريا لاستيراد القطط والقائها فى الاماكن المهددة بالوباء .

كذلك تعرضت سقوف اكواخ سكان القرى للانهيار نتيجة كفاح الملاريا . فقد تكاثرت بشدة دودة صغيرة تتغذى باوراق الاغصان المستعملة فى سقوف هذه الاكواخ . ازداد عددها نتيجة موت الدبابير وما اليها برش الـ D.D.T. ، وهى تاكل هذه الدودة وكذلك تفعل الصراصير .

ان هذه الاخطار غير المنتظرة ، لمواد كيميوية كنا نعتبرها حتى عهد قريب بين اروع منجزات العلم والتقنية ، هى اخطار لم تلاحظ الا بعد استعمال امتد ربع قرن .

وعليه فانا لا نزال نجهل الآثار الجانبية والاخطار التى يمكن ان يتعرض لها الانسان الذى يعيش فى اجواء ملوثة ، ويشرب مياه غير نقية او ياكل لحوم حيوانات تتغذى بسموم ، او تستعمل فى تغذيتها الصادات والهورمونات لزيادة نموها ، وقد تكون جميعها خطرة النتائج .

وفى معظم بلاد العالم تراقب اللحوم فى المسالخ للكشف عن الصادات antibiotiques والهورمونات الموجودة فيها . خاصة وان مربى الابقـار والدجـاج والاسـماك يستعمل المزيد من هذه المركبات لزيادة الوزن وكفاح الامراض وقائيا او علاجيا . وكل ذلك قد يعـرض الانسان لاخطار قد تكون كبيرة .

وقد منع مؤخرا فى كل من الاتحـاد السوفياتى والسويد ونيوزيلندا استعمال D.T.D. ، وتبذل جهود لمنع انتاجه واستعماله فى بلاد صناعية اخرى من العالم .

– يستعمل الاميـانت فى كثير من الادوات المنزلية « عوازل حرارية » ، ويستعمل لتنقية البيرة وفى عاصرات الفواكه وفى المخابر الصيدلانية وفى بعض الالبسة وفى قطع من السيارات والطائرات . فى عام ١٧٨٩ اكتشف الاميانت فى كويبك وفى عام ١٨٩٠ انشىء اول مصنع لخيوطه فى فرنسا ومات خمسون من عماله خلال الاعوام الخمسة الاولى من الانتاج .

ونشرت فى حينه ابحاث عن المرض الرئوى ، واعتبر الاميانت مسؤولا عن الاصابات الرئوية المميتة .

لقد ارتفع استهلاك الاميانت من ٣٠ الف طن عام ١٩١٠ ليبلغ اربعة ملايين طن سنويا عام ١٩٦٨ ، وتاكد ان عمال الاميانت معرضون للاصابة بالسرطان الرئوى ، بنسبة احد عشر ضعفا من احتمالات اصابة غيرهم بهذا الشكل من السرطان .

ثم اكتشف فى جنوبى افريقيا وجود ذرات الاميانت فى الاصابات السرطانية «الجنب ، الرئة ، البريطوان» وعند اشخاص لم يعملوا اطلاقا فى مصانع الاميانت . وثبت وجود ذراته فى الجو ، وان كل انسان معرض للاصابة ، نتيجة وجود الاميانت فى كل سيارة مجهزة «بالكوابح ، الدبرياج .. الخ» وانها تنشر ذراته عند كل حركة . ذراته المستنشقة لاتتبدل ولاتنحل . ويعتبر الاميانت عاملا مسرطنا ينافس الدخان . ولم تقم الحكومات باية اجراءات لمنع الاضرار الناجمة عن استعمال الاميانت فى الصـناعة والمنازل ، ولا يزال يستعمل هذا المركب فى ترشيح البيرة والمشروبات غير الكحولية ، وفى بعض المساحيق على الجروح وفى صنع الثلج الصناعى ، وفى تركيب بعض اللدائن فى المـدارس للتعليم .

– الرصاص معدن خطر حتى ولو اهملنا من حساب

ضحاياه صرعى البنادق والمتفجرات ، الطرائد التى تصاب ببعض الخرادق ، دون أن تقتلها فورا ، معرضة للموت بالتسمم الرصاصى . بعض المستنقعات والبرك التى يكثر عليها صيد البط تحوى مياهها كمية من الرصاص ، بحيث تتعرض الطيور التى تعيش عليها للتسمم به .

لقد بلغ انتاج الرصاص فى السنوات الاخيرة اربعة ملايين طن سنويا وهو انتاج يبلغ اربعين مرة ما كان عليه انتاج الرصاص قبل نصف قرن . والخطر الرصاصى الذى يهدد الحياة الانسانية ، لاينجم عن استعمالات الرصاص فى المنازل والصناعة ، بل الرصاص الذى تنفثه السيارات منذ بدأ استعمال مركباته فى البنزين plomb tetra ethyle عام ١٩٢٣ لزيادة احتراقه .

ويكشف وجود الرصاص فى أجواء بعيدة جدا عن الارض فى وسط المحيطات . بينما تبلغ كثافته فوق المدن الكبيرة عشرة آلاف مرة من مقداره العادى فى الهواء البعيد عن المدن . يحوى جسم الانسان البدائى على ميلغرامين من الرصاص فى عظامه ، ويبلغ مقدار الرصاص حاليا فى عظام كل ساكن مدينة على الارض مابين ٥٠ ـ ١٠٠ ضعف هذا المقدار . وهى مقادير تبلغ ثلث مايعتبر كمية سامة من الرصاص .

ـ استعملت مركبات الزئبق منذ نصف قرن لحفظ الحبوب ومنع تعرضها للعفن ، وكذلك استعملت المركبات الزئبقية فى صناعة الورق والبلاستيك . تبين بعد ذلك أن بعض أنواع الطيور البرية فى السويد قد انقرضت ، نتيجة أكلها لهذه البذور ، وكذلك كشف البحث عن وجود الزئبق فى الاسماك والطيور فى كندا .

وقد مات مئة من اليابانيين نتيجة أكلهم لاسماك تتغذى فى منطقة يوجد فيها مصنع للبلاستيك .

وتتعرض الآثار الفنية الرائعة فى جميع عواصم العالم للتآكل بتأثير أكاسيد الكبريت الناجمة عن دخان الصناعة . حيث تمتزج هذه الاكاسيد بمياه الامطار وتؤلف حامض الكبريت وتذوب تدريجيا بالتآكل .

ـ ومشكلة تلوث الاجواء بالمواد المشعة خطر يهدد الحياة الحيوانية على الارض . ولن أعرض لبحث نتائج حرب حرارية نووية thermo-nucléaire ، وهى أخطار قائمة فى كل لحظة ومعروفة النتائج ، ولكنى سوف أشير فقط الى أخطار الاسلحة البيولوجية والغازات السامة المخزونة والمواد المشعة المختزنة أيضا . وهى جميعها مدفونة فى باطن الارض ، أو تتخلص منها الحكومات أحيانا بالقائها فى قاع البحار . ومهما كانت الاحتياطات شديدة لعدم تفجرها فليس بامكان أى عالم أن يؤكد سلامة هذه الاجراءات على المدى الزمنى الطويل .

تعمد السلطات المختصة لتبريد الاوعية الحاوية على المواد المشعة ، لانها فعالة وناشرة للحرارة بشكل دائمى ، وكذلك لابد من تبديل هذه الاوعية التى تتآكل من حين لآخر ، خوف تشققها أو تسرب مافيها الى الجو . وقد حدثت تسربات للاشعاع مرتين فى عام ١٩٧٠ فى الولايات المتحدة ، وقتلت عددا من الماشية وطمست نتائج التحقيق .

٥ ـ انخفاض حرارة الارض :

لقد اختلف المناخ الارضى خلال تاريخ هذا الكوكب، وقبل وجود الانسان وبعد ذلك ، وتعاقبت فترات من الصقيع أعقبتها فترات من ارتفاع الحرارة . وتؤكد دراسات دقيقة ومنذ مطلع هذا القرن ازدياد حرارة الارض وبشكل تدريجى .

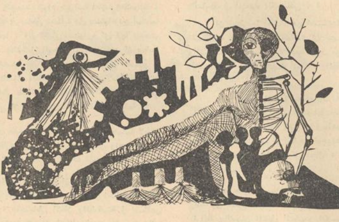
ففى مدينة سبتسبرج « شمالى النرويج ، وتقع على عشرة درجات من القطب الشمالى» ارتفعت فيها الحرارة الوسطية للشتاء منذ عام ١٩١٠ ـ ١٩٤٨ بمقدار خمسة عشر سنتيمتر ، نتيجة ذوبان متزايد فى جبال الثلج . ويعادل هذا الارتفاع وتسارعه أربعة أمثال متوسط ماتم خلال تسعة آلاف عام ، أى منذ نهاية العهد الجليدى الاخير .

يقول الفيزيائى Tyndall بأن ارتفاع الحرارة على الارض نتيجة لزيادة غاز الفحم فى الجو . ومن خواص غاز الفحم امتصاص الموجات الطويلة من الاشعاعات الحرارية ، أى كما يفعل الزجاج فى بيوت الزجاج المستعملة فى الزراعة . ونتيجة لتبدل كثافة غاز الفحم حدثت تبدلات فى حرارة الارض . وتؤكد دراسات السنة الجيوفيزيائية الدولية زيادة فى غاز الفحم فى جو الارض ، بمقدار خمسة مليارات طن ، بسبب احتراق مفرط للفحم والبترول .

ونتيجة لزيادة حرارة المرافئ القطبية ، والتى لم تكن صالحة للملاحة الا فترة ثلاثة شهور فى السنة فقط منذ خمسين عاما ، أصبحت هذه المرافئ صالحة للملاحة فترة سبعة شهور . وقد تصبح صالحة للملاحة طيلة العام مع نهاية القرن الحالى ، واذا استمر ارتفاع الحرارة فقد يصبح المحيط القطبى صالحا للملاحة .

ونتيجة لذلك فسوف ينحسر الصقيع من آلاسكا وسيبيريا وتنمو الاشجار فيها ، وتصبح أرضها مراعى صالحة لتكاثر قطعان الماشية .

رغم هذه التوقعات والتنبؤات فقد انقلبت الاوضاع بشكل مفاجئ وغير منتظر ، ازدادت كتل الجليد فى المنطقة القطبية الشمالية عام ١٩٦٩ وتجاوزت ما كانت عليه قبل



ستين عاما . ومنذ عام ١٩٦٥ منع الجليد استعمال المرافىء الشمالية لايسلندا واستحال الصيد فيها ، وازداد الوضع سوءا فى الاعوام ١٩٦٨ و ١٩٦٩ .

يلاحظ الطيارون على الخطوط العالمية تزايد الضباب الازرق المعلق وعلى ارتفاع يبلغ ٦٠٠٠ – ٧٠٠٠ متر فوق الارض . سبب هذا الضباب احراق الاعشاب والغابات ، واحتراقات الاستعمالات المنزلية ، كذلك بسبب الغبار الذى تثيره الرياح فى المناطق التى لاتغطيها النباتات . ويمنع هذا الضباب وصول أشعة الشمس ويعكسها للفضاء الخارجى ، ونتيجة لذلك فانه يقلل من كمية الحرارة على الارض . وتشمل كتلة الضباب الزرقاء البرازيل وأواسط افريقيا أى المناطق الحراجية الكثيفة وغير الصناعية .

وينتشر من منطقة الخليج العربى حيث تكثر آبار البترول ، وحيث تشتعل غازاتهـا ، طبقة من الضباب تتجه نحو الشرق وتصل حتى البر الصينى . يضاف الى ذلك غازات احتراق السيارات والطائرات وهى ترمى بمحاصيل احتراقها فى الأجواء العليا . واذا قدرنا بان ٣٠٠٠ طائرة تخترق أجواء الارض يوميا بشكل وسطى ، وان نصف هذا العدد يترك وراءه سحابة من الدخان ، وان هذا الدخان يبقى لمدة ساعتين بعد مرور الطائرة ، ويمتد ٨٠٠ متر ، فان نتيجة ذلك زيادة فى فضلات الاحتراق وتكوين الضباب ، يبلغ فوق الاطلسى نسبة تتراوح بين ٥ – ١٠ ٪ باضافة للاسباب الاخرى المذكورة أعلاه .

واحتمالات تلوث الاجواء بدخان الاحتراق أكبر بكثير فى عهد الطيران فوق الصوتى . فان هذه الطائرات تترك سحابة وراءها تستمر ساعات طويلة ، وتمتد لكيلومترين على الاقل .

ان الطبقة الضبابية فوق الاطلس هى أكثف ١٠٪ مما كانت عليه قبل عشرين عاما . وقد يعرض الطيران فوق الصوتى اجواء أوروبا وأمريكا لتكون طبقة من الغيوم مستمرة وكثيفة .

والسؤال المطروح هو هل يخرب الانسان بمحروقاته وطائراته وغباره أجواء الارض ، فيحجب أشعة الشمس ويخفض حرارتها بشكل مستمر ؟ ! ان ذلك ممكن خاصة اذا علمنا بأن نقص الشفوف فى الاجواء بنسبة ٣ – ٤ ٪ فقط يؤدى لانخفاض الحرارة على سطح الارض بمقدار ٤ر. درجة مئوية .

لقد قام عالم فيزيائى بريطانى بدراسة تؤكد بان ما تتعرض له الارض من احتمالات زيادة حرارتها ، نتيجة لزيادة غاز الفحم ، وما تتعرض له من برودة ، نتيجة الضباب الجوى سوف يؤدى لنقص فى الحرارة يبلغ اربعة درجات مئوية عام ١٩٧٥ ، وخمسة درجات عام ١٩٧٧ ،

بحيث يمكن أن يبدأ عصر جليدى جديد حوالى عام ١٩٨٠ .

فقد بدأ العصر الجليدى الاخير بانخفاض الحرارة بمقدار ٥ ـ ٨ درجات تحت المعدل الوسطى عند بدء العصر الجليدى الاخير، وتجمدت أنواع حيوانية عديدة «الماموث» ، حيث وجدت جثثها فى مناطق شمالية وفى معدتها وبين أسنانها أعشاب لم تهضمها ، ولم تكمل مضغها ، أى انها تجمدت بشكل مفاجىء . والتعليل الوحيد لهذه المشاهد أن صقيعا وعاصفة ثلجية قاسية طمرتها ، دون أن يزول الصقيع فى الصيف التالى للشتاء البالغ القسوة . وبالامكان اذن ان يحدث تبدل مناخى فجائى وبالغ الشدة ، وعليه فان من الجائز أن تتعرض الارض لتبدلات مناخية غير متوقعة .

مرة أخرى هذه خطوط عريضة لمشاكل حياتية لايمكن التفصيل فى أخطارها وحلولها فى مجال مقال واحد ، وهى تشمل عددا من العلوم والاختصاصات العديدة .

والامر الخطير حاليا هو أن التلاؤم والتطابق واعادة التوازن الذى تم خلال الثورة الصناعية على اختلاف مراحلها مهدد بالانكسار ، واحتياطى الامان والطمانينة فى تناقص سريع . خاصة وان معظم بلاد العالم تخرج مباشرة من تفكير وسلوك متواكل قدرى كسول ، لتواجه أخطار الصناعة وهى عاجزة فكريا وماديا عن ادراك أو اتخاذ أساليب الوقاية والتحرك لدفع تهديد جدى للجنس البشرى .

واخيرا لقد حذر الكثيرون ممن كتبوا عن تصوراتهم وتنبؤاتهم عن مستقبل البشر فى عصر التقنية ومن النتائج التى نرى بوادرها فى الافق القريب ، حيث يصبح الانسان شبحا لمخلوق يائس وعاجز يركض لاهثا وراء المزيد من الاستهلاك والمزيد من الانتاج .

فهل ستكون صورة الفردوس الارضى عالم جميع انهاره قذرة ، مياهها سامة لا يمكن أن تشرب أو تسبح بها ، سماؤه ضباب طيلة أيام السنة ، يعيش البشر فيه وكأنهم دجاجات فى أقفاص مزرعة فنية ، يقدم لهم الطعام فى الليل وفى النهار ، وفى ضوء الاشعة البنفسجية ، ليزداد انتاجهم وفى حدود اقتصادية ومربحة دائما ؟!

تؤكد دروس التاريخ بأن الانسان قصير البصر لا يرى الاخطار البعيدة . والاشخاص الذين يصرخون منبهين ومحذرين ، تضيع أصواتهم وسط صخب وضجيج الرابحين والدافعين لعجلة الحركة المتسارعة ، والاكثرية الساحقة غائبة عن الصورة .

ان موازين الارض الواحدة التى نعيش عليها مهددة بشكل خطير بالانكسار ، وفى محاور عديدة . ومواجهة هذه الاخطار مسئولية الانسان فى كل مكان فلا عزله لاى مجتمع ولا حماية لاى فرد وراء الصحارى أو المحيطات .

والسؤال أخيرا هو هل يسيطر الانسان أو هو فى طريقه للسيطرة النهائية على الطبيعة ، أم أن هذه اللعبة الخطيرة بين الانسان العاقل وبين البيئة التى وجد عليها ستنتهى بكارثة حقيقية تهدد هذا الكوكب ومن عليه بالفناء والدمار، أو بأن يعود كوكبا ميتا كما هى عليه آلاف الكواكب السابحة فى الفضاء اللامتناهى ؟ !

ان أخطر ما أخشاه من استنتاجات ، بعد هذه التساؤلات والصور المتشائمة ، ان يجد فيه المتخاذلون والكسالى الحالمون ، حجة تبرر موقف اللامبالاة أو الشماتة ، بل وتمجيد التخلف والفقر مع صفاء الجو والنفس والماء !!

على هؤلاء الذين يدافعون عن مواقع التخلف والبؤس ، أن يتأكدوا بأن الحضارة التقنية السائدة فى العالم ، تتقدم مكتسحة لاجوائهم ومياههم وأرضهم ، ولن توقف مسيرتها دعواتهم أو انكارهم لوجودها . وسوف تفرض عليهم فضلاتها وتلوثها وفى كل مجال ، وتختنق ويختنقون معها فى مصير واحد .

لقد حقق الانسان ولا شك بالعلم والتقنية منجزات رائعة وفى جميع المجالات . وتبقى السماء الصافية والانهار الرائعة والانسان التامل المتخدر الكسول ، هى صور متممة للمجاعة والاوبئة والكوارث .

وبقاء العشوائية سائدة فى العالم ، ودعوى أرباب الصناعات فى العالم المتطور ، بانهم يعملون لمصلحة مجتمعاتهم ، وضمن حدودها الوطنية ، لا يجوز اطلاقا ان يكون مبررا ومستندا صحيحا للتستر على الاخطار الكبيرة التى تهدد الجنس البشرى ، وزيادة الدخل والرفاهية والتبذير عند جماعة من البشر ، لا يجوز أن يكون على حساب اختناق الآخرين بفضلات ما ينتجون .

ان كل أمريكى شمالى يلوث الهواء والمحيطات بنسبة ألف ضعف مما يفعله الآسيوى ، ذلك انه يستهلك من الطاقة للانتاج والاستهلاك ألف ضعف مما يستهلك المتخلفون .

ويتمتع الامريكى بخدمة ألف عبد ينتجون لاستهلاكه ورفاهه .

ترتفع بسرعة أرقام مخصصات « مكافحة التلوث » فى الولايات المتحدة « فى عام ١٩٦٩ قدر الانفاق بخمسة مليون دولار ، وتبلغ تقديرات الانفاق لعام ١٩٧١ بثلاثة مليارات ونصف » . وسوف يخفف هذا الانفاق السخى من آثار التلوث فى الحدود الوطنية .

ويقضى التطور العلمى التقنى ، فى مراحله الفضائية الحالية ، بأن ينظر كل انسان ، ومن أى وطن كان ، للجنس البشرى ، بل للكرة الارضية وما عليها من حياة حيوانية ونباتية ، كارث مشترك وأرض واحدة ، كرة صغيرة تدور فى الفلك الواسع ، تماما كما رآها رواد الفضاء نجمة بين الوف الكواكب ، فيها مسكن الانسان ولا حياة له الا عليها .

مطاردون

حول معرض الفنان « مروان »

د. ناجي نجيب

« الانسان الذى يصوره مروان هو انسان مطاردة وملاحق ، « ومن يتأمل شخوص مروان يحس أن المطاردين بدورهم يطاردونه » • بهذه العبارة يصف أحد النقاد انطباعه بعد مشاهدة اللوحات الجديدة للرسام السورى ، مروان قصاب باشى ، المعروضة حاليا « بجاليرى ليتسو » ببرلين • بعد عزلة طويلة وعمل دائب بعيدا عن الأضواء خرج مروان بنتاجه الجديد فى هذا المعرض ، الذى لا نغالى ان قلنا ـ أو كما يقول النقد دون استثناء ـ أنه « مفاجأة مثيرة » •

ومروان من مواليد دمشق عام ١٩٣٤ ، درس الأدب العربى فى جامعة دمشق لفترة • ثم انتقل الى برلين عام ١٩٥٨ حيث درس فن الرسم فى معهد الفنون التشكيلية واشترك فى عدة معارض فى دمشق وبيروت وبرلين • وفاز عام ١٩٥٦ بجائزة الدولة للنحت فى معرض الخريف بدمشق وعام ١٩٦٦ بجائزة « كارل هوفر » •

ومروان رسام شخوص • فى لوحاته يصور شخصا وحيدا أو شخصين فى فراغ لا متناهى أو كاللامتناهى : «الشخص فى لوحته يبدو كالمسلة أو الأهرام فى صحراء مصر • وأنت حين ترسل بصرك الى الصحراء تحس أنك مع نفسك فى هذا المنظر ، وحيدا مع فكرك، وحيدا مع حبك ومع كل ماتعانيه • قد ترى بعيدا شيئا يلوح لك •• قد ترى انسانا أو شجرة أو جملا •• وبشكل غير مباشر ينعكس ذلك على اللوحة •• فتبدو كالفراغ اللامتناهى • • وبعد ذلك تجد وجه انسان أو جسد انسان فى هذا الفراغ•• ولكن أيضا الانسان فى اللوحة هو تعبير عن المنظر بأكمله •• عن الشجرة وعن الجبل وعن الرمال ••• »

فمروان يتأمل الانسان على اللوحة وكجزء من اللوحة• ويعيد بناء الانسان لا كما يبدو فى الظاهر وانما كما يراه من الداخل • وكأنما مادة هذا الانسان الذى يصوره هى التوتر وانعدام الأمان (وأحيانا أخرى كما لو كانت خامته هى اللهب والعنف والكبرياء ، ويبدو ذلك بوضوح فى اللوحات التى استوحاها مروان من حركة الأشبال والفدائيين ، حيث يحتل جسم الانسان مساحة ضخمة من اللوحة ، كما لو كان هذا الجسم كتلة من التضاريس والجبال) •

وليست صور مروان كنايات لشىء ما ، بل هى هى الانسان فى صمته وفى رفضه أو فى غضبه الصامت • هذا الانسان يقول لنا شيئا • فهو انسان له قصة ، ولكنه لا يبوح لنا بهذه القصة•

ربما ليس فى مقدوره أو ليس من طبعه أن يقص لنا القصة كاملة أو أنه لا يعرف لغة « لماذا ولذا ولأن » ، أو أن الحياء يدفعه الى ضغط القصة فى أعماقه . وعلى الرغم من ذلك فهو حاضر أمامنا حاملا معه القصة . هو حاضر ولكنه لايريد التحدث عن « الأنا » ولا يريد الخروج من مجهوليته ... ومروان يحجب عنا فى بعض لوحاته أوجه الشخوص يسترها « بمنديل » أو محرمة ، ويشير بذلك الى نزعة هذا الانسان الذى يصوره الى المجهولية والتستر . وفكرة المجهولية مستوحاة أصلا من التاريخ العربى ومن ميل الانسان العربى الى تجنب الاضواء ومن طبيعة نظرته الى الاسرة واحساسه بها ... كما أن ظهور حركة المقاومة وحركة الفدائيين قد بلورت عند مروان احساسه بفكرة المجهولية ـ باعتبار أن الفدائى لا يمثل نفسه ولا يقاتل من أجل مصلحته الذاتية وانما يمثل المجموع ... والفدائية تعيش كفكرة مجموع ...

ويعلق مروان على فكرة المجهولية التى نلمسها فى صوره فيقول : « ربما كان فى لوحاتى بعض الشطحات الصوفية رغم واقعيتها ، ولعل بها شىء من سحر بيوتنا العربية .. شىء جاءنى على أية حال من العالم العربى » .

ومن وسائل التعبير فى لوحات مروان هى الايماءات وحنيات الجسم ، نظرات العين وحركة الفم والأنف وتقلصات الوجه ، انفراجه وانكماشه ثم حركة الأيدى والأذرع التى هى أهم وسائل التعبير عند هذا الفنان ، حتى أنه فى احدى لوحاته لايكتفى بيدين للانسان وانما يصوره بثلاث أيدى . « فالانسان ـ كما يقول مروان ـ يعيش بيديه ، ويبنى حياته بيديه ، وفى اليدين تتجمع جميع الحساسيات » .

فى اللوحة التى تحمل عنوان « الضم » أو « العناق » نرى فتاة صغيرة تشب على طرفيها وترتفع بجسمها الى رجل منتصب ، محاولة أن تحتمى به أو تختفى فيه ، بينما ذراع الرجل اليسرى فى حركة التفاف حولها وأصابع يده اليمنى تلامسها فى رفق .. فحركة الرجل حركة استجابة طبيعية لما يحرك الفتاة اليه ولكنها أيضا حركة تساؤل واحساس بشىء مايواجهه كما يواجه الفتاة ..

وفى لوحة « المضطجع » لا نرى الا الرأس



« العناق » أو « الضم »



« المضطجع »

والذراع الذى يمتد من تحت الغطاء المنبسط فوق جسد الرجل . ويمتد هذا الذراع ليلمس حذاء نسائيا . والجسد المضطجع خلف الغطاء يبدو ككتلة ، كوحدة تامة لا كمجموعة من الأعضاء ، وهذه الكتلة تكشف عن قصتها فى حركة الذراع الذى يتلمس الحذاء أو يتلمس الذكرى . ويعيش مع « الفتش » Petich

وفى لوحة « الساق » نشاهد ساق امرأة ، يلتف حول رأس رجل . وفى « الركبة » تبرز من خلف صورة الرجل المواقف ركبة لامرأة . وفى أكثر من لوحة نرى أصابع يد غريبة تمتد الى تجويف عين الرأس ، الذى يحتل صدر الصورة.. هذه الأعضاء المبتورة أو هذه الأشلاء التى تقتحم الصورة هى من وسائل الفنان المتكررة لتصوير أزمة الانسان وقصته .

وكما يصور مروان جسم الانسان ككتلة متماسكة لا مجموعة أعضاء فانه يضخم رأس الانسان فى بعض لوحاته حتى يبلغ ثلاثة أو أربعة أضعاف الحجم الطبيعى للرأس . وهذه من وسائل الفنان لتكريس فكرة الحضورية عن اللوحة . ويقول

مروان انه اكتشف فى منتصف الستينيات فكرة أو حس المغـالاة كأداة تعبيرية ٠٠ للتأكيد على الانسان ، وللتعبير عن التزامه تجاه قضية هذا الانسان ٠

ومروان فنان متفائل ، « لأن من صفات الثورى والفنان أن يكون متفائلا فى كل الظروف ٠ ورغم الاحراج ورغم الجرح الكبير لابد له من العمل فى ظروف المأساة بقدر الامكان ، لابد له أن يزيد من قوى الجد والمقاومة ، أما أن يتشاءم فسيكون متناقضا مع الحياة ٠ بعض لوحاتى قد تبدو حزينة ، ولكنها بالفعل ، بالنسبة لى ، ليست صورا حزينة ، بالنسبة لى هى قضية حياتية ٠٠ أنا قادم من وطن عربى ٠ اذا كانت عيونى مغلقة الى الداخل كما يقول الناقد فهذا صحيح الى حد ما ٠٠ تجاربى التى عشتها فى الأزقة والحارات فى دمشق ٠٠ مناظر بلادنا العربية وصحراء بلادنا، احملها معى ٠٠ كل هذه الأشياء أدركتها بوضوح أكثر بعد زيارتى الأخيرة لسوريا ٠٠ »



ومروان فنان ملتزم ، ولوحاته تلزم المشاهد أن يتخذ منها موقفا خاصا ـ ليس بمقدوره أن يمر عليها مرورا عابرا ، أو أن يقف أمامها مشتت الفكر ٠٠ وهو غالبا يشعر أنه محاصر ، ملاحق من هذه الشخوص التى تطل عليه ، التى تدعوه الى التركيز وامعان النظر ٠ وكلما تأمل هؤلاء الآدميين ، ازداد رغبة فى الاقتراب منهم والتعرف عليهم ٠٠ وربما فى الالتحام مع هؤلاء الصامتين الراقصين على الجدران ٠ وربما قد يشعر المشاهد أحيانا بالغضب ، لأنه يرى نفسه أو يرى زاوية من نفسه عارية معلقة على الجدران ٠

« أنا انسان بسيط تأتينى فكرة بسيطة ، لكن أشعر أنها عميقة ، تأتى من كبدى بكل معنى الكلمة ٠٠ وحين أرسم يأتى اللون وتأتى المادة من جسدى ٠٠ وأنا أرسم كلية بالشكل الداخلى ٠٠ غالبا أفهم اللوحة مع رسمها وبعد رسمها ـ لكننى لا أقوم بمغامرة على اللوحة ، أبدأ الفكرة بالقلم الرصاص ٠٠ وعندما تأتى الفكرة أحاول أن أعرضها بأفضل الأشكال ٠٠ فلكل لوحة سلسلة من الرسومات الأولية التى أخطها بقلم الرصاص ٠٠ وأطور بها تدريجيا الفكرة وأوضحها ٠٠ فتارة أشد الوجه ٠٠ وتارة أخرى أضغط الرأس أو أضغط ثنايا الجسم ٠٠ وأوضح أطراف الشكل ٠٠ وقد تكون الاضافة نوعا من الانفراج أو الانكماش ٠٠ وهكذا ٠٠



الرأس

وعندما تثبت الفكرة نهائيا بقلم الرصاص أكون سعيدا لأنمشكلة اللون بالنسبة لى مشكلة بديهية تماما ٠٠ تأتى بالفطرة وعلى اللوحة٠٠ الفكرة هى أهم شىء ٠٠ وهذه الفكرة تأتى من الداخل لا عن طريق الفكر النظرى ٠٠ أنا ملتزم والاشياء التى أعبر عنها ليست آتية من أشياء مطلقة وليست نتيجة لعبة فكرية ٠٠ **انما هى أشياء معاشة ٠٠ احاسيس طفولية ٠٠ تجارب ٠٠ آمال ٠٠ الخ ٠ جاءتنى من العالم الخارجى وعاشت معى مدة طويلة أو قصيرة وأنا أحاول أن أعبر عنها بشكل شخصى ٠٠ وأنا أحاول جهدى أن أخلق من بعض المساحات ـ التى قد تبدو بعيدة عن الالتزام أو المسئولية ـ احاول فى كل سنتيمتر مربع من اللوحة أن أكون مسئولا عن هــذا السنتيمتر ٠٠ وأن أصوغه بالتزام » ٠**

●●●

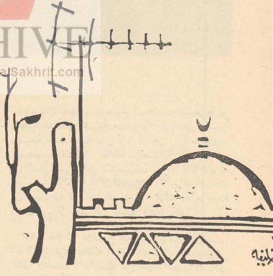
ومروان يتجنب بوضوح الومضات الشعرية أو التضخيمية فى عنونة موضوعاته ويكتفى بأسماء بسيطة مقتضبــة مثل : « الرأس ، رأســان ، المضطجع ، الضم ، المقابلة ، الصداقة » ٠ وواضح أن الفنان يسىءالظن بالتسميات ، ربما لأنه لايريد أن يحمل لوحاته ما لا تحتمل ، ولا يريد كـذلك أن يحصرها فى حيز ضيق ٠٠ فاللوحة موجودة وتستطيع أن تعبر عن نفسها وهذا يكفى ٠

واذا جاز لنا أن نمدح هذا الفنان الانسان فليس لنا الا أن نردد ماقاله النقاد : « لقد نما مروان فى هدوء وصمت ، وأصبح من أهم وأفضل الفنانين الواقعيين وأكثرهم اقناعا ٠٠٠ » وما يقوله هـذا الفنان عن لوحاته يستطيع كل انسان عـربى ـ مهما كان حظه من الثقافة ـ أن يدركه بالفطرة ٠٠ ولوحاته هى مدخل ممتاز الى فن التصوير للعامل والفلاح والطالب ورجل الشارع ٠٠ وربما أيضا للذين يتعاطون هذا الفن وفى أيديهم القفازات ٠٠

ندوة حول كتاب

النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد

تاليف الدكتور محمد عاطف العراقى . وقد شارك فى الندوة الدكتور محمد عاطف العراقى مؤلف الكتاب والدكتور حسن حنفى والاستاذ امام عبد الفتاح امام



تقديم : ابراهيم الصيرفى

د . محمد عاطف العراقى : فى بداية الكتاب بدات بتقديم بينت فيه ماذا نقصده بالنزعة العقلية . وقد ركزت على انها تقوم عند ابن رشد على التفرقة بين الادلة الخطابية والادلة الجدلية والادلة البرهانية . وعلى اتجاه ابن رشد للادلة البرهانية ناقدا بذلك الادلة الخطابية والادلة الجدلية ، كما يظهر ذلك فى حملته على التصوف اساسا . اذ ان التصوف عنده يعد طريقا فرديا يقوم على المكاشفات التى تعد خاصة بفئة دون اخرى .

وفى البـاب الاول من الكتاب ، ويتكون من فصلين ، عرضت لحياته فبدات ببيان الجو الفكرى فى الاندلس ، البيئة التى نشا فيها ، وكيف اهتم بالفقه ودرس علم الكلام . ثم ركزت على اتصاله بالخليفة . ثم تعرضت لنكبته واسبابها وكيف انها ترجع عندى لاسباب دينية اكثر منها سياسية . ثم عرضت فى الفصل الثانى لابن رشد وعصره ، وكيف اشتغل بالطب ثم تاييده لارسطو الذى يعتبر القلب عضوا اصليا ومصدرا لجميع وظائف الحياة الحيوانية ونقده لجالينوس الذى يرى ان الدماغ لا القلب ، هو مصدر الحياة . ثم ركزت على شروحه لارسطو، وهى ثلاثة انواع كبير ووسيط وتلاخيص. واود ان اشير ان شروحه جزء لا ينفصل عن نظريته . فهذه الشروح هى الاولى بالاهتمام من مؤلفاته الاخرى . وبينت كيف رد على ابن سينا والغزالى . ثم اشرت الى اتجاهه الخاص وكيف آمن بالمبادىء اليقينية البرهانية ونادى بتطبيقها على الفلسفة ودليل ذلك قوله ان الحكمة هى النظر فى الاشياء بحسب ما تقتضيه طبيعة البرهان . كما بينت انه لم يستخدم الفلسفة والمنطق لمجرد الدفاع عن الدين كما يفعل المتكلمون . ولهذا نجد فرقا جوهريا بين منهجه كفيلسوف ومنهج المتكلمين ، والخلاف بين المنهجين ليس باليسير .

والباب الثانى من الكتاب عن العقل والمعرفة ، وهو فى فصلين ، وفيه درست رايه فى المعرفة الحسية والمعرفة العقلية ، وكيف تجاوز الاولى ليصل الى الثانية طبقا لنظريته فى تدرج الوظائف العقلية .

والباب الثالث عن العقل والوجود ، ويقع فى اربعة فصول . عرضت فى اولها لمشكلة قدم العالم ، وكيف اتجه فى حله لهذه المشكلة الى رأى الفلاسفة لا الى رأى المتكلمين . فهو يذهب الى ان العلة اذا وجدت وجد معلولها بالضرورة . هذا بالاضافة الى انه لابد من التساؤل والقول بانه ، كيف يتصور ان الله وهو علة العلل يفعل فى وقت ولا يفعل فى وقت آخر . لابد عنده ان الله لا يتراخى فى فعله عن وجوده ، اللهم الا اذا قلنا انه ينقصه شىء . وهذا فيما يقول ابن رشد قول لا يرضى عنه المتكلمون ولا الغزالى . وفى الفصل الثانى عرضت لموقفه من نظرية

الفيض . وفى الفصل الثالث عرضت لتفسيره الظواهر الفلكية وكيف يرى فيها اوجه الترابط الضرورى بين العالم العلوى والعالم السفلى . وفى الفصل الرابع والاخير من هذا الباب عرضت لرايه فى مشكلة السببية ، وكيف قرر العلاقة الضرورية بين الاسباب والمسببات ، نافيا بذلك الاتفاق العرضى والجواز والامكان ، وكيف ربط بين السبب والعقل . وفى الباب الرابع ، وهو عن العقل والانسان ، عرضت لرأيه فى مشكلة الخير والشر والقضاء والقدر . وهو يرى ان فكرة القضاء والقدر ترجع الى فكرة السببية . فاذا كانت ارادتنا تجرى على نظام محدود ، واذا كان ما فى العالم الخارجى يجرى ايضا على هذا النظام ، فان هذا يقوم على منطق الاسباب والسببات. فابن رشد يقول بالعلاقة بين الارادة الانسانية الداخلية وبين نظم اونواميس الكون الخارجية .

وفى الباب الخامس ، وهو عن العقل والله ، ويقع فى خمسة فصول ، عرضت فى أولها لنقده لادلة سابقيه على وجود الله ، فهو ينقد الحشوية الذين يضربون صفحا عن النظر العقلى الذى أمر به الله فى اكثر من آية من القرآن ، فمعرفة الله كما يرى الحشوية ، تكون عن طريق السمع لا العقل ، وهذا ما يفنده ابن رشد أيضا ، كما ينقد الصوفية ويرى ان طرقهم ليست طرقا نظرية ، أى مركبة من مقدمات تفضى الى نتائج . فمعرفة الله عندهم عبارة عن شىء يلقى فى النفس عند تجريدها من العوارض الشهوانية واقبالها بالفكر على المطلوب . كما ينقد المتكلمين فى قولهم بدليل الحدوث ودليل الممكن والواجب . وقد ادى به هذا الى نقد ابن سينا الذى تاثر بدليل الاختراع . ثم أضفت دليلا ثالثا هو دليل الحركة الذى يبرز لنا اتجاها ارسطيا . وفى الفصل الثالث عرض لمشكلة التوفيق بين الفلسفة والدين . وقد قلت انه من الخطأ الظن بأن ابن رشد تكلم عن العلاقة بينهما حاصرا نفسه فى دائرة الشرع او واضعا فكره فى قوالب جدلية ، بل معلنا لمبادىء عقلية برهانية يؤمن بها هو . ومن الافضل – فيما أرى – وجوب بحث فلسفات العرب على أساس لا يقوم فحسب على مجرد التوفيق بين الدين والفلسفة حتى لا تبقى مغلقة محصورة فى نطاق ضيق . واذا كان جمهرة المؤلفين والمفكرين قد وجهوا اهتمامهم الى نظريات التوفيق بين الدين والفلسفة ، فان الاصوب من ذلك والاجدى استخلاص ما فى فلسفاتهم من منازع عقلية دون التركيز على مسالة التوفيق بين الدين والفلسفة . وفى الفصل الرابع عرضت لرايه فى خلود النفس ، وكيف ذهب الى ان الاشياء التى تعود هى امثال هذه الاشياء التى كانت فى الدنيا ، لا هى بعينها ، لان المعدوم لا يعود بالشخص ، بل يعود الموجود لمثل ما عدم لا لعين ما عدم . وقد اشرت الى تاثر ابن رشد بارسطو الذى ذهب فى كتابه « الكون والفساد » الى انه من الضرورى الاعتقاد بامتناع عودة الشخص من كل جهة ، اذ الفاعل لا يعود واحدا بالعدد ، ولا الهيولى يمكن فيها ذلك . واذا فسد الموضوع ثم كان، فهو ضرورة ثان بالعدد . وفى الفصل الخامس عرضت لرأيه فى مسالة بعث الرسل ، وكيف ذهب الى ان القرآن هو المعجزة الحقيقية التى تختلف عن سائر ما يسميه المتكلمون بالمعجزات ، اذ انه لم يكن معجزا عن طريق السماع، كانقلاب العصا حية ، وانما ثبت كونه معجز بطريق الحس والاعتبار لكل انسان . كما فرق بين المعجز الجوانى والمعجز البرانى . فالنوع الاول يدل على وجود الرسل والشريعة، والنوع الثانى عبارة عن اشياء فردية جاءت لتقريب الامور الى قلوب الجماهير والتاثير فيهم .

بعد ذلك ختمت الكتاب بخاتمة ابرزت فيها الادلة والشواهد على نزعته العقلية كما تبدو فى نظرياته . وانتهيت الى الدعوة الى بعض القضايا العامة . ولا ادرى هل سنجد صدى عند المشتغلين بالفكر الفلسفى العربى . من هذه القضايا حقيقة نظرية التوفيق بين الدين والفلسفة . فاذا كان جمهرة المؤلفين والمؤرخين اعتبروها معقد الطرافة فى الفكر الفلسفى الاسلامى ، فان الاصوب والاجدى محاولة استخلاص ما فى فلسفاتهم من منازع عقلية دون التركيز على هذه المسالة . وبهذا يتم الصعود الى البرهان بعد تجاوز كل أدلة خطابية او كلامية فى مجال الفكر الفلسفى فى حد ذاته كفكر فلسفى . قضية ثانية واخيرة تدور حول الدعوة الى انه من واجبنا التركيز أساسا على الشروح التى قام بها فلاسفة العرب على مؤلفات ارسطو وغيره من فلاسفة القدامى . واظن انه قد أن الاوان لأن يقوم المهتمون بالفكر الفلسفى العربى بدراسة هذه القضايا . ومن جانبى اعتقد ان دارسة الفلسفة العربية على ضوء هذه القضايا التى ندعو اليها ستؤدى بصفة حتمية الى اعادة النظر فى كثير من الاحكام المتصلة بالفلسفة العربية .

د . حسن حنفى : هذه الرسالة من الرسائل الجادة الامينة الموضوعية التى تلتزم بالمنهج التاريخى اشد الالتزام . فالمؤلف قد عرض لمعظم نواحى فلسفة ابن رشد عرضا علميا سليما هادئا مطمئنا ، متتبعا ذلك المنهج التاريخى كما قلت ، ومستندا الى الشروح خاصة ، كما يدعو الى ذلك ، ومستندا الى مؤلفاته ابن رشد وخاصة « تهافت الفلاسفة » و « فصل المقال » و « الكشف عن مناهج الادلة » . ولكن ، وكما نعلم جميعا ، قد تكون مميزاتنا هى عيوبنا ، وعيوبنا هى مميزاتنا . فقد يكون النقص الوحيد فى هذا الكتاب هو انه كان يمكن ، بالاضافة الى هذا المنهج التاريخى ، اضافة مناهج فلسفية تجديدية . وانا اعلم ان للمؤلف بعض النزعات التجديدية فى التراث الاسلامى ، ولكن هذا للاسف لم يبد فى كتابه هذا . وخاصة فى ميدان الفلسفة الاسلامية التى هى الصق ما تكون بنا ، ونحن نعانى من بعض الرواسب الحضارية

القديمة ، التى نستطيع ان نقضي عليها من خلال اعادة دراستنا للفلسفة الاسلامية، واعادة تناولنا لمؤلفينا القدامى كافة فى النزعة العقلية . أى انه كان من الممكن للدكتور محمد عاطف العراقى ان يخرج ، فى بعض الاحيان ، على نطاق ابن رشد وان يتناول النزعة العقلية ، وان يعلل لعدم استمرار تلك النزعة فى وجداننا المعاصر ، ولتفضيلنا الغزالى على ابن رشد فى هذه المعركة الشهيرة التى قامت بينهما فى القرن السادس ، على حين فضل الغرب ابن رشد على الغزالى . هذه ضرورة عرض ابن رشد عرضا تجديديا ، وضرورة النظر الى الماضي من خلال الحاضر . هذا ، فى رايى ، اول ماخذ يمكن ان يؤخذ على الدكتور العراقى . ولكنى ارجو ان يسد هذا النقص فى دراساته المقبلة ، لاننا بالفعل عندما ندرس تراثنا القديم كما يفعل المستشرقون ، أى لا نلتزم النظرة الحيادية التامة ، ولكننا نستطيع ان نتناوله بنظرة جديدة . ولكن عذر الدكتور العراقى فى ذلك ان التوجيهات التى قدمت له بصدد اعداد هذه الدراسة كانت توجيهات يغلب عليها المنهج التاريخى .

هذا أول نقد . ثانيا ، انه يغلب على الرسالة ، الى حد ما ، برغم دقتها العلمية : خلوها من المنهج المقارن فابن رشد واحد من كبار الفلاسفة فى العصر الوسيط ، وأثره معروف ومشهور على الفلسفة اللاتينية ، ولذلك كان ينبغى على الباحث باستمرار ان يعقد بعض المقارنات بين المشاكل التى عرضها ابن رشد وبين نفس المشاكل التى عرضها الفلاسفة المسيحيون فى العصر الوسيط وانصار ابن رشد اللاتين ، الى جانب تناول الفلسفات الحديثة والمعاصرة لهذه المشاكل ، وبذلك نستطيع أن نضع ابن رشد داخل الفلسفة العامة ، ونرى الى أى حد تتفق النزعة العقلية التى يمثلها ابن رشد ، او تختلف ، مع النزعات العقلية التى كانت معروضة فى العصر الوسيط المسيحى والعصور الحديثة والمعاصرة .

والنقد الثالث والاخير هو انه كان من المستحسن فى ختام البحث وضع فصل عام يحتوى على النتائج العامة التى توصل اليها الباحث فى النزعة العقلية . اعنى ان يقول مثلا : نستطيع اذن أن نرى النزعة العقلية عند ابن رشد فى الآتى ، أولا : الفصل بين الفكر والوجدان الدينى وذلك مابدأ فى هجومه على علم الكلام ، وخاصة علم الكلام الاشعرى . ثانيا : الاتجاه الى تجريد ورفض كل مايند عن التجربة ، كما فعل فى الفصل الذى عقده فى نظرية المعرفة عن الحس والعقل . ثالثا : رفض نظرية الفيض أو الصدور . رابعا وخامسا .. أى أن يحدد معالم النزعة العقلية فى تراثنا القديم الذى تمثله ابن رشد خير تمثل . هذه الجوانب موجودة بالفعل فى الرسالة ، ولكنها متفرقة ولو جمعت ، كما اقترح ، لزادت من حدة النزعة العقلية فى وجداننا المعاصر ، اذ نتمثل ابن رشد الذى يعتبر بالفعل نموذج المفكر العقلى فى تراثنا كما سنرى من خلال المناقشة .

امام عبد الفتاح امام :

فى اعتقادى أن المجتمع العربى قد أخذ من الجوانب الروحية والعاطفية والغيبية بما فيه الكفاية . وقد آن للعقل أن ياخذ دوره الذى حرم منه سنوات طوال . ولايعنى ذلك اننا ندعو الى نبذ أو طرح الجوانب الروحية، لكنا ندعو الى ان ياخذ العقل مكانه الطبيعى الى جانب هذه الاتجاهات الروحية . ومن هنا تتبدى أهمية البحث الذى نناقشه فى هذه الندوة ، اذ انه لايحثنا على الاعتزاز بالعقل واعطائه مكانه المناسب فحسب ، وانما هو يربط هذه الدعوة أيضا ، بجذورها من تراثنا القديم ، حين يحدثنا عن النزعة العقلية عند ابن رشد . والى جانب أهمية هذا الموضوع بصفة عامة ، يوجد ذلك الجانب الاكاديمى الذى يتبدى بوضوح فى المراجع الاصليةالاساسية فى البحث . ونعنى بها مؤلفات ابن رشد نفسه ، ففى كل صفحة من البحث نجد اعتمادا أساسيا على مؤلفات فيلسوف قرطبة وعلى المراجع الاساسية فى الموضوع . وبالقاء نظرة سريعة على قائمة المراجع التى يوردها المؤلف فى نهاية بحثة يتبين لنا مدى جدية البحث ومقدار الجهد الذى بذل فيه . فالباحث يقدم لنا ثبتا وافيا بمؤلفات ابن رشد مع تحليل موجز لكل مؤلف . ويقدم لنا اكثر من مائتى مرجع أساسى فى ميدان البحث . والكتاب بصفة عامة ، كما قال المرحوم الدكتور احمد فؤاد الاهوانى فى مقدمته ، يعد بحق أول محاولة لتطبيق فلسفة المذاهب على تاريخ الفلسفة الاسلامية . فهو يطبق المذهب العقلى وهو مذهب حديث ، على فلسفتنا القديمة . وهنا ترد لى ملاحظة ، هى انه كان لابد ان يوجد فى بداية الكتاب فصل خاص بتحديد معنى المذهب العقلى ، خاصة وانهذا المصطلح ، كغيره من المصطلحات الفلسفية ، لايحظى باتفاق عام بين الباحثين ، على معنى محدد . فهو مصطلح يطلق على أنحاء شتى . فكان ينبغى مناقشة المعانى المختلفة للمذاهب العقلية وبيان المفهوم المحدد لهذا المصطلح عند ابن رشد . اذ لاتكفى ، بالطبع ، الاشارة العامة الواردة فى التصدير . واحب ان اشير الى ان هذا الفصل ، فيما اذكر ، كان موجودا بالفعل فى الرسالة الاصلية ، ولست ادرى لماذا حذف عند طبع الكتاب . واذا كنت اطالب بفصل فى البداية لتحديد المذهب العقلى ، فاننى ايضا اطالب بفصل فى الخاتمة لتقييم موقف ابن رشد (أى بمعنى آخر للاجابة على السؤال : هل كان ابن رشد متسقا معالنظرة العقلية دائما ؟ وماهى اوجه النقد التى يمكن ان توجه اليه) واخيرا ، لدى ملاحظات بسيطة يمكن ان تلخص فيما يلى : خرجت من الكتاب بانطباع عام هو ان ابن رشد كان ارسطيا من الالف الى الياء . فهو يساير ارسطو

فى جميع الآراء أو فى كثير جدا من آرائه . وهنا يخطر على ذهن القارىء سؤال : هـــل يعتبر الفيلسوف التابع لفيلسوف آخر ذا نزعة عقلية ؟ وكيف يصح ذلك والنزعـة العقلية تتضمن بالضرورة استقلالا فى الفكر .. استقلالا من السلطة الدينية .. استقلالا من السلطة العملية .. الخ ، كما هو معروف ، مثلا ، من موقف ديكارت . ومن موقف ارسطو نفسه ؛ حين نراه يستعرض آراء من سبقه من الفلاسفه وينقدها قبل ان يقيم مذهبـه . ومـوقف كامبانيلا ، وموقف كروتشه المعاصر ، فهو على الرغم من انه قد تاثر تاثرا كبيرا جدا بالهيجلية وبهيجل ، وعـلى الرغم من انه كان يحترم الهيجلية ، الا انه كان يرفض باستمرار ان يسمى بانه هيجلى ، لا لسبب الا لانه كان يقول : انا لااتصور ان يطلق على فيلسوف اسـم مذهب آخر ، لان الفيلسوف الجـــدير بهذا الاسم مفروض ان يعطينا جديدا له استقلاله . هذه هى الملاحظة الاساسية. وهنالك ملاحظات حول بعض القضايا عند ابن رشد بحاجة الى وقفة ومناقشة وتحليل .

ابراهيم الصيرفى :

لنترك هذه الملاحظات حتى ياتى دورها عند المناقشة التفصيلية للكتاب ، حتى يتفضل الدكتور محمد عاطف العراقى بالرد على ماأثاره الدكتور حسن حنفى من نقاط، والتى اشرت سيادتك الى جانب منها ، والى ماأثرته انت، من مثل سؤالك عن الاصالة والتبعية . وسؤال الدكتور حسن حنفى الذى يطالب فيه المؤلف بتطبيق المنهج المقارن فى دراسته ، وطلبه عقد فصل ختامى يتضمن الملامح الخاصة بالنزعة العقلية عند ابن رشد . والفصل الذى طالبت به فى بداية الرسالة كمفتاح لمفهوم المصطلح ، وغير ذلك مما اثير الآن .

د. محمد عاطف العراقى :

بالنسبة للمنهج المقارن والرشدية اللاتينية ، قـد وعدت فى هذا الكتاب ان يكون هذا الموضوع موضوعا منفصلا لان الرشدية اللاتينية ليست من الموضوعات التى تكتفى بعدد من الصفحات أو بفصل من كتاب ، بل هى موضـوع قائم بذاته . ومن الممكن أن يكون هذا بمثابة الجزء الثانى من الكتاب . اما بالنسبة للفصل الخاص بالمذهب العقلى، فان هذا الفصل كان موجـودا بالفعل ، وعـوائق النشر والطبع ، ومحاولة الضغط قدر الامكان ، هى التىاستدعت الاشارة بدلا من فصل كامل عن معنى النزعة العقلية . واما عن مسالة الفيلسوف التابع ، فانا لااستطيع أن اتصـور ان ابن رشد فيلسوف تابع . صحيح ان فيه اثرا ارسطيا، ولكن فيه أيضا دور العقيدة الدينية ، بحكم عصره . وهو ربما يفضل ارسطو عن غيره لان هذا التفضيل فى حد ذاته موقف من المواقف العقلية ، وبرغم ذلك فان لبعض الجوانب عند ابن رشد بروزا أكثر مما نجد عند ارسطو ، فهو مثلا حين يعرض علينا نظـرية التوفيق بين الدين والفلسـفة ويتمها على أساس تفضيل البرهان على الجدل ، طـابع المتكلمين ، أو على الادلة الخطابية ، طابع الفقهاء ، يقدم بدون شك موقفا من المواقف . انه ؛ وهـذا صحيح ، يستعير من أرسطو ، ولكنه لايتابعه مجرد متابعة . خط السير الذى يسير فيه ابن رشد فيه اثر ارسطى ، ولكنه اهتدى الى كثير من النتائج التى لم يكن فيها مجرد مقلد لأرسطو . واما بالنسبة لفصل النتائج فقد عقدت فى الواقع خاتمة ، وهى وان تكن موجزة ، الا اننى أعتمد فيها على ماأثبت بآخر كل فصل من فصول الكتاب عن النتائج التى يمكن أن نستخلصها من بحث ابن رشد لكل نظرية ، وكل مشكلة من المشكلات . واظن أن هذه النتائج الموجودة بآخر كل فصل بالاضافة الى أن الخاتمة العامة تقـدم التكامل المنشود .

د . حسنى حنفى : الواقع ان قضية ابن رشـد وأرسطو من القضايا التى تحتاج بالفعل الى اعادة نظر ، لان هذه القضية تلزم تراثنا الاسلامى كله . فنحن عندما نقول الفلسفة الاسلامية نجد الحكم السريع الذى يلقيه المستشرقون عادة ، والذى يتبعهم فيـه أيضـــا بعض الدارسين العرب والمسلمين ، عندما يقولون بان الفلسفة الاسلامية هى تكرار للفلسفة اليونانية ، او انها ، على الاقل ، قد تاثرت بها . وهم يذكرون دائما صلة الفارابى وابن سينا بافلوطين او افلاطون ، ثم صلة ابن رشـــد بارسطو . الحق ان هذه القضية تحتاج الى تفكير بسيط فى منهج الاثر والتاثير . وكمـا قيـل حالا ، لا يوجـد فيلسوف ينسب الى فيلسوف آخر ، خاصة فى مجـال حضارتين منفصلتين ، او خاصة بين فيلسوفين ينتسب كل منهما الى حضارة أخرى . والحضارة الاسـلامية ، كما تعلم ، قامت على اساس الكتاب والسنة ، أى انهـا قائمة على الوحى ، وان كل مفكر اسلامى سواء كان متكلما أو فيلسوفا او أصوليا أو صوفيا انما يقوم من نقط بدء هى الكتاب والسنة . أى ان نقطة البدء مختلفة تماما عن اى فيلسوف من حضارة يونانية أو هندية أو فارسية .. الخ ثم انه كان من الطبيعى ، بعد أن ترجم التراث اليونانى فى الشام على يد السريان ، او ترجم ترجمتـه الثـانية مباشرة ، ان تنفتح الحضارة الاسلامية على غيرها ، وكان من الطبيعى أيضا ان يظهر مفكرون مجددون ، اى مفكرون ذو ثقافتين هى الثقافة الخاصـة التى ينتسـبون اليهـا وثقافة اخرى معاصرة لهم ، هى الثقافة اليونانية باعتبارها أصل الثقافات وأشـدها عقـلانية ، كان من الطبيعى اذن أن يخرج مفكرون الى ما وراء الحدود ، وزراء خارجيـة بالمعنى السياسى ، يدرسون الداخل كما كان يفعل علماء الكلام وفى نفس الوقت يدرسون الخارج . ثم بعد ذلك لا يكتفون بالشرح او بالتعليق أو باعادة العرض كاشيـاء

مطلوبة لذاتها ، بما هى ايضا اعادة تعبير عن المشاكل الاصيلة الموجودة فى التراث الاسلامى . ولذلك فقد استعادوا الفاظ الفلسفه اليونانية ، التى كانت ، لحسن الحظ ، الفاظا عقلية مفتوحة تسمح بظهور نزعة عقلية . جوهر ، عرض ، صورة ، كيف ؛ كم ؛ زمان ؛ مكان . الخ كل هذه الالفاظ التى توافق على النزعة العقلية الموجودة اساسا فى القرآن الكريم ، يأتى ابن رشد لياخذ مصطلحات ارسطو كى يعبر من خلالها عن نزعة عقلية موجودة اساسا فى تراثه . مهمة الفيلسوف الاسلامى اذن ليست ان يعطينا فلسفة خاصة كما كان الحال فى الفلسفة الاوربية الحديثة او المعاصرة ، مثل الهيجلية والديكارتية والكانطية والبرجسونية .. الخ ، اى ان هناك فلسفة يمكن أن تنسب الى الفيلسوف .. لشخصه ، لمزاجه ، لآرائه ، لظروفه .. الخ . ولكن الفيلسوف الاسلامى يعرض لبعض المشاكل الموجودة فى بيئته ، ويستعمل لغة العصر او الثقافة التى كانت موجودة فى ذلك الوقت . ويمكن ان يسمى ذلك بالتشكل الكاذب ، اى عندما تلتقى حضارتان احداهما ناشئة والاخرى قديمة بعد عصر الترجمة ، فان الحضارة الناشئة تتبنى لغة الحضارة القديمة كوسيلة للتعبير عن مضمونها هى . الن نستطيع ان نقول آن ذلك يتم حاليا بين ثقافتنا الاسلامية فى القرن التاسع عشر وبين الثقافة الاوربية . فهل نستطيع ان نقول ان اقبال ودعوته الى نهضة المسلمين قد تأثر ببرجسون أوانه حينما يدعو لقوة المسلمين ونهضتهم ورفض المستعمر ، هل معنى ذلك انه كان متأثرا بنيتشه ؟ انا مثلا عندما استعمل فى بعض الاحيان الفاظ الصراع الطبقى والطبقات الكادحة ، هل معنى ذلك اننى ماركسى ؟ فهذا امر يحدث دائما فى كل فترة تتلاقى فيها حضارتان . وهذا هو ما حدث لابن رشد ، راى فى مجتمعه خطورة هدم تيار الاعتزال فى القرن الخامس ، وراى سيادة الفلسفة الاشراقية فى الاندلس خاصة على يدى سابقيه ابن طفيل وابن باجه ، فى هذا الصقع الذى لم تصل اليه الكتب العقلية كما يقول هو ، لانه لم يعرف المعتزلة جيدا ، اراد ان يمثل الاتجاه الذى كان بالفعل موجودا فى التراث الاسلامى ، لان الفاظ ابن رشد كما قلت هى اكثر الالفاظ عقلانية . وقد اخذها وحاول ان يعبر من خلالها عن فلسفته العقلانية الخالصة . وكل ما قاله ابن رشد قد يوحى عند البعض ممن يتبعون أسلوب التخييل او الاقناع او الخطابة او الجدل انه معارض للدين ، مع انه فى حقيقته متفق مع الدين كما يقول ابن رشد خاصة فى خلود النفس الكلية او فى القول بقدم العالم او فى رفض التصوف .. الخ ، اى عندما نقول هناك فيلسوف اسلامى اتصل بفيلسوف آخر يونانى او غير يونانى فان ذلك لا يعنى انه تابع بل لا يعنى ذلك اثرا ، لان الاثر لا يتعدى المصطلحات او الالفاظ .. ويظل المضمون كما هو .

ابراهيم الصيرفى : أى ان هذا نوع من التمثل ..

د . حسنى حنفى : بهدف التعبير . وذلك يتم بطريقة طبيعية جدا كلما التقت حضارتان .

د . محمد عاطف العراقى : هناك نقطة أحب أن اوردها عن الشروح هى ان كلمة شرح ارسطو ما بعد الطبيعة أو شرح ارسطو للطبيعة او شرحه لكتاب النفس ، ليس معنى هذا ان ابن رشد متابع لارسطو . لاننا نستطيع بكل سهولة ان نستخرج عناصر فلسفة ابن رشد الخاصة من هذه الشروح . ولذلك فاننى اقول اننا بالرجوع الى شروح ابن رشد انما نستمد ، اكثر من مؤلفاته ، عناصر فلسفية تغير من فكرنا عنه . واظن ان رينان فى كتابه عن ابن رشد والرشديين ، يقول اننا يجب الا تخدعنا عبارات ابن رشد حين يقول انه يفضل ارسطو على غيره من كثير من الفلاسفة ، وانه يتبعه فى كثير من الاحيان ، لان النفسية البشرية او العقل البشرى ، يطالب باستقلاله دائما . وهذا ما حدث من ابن رشد ، لانه ليس مجرد شارح لارسطو . انه لم يقف عند حدود آراء ارسطو ، بل انه يطالب دائما كفيلسوف عقلى ان تكون له آراءه الخاصة . واظن ان هذا قد ظهر كثيرا فيما يقول به من آراء . فنحن فى شرح ابن رشد لما بعد الطبيعة قد نجد وضوحا على القول بدليل كدليل العناية او دليل الغائية او دليل الاختراع ، يعبر عنه ابن رشد بصورة غير الصورة التى نجدها فى مؤلفاته ، لان الطابع الدينى والطابع التقليدى فى مؤلفاته اكثر منه فى الشروح .

وربما كنا نتوقع من رينان كمستشرق ان يقول ان ابن رشد مجرد تابع لارسطو .

د . حسنى حنفى : فيما يتعلق بقضية الشروح ، لو قارنا شرح ابن رشد بالنص الاساسى لارسطو فلن نجد تشابها كبيرا ، ان لم نجد اختلافا . ولو اخذنا امثلة من تلخيص ما بعد الطبيعة او تلخيص الخطابة ، وكليهما من الشروح الصغرى وقارنا ذلك بالاصل لوجدنا ابن رشد يفعل الآتى : اولا ، يحذف كل مالا يدخل فى البرهنة على الفكرة العامة التى يعرضها ارسطو ، فيحذف مثلا كل ما يتعلق باللغة اليونانية والبيئة اليونانية .. الخ ، ثانيا ، يستبدل بذلك كله أمثلة من البيئة العربية والشعر الجاهلى العربى والخطابة العربية فيما يتعلق بالخطابة . اى ان ابن رشد يبدو فى الظاهر وكانه شارح لارسطو ، ولكنه فى الحقيقة مطبق « لنظرية علمية » ، موجودة فى العصر ، على الخطابة والشعر ، والنثر العربى . وكذلك فيما يتعلق بتلخيص ما بعد الطبيعة ، نحن نعلم مثلا ان كتاب ما بعد الطبيعة لارسطو يقع فى اصله فى اثنى عشر او اربعة عشر مقالا ، لم يعرض ابن رشد الا لاربع مقالات

فقط ، وللفكرة العامة فيها وكانها نظرية فى العقل ، وذلك بالطبع على المستوى الحضارى الذى كان فيه .

هذه بالفعل ميزة كبيرة للفلاسفة الاسلاميين ، فيما يتعلق بالعلاقة بين حضارتين . ونحن حتى الآن لم نستطع ان نقوم بهذه العملية بين ثقافتنا المعاصرة وبين الثقافة الاوربية . ونستطيع ان ندرس ذلك عند الطهطاوى وعند الجبرتى وعند كل مفكرينا المعاصرين فى القرن التاسع عشر . وعندما نفعل ذلك نجد اننا لم نستطع آن نقوم بما قام به الفلاسفة القدماء من القدرة على تمثل المعاصر لهم ، واستعمال لغتهم فى التعبير عن مضمونهم .

ابراهيم الصيرفى : اعتقد يا استاذ امام أن ما قيل الآن يمكن ان يكون محاولة للرد على السؤال الذى طرحته .. فاذا لم تكن مقتنعا فاضف ..

امام عبد الفتاح امام : يخيل الى ان الموضوع الذى اثاره الدكتور حسن حنفى كان مفتقدا الى حد ما فى الكتاب ، وكان بحاجة الى شىء من المناقشة ، وهذا هو انطباعى حقيقة . فانا اذكر ، مثلا ، هذه العبارات « ابن رشد يرفض نظرية الفيض ويتجه الى الارسطية » و « ابن رشد ينقد المتكلمين القائلين بالوجود من العدم ، ثم يتجه اتجاها ارسطيا » و « ابن رشد يتجه مباشرة الى المذهب الارسطى » . هذه نصوص فى الكتاب ، ولهذا فان ابن رشد يختلف كثيرا عمن سبقوه . فالغزالى لم يدرس ارسطو الا لينقض عليه ويماريه . واذا كان الفارابى وابن سينا قد درسا ارسطو ، فانهما قد اضافا الى فلسفته عناصر من المذهب الافلوطينى . اما هو فانه ينقض الفارابى وابن سينا ويرجع الى ارسطو . فى صفحة ٥٦ ينقد المتكلمين الذين قالوا بثلاث مقولات ويذهب الى ان المقولات عشر . وبهذا يكون قد اتجه اتجاها ارسطيا واستبعد اى شىء يؤدى الى انكار اى شىء تادى اليه نظر المعلم الاول (ص ٢١٦) . هذه كلها نصوص ،ولست ادرى ، لعل القضية كانت بحاجة الى مزيد من الوضوح .

د . حسن حنفى : هذا حق . والقضية بالفعل لابد ان يعاد طرحها من جديد بالنسبة لكل الدارسين الاسلاميين ، حتى نستطيع ان نصحح بعض الاخطاء عن تراثنا الاسلامى القديم . تلك الاخطاء التى روج لها المستشرقون ومن يتابعهم فيها لسوء الحظ . والقضية هى اين تظهر النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد وليست قضية صلة ابن رشد بارسطو . وهذه النزعة ، فى راى الدكتور العراقى ، تظهر فى جانبين من فلسفة ابن رشد : الجانب الفلسفى الخاص الذى يظهر فى رد ابن رشد على الغزالى ، واخذه صف الفلاسفة . ويقول ابن رشد انه يفعل ذلك لا لانه فليسوف ، ولكن لكى يعيد الحق الى نصابه . اى انه هنا استعمل منهج الفقه فى التحكيم بين ابن سينا والغزالى . ومن خلال منهج التحكيم هذا ، وهو المنهج الفقهى الاصيل ، الذى يفصل فيه ابن رشد بين خصمين ، يظهر من خلال هذا المنهج منهج ابن رشد ونزعته العقلية . هذا هو الجانب الاول ، والجانب الثانى هو ظهور النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد كما عرض الدكتور العراقى فى كتابه ، فى هجوم ابن رشد على علم الكلام وبخاصة فى هجومه على الاشاعرة الذين لاهم بالسلفية ولاهم بالعقلانيين ، الذين خلطوا بين العقل وبين الدين ، الذين لم يؤمنوا بالدين وبالنصوص ايمانا صريحا كما يفعل الحشوية او ايمانا باطنا كما فعل المتصوفة ، ولاهم اصبحوا معتزلة يؤمنون بالحسن وبالقبح العقليين ، وبالضرورة وبالسببية . فلاهم حصلوا هؤلاء ولاهم حصلوا هؤلاء . ابن رشد يرفض اساسا الخلط بين العقل وبين ما سواه . نحن اذن نستطيع ان نطرح هذين الجانبين اللذين ظهرا فى فلسفة ابن رشد ، وظهرت فيهما نزعته العقلية ، انها وليدة الجانب الفلسفى اولا ثم الكلامى ثانيا .

د . محمد عاطف العراقى : ملاحظة خاصة بالزميل امام ، عندما يقول انه ينفى فكرة الوجود من العدم وغيرها .. لماذا ينقضها ؟ لانه يرى ان راى ارسطو اكثر معقولية . لان ارسطو عندما يقول ان الفعل لابد ان تسبقه القوة يكون عنده اكثر معقولية فى هذا من التسليم بفكرة الوجود من العدم . اما عن رفضه للمتكلمين والغزالى ، فقد كان فى الواقع محقا فى هذا النقد ، لان دراسته الكلامية ، مهما يكن لها من قيمة ، وقيمة كبيرة ، دراسة ، وهذا مالا يمكن ان ننساه ، ذات طابع جدلى صرف .

د . حسن حنفى : فيما يتعلق بالفلسفة ، نجد ان ابن رشد لاول مرة فى العالم الاسلامى بالفعل ، وبصورة صريحة ، يعلن هذه القضايا الثلاث ، وكانها الدين . وهى نفس القضايا التى كفر بها الغزالى ابن سينا من قبل ، وصدقه العالم الاسلامى ، وآمن به ورفض الفلسفة . وهذه القضايا ، التى ما زلنا فى القرن العشرين نتحرج الى حد ما من قبولها ونعتبرها معارضة للدين ، هى الآتية : اولا ، العالم قديم وليس مخلوقا ، وليس فائضا من الله . ليس مخلوقا كما يقول الكندى ردا على قدم العالم عند ارسطو ، وليس فائضا عن الواحد ، كما يقول الغزالى وابن سينا فى نظرية الفيض او الصدور المشهورة ، والتى نسجاها طبقا لما قاله افلاطون من قبل . العالم قديم ، كما يقول ابن رشد الذى يعطينا الحجج الاربعة ، كما ذكر الدكتور العراقى فى كتابه ، ويفصلها تفصيلا حسنا ويعرضها عرضا موضوعيا . بل ان هذه الحجج تعتبر من احسن ما فى الكتاب ، وتستغرق خمسين

صفحة تقريبا ، فى عرض علمى واضح ، لان ابن رشد قالها فى رده على الغزالى ودفاعه عن الفلاسفة . ويعطينا ابن رشد الى جانب تلك الحجج العقلية حججا نقلية من القرآن على ان العالم قديم « ثم استوى الى السماء وهى دخان » و « وكان عرشه على الماء » اى انه كانت هناك قبل خلق العالم مادة قديمة سماها القرآن الكريم بالماء أو الدخان . ونحن اليوم لا نستطيع القول بهذا ، والا لكنا خارجين على العقيدة . ثانيا : انه لا يوجد حشر للنفس الفردية ، بل لحشر للنفس الكلية والعقل الكلى ، أما الخلود الفردى فامر لا يراه ابن رشد . الخالد عنده هو الحضارة ، هو الفكر ، هو سقراط ، هو ابن رشد . نحن فى هذه الندوة نتحدث عن ابن رشد ، مع انه غير موجود . فأول نوع من أنواع الخلود عند ابن رشد هو الخلود المعنوى ، أو الخلود الحضارى . النوع الثانى هو الخلود المادى ، فالمادة ما يقال بلغة العلم الحديث لا تفنى ولا تستحدث . البدن .. اين يذهب ؟ هو فى لحظة الموت تغير فى الوضع والمكان . فبدلا من ان يكون الانسان واقفا على الارض ، يكون مستلقيا داخلها . تغير الوضع من الوقوف الى استلقاء والمكان من فوق الارض الى داخل الارض ، ثم يتحلل البدن ، كما يقال بلغة العصر ، الى العناصر الاولية . ونزرع وتنبت شجرة ، ويأتى انسان آخر يأكل من ثمار الشجرة . المادة باقية الى الابد ، مرة تحت الارض ومرة فوقها . البدن الى تراب الى زرع .. وهكذا . نحن حاليا لا نستطيع ان نقول بهذه الوجهة من النظر فيما يتعلق بالخلود ، ونحن حاليا ان لم نؤمن بالخلود بالطريقة الفردية لما كنا مؤمنين . ثالثا : انكار علم الله بالجزئيات وان الله لا يعلم الا الكليات ، لان علم الله علم شامل . لديه قوانينه العامة للكون . وهو يستطيع ان يعرف الجزئيات ولكن من خلال العلم الكلى . فهذه القضايا الثلاث تؤيد بالفعل ان ابن رشد يرفض كل اشباه الحجج واشباه الافكار التى روج لها المتكلمون عن خلق العالم او خلود النفس الجزئية أو علم الله بالجزئيات بطريقة اقناعية . لان هذه الطرق التى استعملها المتكلمون ، والتى يظنون انها لب الفكر الاسلامى، وهى فى الحقيقة طرق خطابية او جدلية . وكلاهما مرفوض عند ابن رشد ، لانه لا يؤمن الا بالبرهان .

د . محمد عاطف العراقى : بالنسبة لفكرة قدم العالم ، أستطيع ان أقول ان ابن رشد ممن يذهبون صراحة الى القول بقدم العالم . صحيح أن بعض الالفاظ عنده ربما تخدع بعض الباحثين ، ومنهم من لا يزالون حتى الآن يقولون بحدوث العالم عند ابن رشد . فهو يقول مثلا ان العالم محدث حدوثا ازليا . ما معنى محدث حدوثا أزليا ؟ كلمة حدوث ازلى تعنى بالضبط أن العالم قديم . وهو مستند فى هذا الى أفكار فلسفية غاية فى الدقة . الدليل الاول يقوم على فكرة الزمان . كيف نستطيع تصور وجود فاصل زمنى بين الله وبين الموجودات . الدليل الثانى يقوم أيضا على فكرة الحركة ، على اعتبار تعليق الحركة على الزمان . الدليل الثالث يقوم على نفس فكرة الاحتمال والامكان ، لانه فى فلسفته العقلية يحاول دائما ان ينفى فكرة الاحتمال والامكان ، فى محاولة رده على الغزالى عندما يقول ان الموجودات عبارة عن احتمالات وامكانات . الدليل الرابع ، كما ذكرت ، يقوم على فكرة القوة والفعل ، وضرورة التسليم بوجود مرحلة القوة قبل مرحلة الفعل ، اى انه ليس عند ابن رشد ما يسمى بالوجود من العدم .

امام عبد الفتاح امام . أريد أن أسأل بعض أسئلة تحيرنى ، لانكم اناس متخصصون اكثر منى فى هذا الموضوع . ما معنى ان يقول ابن رشد : « الحكماء والفلاسفة لا يجوز عندهم التكلم والجدال فى مبادىء الشرائع ، وفاعل ذلك محتاج الى الادب الشديد » وان يقول أيضا « من الواجب على كل انسان أن يسلم بمبادىء الشريعة ، ولذلك وجب قتل الزنادقة » ويقول مرة ثالثة « مبادىء الشريعة امور الهية تفوق الانسان ، فلابد ان يعترف بها مع جهل بأسبابها» اى انى أريد ان أعرف ..

د . حسن حنفى : الحقيقة ان تفسير ذلك يسير ، اذ المعروف عن ابن رشد أن له فلسفتين . فلسفة كتبها للجمهور ، للمتكلمين ، لعامة الشعب ، لانه كان فى بيئة تخلو من الفلسفة هى الاندلس ، لبعد المغرب الاسلامى عن المشرق الاسلامى ، وعدم وصول الكتب . ونجد ان ابن رشد بالفعل يتأسف على هذه الحالة ، هو وابن طفيل الذى يقول : « ونحن فى هذا الصقع البعيد لم تصل الينا كتب المعتزلة، لذلك فاننى لن أتعرض الا للاشاعرة» باعتبارهم متكلمين . ويقول ابن رشد فى مقدمته لعلم الكلام شىء مثل هذا وخاصة فى بيئة كان للفقهاء فيها سيطرة كبيرة . وانت تعلم ان الحكام فى الاندلس قاموا كلهم باسم دعوة دينية . وانت تعرف أثر ذلك . اذن كانت الحمية الدينية ، وخاصة فى عصر كان القتال فيه قائما فى قشتاله شمالا ، بين المسلمين والافرنج .. ولهذا كان لابد من تلك الفلسفة الاولى لابن رشد فلسفة عادية كلامية يبدو فيها ..

امام عبد الفتاح امام : هذا أمر لابد منه . نعم . نعم .

د . حسن حنفى : ولكن ابن رشد فى هذا الجانب من الفلسفة الكلامية يبدو معتزليا وليس اشعريا ، أى انه لم يتخل أيضا عن النزعة العقلية . اما الجانب الثانى فى فلسفة ابن رشد ، فهو الفلسفة التى كتبها لاهل البرهان . وهى الفلسفة التى توجد ، كما قال الدكتور

العراقى فى كتابه ، فى الشروح وخاصة الشرح الصغير . ثم فى « تهافت الفلاسفة » فى رده على الغزالى ، وفى انتصاره للفلاسفة . مع أنه ايضا ينقد الفلاسفة ، ينقد ابن سينا والفارابى . كذلك تبدو فى بعض اشياء خفية فى « فصل المقال » الذى عرض فيه لنظريته وهى النظرية الاساسية ، كما عرفنا ايضا الدكتور العراقى فى كتابه ، التى بنى عليها نزعته العقلية ، وهى تقسيم الناس الى ثلاثة أنواع من حيث المنهج العقلى : النوع الاول هم الذين يلجأون الى الجدل وعلماء الكلام ، والنوع الثانى هم الذين يلجأون الى الخطابة ، الذين يحتاجون الى التأثير والتمويه والى التخييل .. الخ . والنوع الثالث هم الذين يريدون البرهان العقلى السليم . فهو اذن فى « تهافت الفلاسفة » وفى بعض الاشياء وفى مناهج الادلة الخفية التى ذكرها ابن رشد تحت ستار الرد على الاشاعرة باعتباره متكلما معتزليا ، والتى يجب على الدارسين التنبه اليها ودفع ابن رشد فى خطه الاساسى ، وهو النزعة العقلية التى لا تنسب الى ابن رشد كفرد ، بل تنسب الى تراثنا الاسلامى وحضارتنا والى مناهج الفكر الاسلامى ، كمنهج عقلى يفصل بين الفكر والوجدان الدينى ، ويرتبط أساسا بالواقع وبالتجربة . ولا ننسى ان ابن رشد كان طبيبا .

ابراهيم الصيرفى : ومع ذلك ، وبرغم محاولة تخفيه وارتدائه القناع ، انتهى الى المحنة ونفى .

د . محمد عاطف العراقى : وكون المحنة ترجع عندى لاسباب دينية فيه ألف دليل على انه لم يكن مجرد متابع للمتكلمين أو رجال الشرع . والا لارجعنا نكبته لاسباب سياسية .

د . حسن حنفى : حتى فى الجانب الذى ينقد فيه ابن رشد علم الكلام ويعرض فيه الى حد ما الى وجود الله ، ويقدم ادلته على ذلك ، وعلى وجود الرسل، حتى فى هذا الجانب نلاحظ النزعة العقلية بالفعل ، أى فلسفة ابن رشد الحقيقية . ففيها يتعلق بالبراهين على وجود الله التى أعطاها لنا المتكلمون وخاصة الاشاعرة ، نجد ابن رشد يفند دليل الممكن والواجب كلية ودليل الحدوث ، دليل ان لكل حادث محدث الخ ويعطينا ادلة أخرى ، وهى فى الحقيقة ليست أدلة ، عندما يقول ان الدليلين الوحيدين على وجود الله هى دليل العناية ودليل الاختراع . وفى هذين الدليلين نلاحظ بعض مميزات لفلسفة ابن رشد ، لم يرد أن يشر اليها صراحة : دليل العناية وان كل شىء موجود فى هذا العالم من أجل الانسان ، أى وضع من اجل الانسان ، واضح فيه النزعة الانسانية ، الانسان هو سيد الكون . ودليل الاختراع : اللجوء الى التحدى الانسانى . الانسان لا يستطيع ان يخلق شيئا ، ولو كان ذبابة ، كما جاء فى القرآن . أى ان ابن رشد يعطينا بابا ندخل منه الى الاعتزاز بالقدرة الانسانية ، والتحدى الانسان ، وهو ما قاله ضد المتكلمين ، لان البرهان على وجود الرسل أو على صدق النبوة ، عند المتكلمين ، هو المعجزة بالمعنى التقليدى ، أى خرق القوانين الطبيعية ، كما يقول الغزالى أن الله يستطيع ان يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا . وهذا ما يرفضه ابن رشد أشد الرفض ، ويؤمن كما يقول الدكتور العراقى فى كتابه ، بالصلة الضرورية بين العلة والمعلول ، ويقول ان المعجزة الوحيدة لصدق النبوة هى اعجاز القرآن ، كما يقول البلغاء . هل يستطيع أحد ان يقلد القرآن ؟ التجاء ابن رشد اذن للانسان والتحدى الانسانى هو ما يظهر انه فيلسوف عقلى بعيد كل البعد عن الفلسفة الكلامية الشائعة . ثانيا ، نجد أقوال ابن رشد عن الحسن والقبح العقليين مخالفة للرأى الاشعرى الشهور : ان الشىء حسن لان الله قد أحله وان الشىء قبيح لان الله قد حرمه ، اذ يرى ابن رشد ان هناك حسنا عقليا فى الاشياء الى حد ما ، لانه يقول ان الاشياء على الوسط بين هذين . ولكن هذا هو الظاهر فى الحقيقة ، ولكن ابن رشد يؤمن ، فى الباطن ، ان الاشياء حسنة وقبيحة فى ذاتها ، وان هناك قوانين ضرورية فى العالم ، ويفرض تفرقته المشهورة بين الجائز والممكن . ومن الجائز ان يجعل الله الشمس تشرق من المغرب ، وتغرب من المشرق . ولكن ليس هذا ممكنا لان هناك عناية الهية . فالعناية الالهية التى يفسرها الاشاعرة بانها تدخل من الارادة الالهية فى قوانين الطبيعة ، يفسرها ابن رشد على انها تحتم الايمان بالضرورة ، أى الايمان بالربط الضرورى بين العلة والمعلول .

د . محمد عاطف العراقى : لى ملاحظة خاصة عن ادلة وجود الله . لو رجعنا فى الواقع ، تأكيد الكلام الدكتور حسن حنفى ، لشروح ابن رشد على ارسطو فى كتاب ما بعد الطبيعة ، لوجدنا ان ابن رشد يتكلم عن العناية والاختراع على انهما مجرد ظواهر سواء بالنسبة للتحدى الانسانى أو غير ذلك . ولست أنا ، فى الواقع ، الذى تنبه لاهمية كلام ابن رشد عن العناية والاختراع من خلال شروحه ، وانما تنبه اليها المستشرق «مولك» ، اذ أوضح لنا نصا غاية فى الاهمية ، وكر عليه رينان ايضا حين قال ان هذا النص يمكن ان يتكلم عن العناية والاختراع بصورة لا تشبه الصورة التقليدية الضيقة .

امام عبد الفتاح امام : لى فى النهاية سؤال ختامى : هل كان ابن رشد متسقا مع نفسه فى نزعته العقلية فى كل جوانب فلسفته ؟ والى أى مدى كان متسقا ، وما هى الجوانب التى لم يتسق فيها ، وكيف يمكن تعديلها وتطويرها ؟

د . محمد عاطف العراقى : لا أرى فكرة من الافكار

التى قال بها ابن رشد غير متسقة مع غيرها من الافكار الاخرى .. اضرب لى مثلا ؟

امام عبد الفتـــاح امام : انا اسأل سؤالا عاما

د . محمد عاطف العراقى : الواقع انه كان عقليا فى بحثه لكل مشكلة من المشكلات بلا استثناء ، ابتداء من نظرية المعرفة حتى انتقاله من العقل والمعرفة الى العقـل والوجود ، فالى العقل والله . هو فى كل هذه المشـكلات يحدد نفســه بنقط عنـده هى نقط بداية ونقط ارتكاز عقلية . وعلى اساس هذه النقاط يبحث فى كل مشـكلة من المشكلات بناء على تصوره ..

ابراهيم الصـيرفى : لقـــد أدخلت فى ذلك بعض الجوانب ، التى قد تكون فرعيـة على الفلسـفة .. لا أدرى ، حين تحدثت عنه كطبيب .. اذ قلت انه بما هو طبيب كان عقليا .

د . محمد عاطف العراقى : عندما قلت بتفضيله الكليات على الجزئيات ، وهـذا نص له .. ان الطبيب لا ينظر الى العين الجزئية بقدر ما ينظر الى العين على وجه الاطلاق . واظن ان تأثره بارسطو عندما يجعل القلب مصدر الحياة ، لا الدماغ كما يقول جالينوس . اعتقـد انه لا توجد اية مشكلة من المشكلات حلها ابن رشد على اساس غير عقلى .

د . حسن حنفى : اعتقد اننا لو تأملنا فى هـذا الاشكال الذى يثيره الاسـتاذ امام ، وهو موجود بالفعل، وقد تفضل الدكتور العراقى بالاجابة عليه ، معروف عن ابن رشد طبعا ، وقد يكون هذا هو السبب الاســاسي فى محنته من الجانب السياسى ، أى نزعته العقلية . ولكن لو تأملنا فى بعض الاشياء فى فلسفة ابن رشد لتمنينا ان يستمر ابن رشد فى نزعته العقلية . ولـكن هــذه ، فى الحقيقة ، مهمتنا نحن لاننـا لا نسـتطيع أن نطلب من الفيلسوف أن يفعل كل شىء . هو اعطانا المنهج ، ومهمتنا ان نطور تراثنا الاسلامى ، وحصيلتنا الفكرية القديمة ، ابتداء من هذه النزعة العقلية ، واضرب بعض الامثلة : نظرية ابن رشد فى الافلاك ، وقد تكون هذه أضعف الاشياء فى فكرنا الاسلامى القـديم عنـد الفلاسـفة . الافلاك فى تصورهم ، ومنهم ابن رشد وابن سينا ، اجرام سماوية حية تعقل ولها نفوس الى آخر هذه الامور . صحيح ان ابن رشد لا يغالى مثل ابن سينا ، ولكنه ما يزال يؤمن ان الافلاك موجودات حية ذات عقول . مع اننا نعلم ، فى نظر العلم الحديث ، ان الافلاك هى اجرام سماوية تخضع لقوانين ، ويمكن رصدها بالمراصد . اى انهـا موضـوع علمى محض ، لا مجـــال فيه للتفـكير او التـأمل او التشخيص . هذه النقطة هى عيب التفـكير الاسـلامى الفلسـفى القـديم . وأكثر من ذلك ان الافلاك ، عنـد الفارابى وابن سينا ، يمكن عن طريق حركتهـا التنبؤ بالمستقبل والتأثير فى مصائر الناس ، الى آخر ما نعلم عن البروج وحسابها . وهذا شىء يمكن القول انه لايتفق كثيرا مع النزعة العقلية .

ثانيا : يقول ابن رشد الى حد ما بتقسيم ارسطو الى عقل منفعل وعقل فعال وعقل هيولانى وعقل بالملكه . ويقول بان العقل الفعال ، ولو انه يرفض نظرية الاتصال عند ابن باجه لان لها طابعا اشراقيا ، اى ان الاتصـــال ليس اتصالا عقليا بل اتصال وجدانى روحى ..

د. محمد عاطف العراقى : وهو يرفض نظرية الاتصـــال عند الصوفية ، وهذا دليل واضح جدا على نزعتهالعقلية.

د. حسن حنفى : ومع ذلك تبقى عند ابن رشد فكرته عن العقل الفعال ونظرية العقول وتقسيم النفس الى عقـول واتصالها بالعقل الذى هو خارج النفس .

ثالثا : ابن رشد مازال يؤمن بأن هناك صـورا مفارقة . والحق اننا لو وضعنا نزعته العقلية الى جانب نزعته التجريبية لوجدنا ان من الصعب وجود فيلسوف له هاتان النزعتان ويؤمن بأن هناك صورا مفارقة . صحيح ان الصور المفارقة ليست موجودة فى العالم الخارجى ، بل هى فى الاذهان فقط ، ولكن ابن رشد يعطيها وجـودا مستقلا ، ككل الفلاسفة المتدينين فى العصر الوسيط ، لانا مادمنا اثبتنا للمادة صورا مفارقة فاننا بالتالى نثبت وجود العالم الغيبى ، كما هو معروف فى اثبات الملائكة وانواع الملائكة عند توما الاكوينى والفارابى وابن سينا .

رابعا : نجد عند ابن رشد ، الى حد ما ، فكرة الاشرف . الموجودات مترتبة حسب الشرف . وهذا كما نعلم خلط بين حكم القيمة وحكم الواقع . فالموجودات ليست مترتبة بل تخضع كلها لنظرة علمية واحدة .

ومع ذلك استطعنا ان نفهم كل ذلك وان نعيـه بفضل كتاب الدكتور محمد عاطف العراقى عن النزعـة العقلية عند ابن رشد . وهو بالفعل يعتبر اول دراسـة فى عالمنا العربى عن فلسفة ابن رشد . استطعنا على الاقل ان ناخذ منها مادة خصبة واضحة مرتبة ترتيبا تاريخيـا اكاديميا موضوعيا محايدا عن ابن رشد ، يستطيعالدارسون بفضل هذا الكتاب ، ان يعيدوا تأويلها بمناهج فلسـفية ومقارنة تعطى لابن رشد كل ابعاده فى وجداننا المعاصر .

امام عبد الفتـــاح امام : وانا أريد ان اضيف ، متفقا مع الدكتور حسن حنفى ، ان الباحثين فى الفلسفة الاسلامية سوف يفيـدون فائدة كبرى من هـــذا البحث الاكاديمى الموضوعى الجاد ، وسوف يقفون عليه كى يكملوا البناء ، فلااظن ان فى استطاعتهم تجاوزه قبل ان يقراوه قراءة فاحصة .